المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة القصيم
كلية اللغات والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

حِجَاجيَّة الصُّورة البيانيَّة في السُّور المكِّيَّة
مقاربة بلاغيَّة

Argumentation of Figures of Speech in Meccan Surahs
A Rhetorical Approach

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة دكتوراه
الفلسفة في الدراسات الأدبية

إعداد

سلطان بن محمد بن عويض الجهني

٤٢١١٠٠٤٨٩

إشراف

الدكتور: حمود بن إبراهيم العصيلي

أستاذ البلاغة المشارك في كلية اللغات والعلوم الإنسانية بجامعة القصيم

١٤٤٧هـ/ ٢٠٢٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة القصيم
كلية اللغات والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

حِجَاجيَّة الصُّورة البيانيَّة في السُّور المكِّيَّة- مقاربة بلاغيَّة

Argumentation of Figures of Specch in Meccan Surahs A Rhetorical Approach

إعداد الطالب: سلطان بن محمد بن عويض الجهني
الرقم الجامعي: (٤٢١١٠٠٤٨٩)

تمت الموافقة على قبول هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات
درجة دكتوراه الفلسفة في الدراسات الأدبية

لجنة المناقشة والحكم على الرسالة:

أعضاء اللجنة	الاسم	المرتبة العلمية	التخصص	التوقيع
المشرف والمقرر	د. حمود بن إبراهيم العصيلي	أستاذ مشارك	بلاغة ونقد	
المناقش الخارجي	أ.د. يوسف بن عبد الله العليوي	أستاذ	بلاغة ونقد	
المناقش الداخلي	د. حمد بن عبد الله السيف	أستاذ مشارك	بلاغة ونقد	

في يوم الأحد الموافق ٣٠/ ١١/ ١٤٤٧هـ ١٧/ ٥/ ٢٠٢٦م

إهداء

إلى والدي الجليل ومعلِّمي الأول

الشيخ محمد بن عويض القنيدي الجهني -رحمه الله-

الذي كان يناديني بـ(الدكتور) متنبِّئًا بوصولي إلى هذه المرحلة العلميَّة

فكم تمنَّيتُه حيًّا!

لأهديه ثمرة من ثمار آماله ورعايته

شكر وتقدير

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، والشكر له على واسع فضله وكريم إحسانه أن أعانني على إتمام هذا البحث، فله الحمد والشكر كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

ثم أتقدَّم بخالص الشكر وصادق الدعاء إلى والديَّ الكريمَيْن -رحمهما الله- اللذين كانا مصدر الإلهام ونبع العطاء، فاللهم ارحمهما كما ربياني صغيرًا. والشكر موصول إلى زوجتي الغالية وأبنائي (رُبى، ومحمد، ورؤى) الذين تحمَّلوا بصبر ومحبَّة فترة الانشغال بإعداد هذا البحث، فكانوا لي خير سند ومعين، فجزاهم الله عنِّي جميعًا خير الجزاء.

وأتوجَّه بعد ذلك بالشكر الجزيل إلى جامعة القصيم، وكليَّة اللغات والعلوم الإنسانيَّة، وقسم اللغة العربية وآدابها، وأعضاء هيئة التدريس فيه، الذين ما فتئوا يقدِّمون كل غالٍ ونفيس من أجل خدمة العلم وأهله.

وأتوجَّه أيضًا بالشكر والامتنان إلى كل مَن ساعدني، وشدَّ أزري، وأرشدني إلى الصواب، وأخصُّ بالذكر الأستاذ الدكتور السيد عبدالسميع حسونة، الذي رعى هذه البذرة منذ البداية، ولم يألُ جهدًا في تقديم النصح والإرشاد، وكذلك أخصُّ بالذكر الدكتور حمود بن إبراهيم العصيلي، الذي تعاهد تلك البذرة بتوجيهاته السديدة، حتى استقام عودها، وأينعت ثمارها، ولم يدَّخر وسعًا في أي حال من الأحوال، فجزاهم الله عنِّي خير ما جزى أستاذًا عن طلَّابه.

وأتوجَّه أيضًا بالشكر والتقدير إلى الأستاذَيْن الفاضلَيْن أ.د.يوسف بن عبدالله العليوي ود.حمد بن عبدالله السيف؛ لتفضُّلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة وتقويمها، فجزاهما الله عنِّي خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحث

سلطان بن محمد القنيدي

محافظة العلا

حِجَاجيَّة الصُّورة البيانيَّة في السُّور المكِّيَّة
مقاربة بلاغيَّة

سلطان بن محمد بن عويض الجهني

الملخص

يُعنى هذا البحث بدراسة الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة، والكشف عن حِجَاجيَّتها بوصفها وسيلة من وسائل التأثير والإقناع، ولذا، فإنَّها ليست مجرَّد زخارف لفظيَّة عابرة، بل هي ركن أصيل في البناء الخطابي، ولا يمكن الاستغناء عنها في أي حال من الأحوال، وتتجاوز بذلك الجانب الشكلي إلى ما هو أشد وقعًا وأعمق أثرًا.

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، الذي يقوم بوصف الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة وتحليلها، والوقوف على حِجَاجيَّتها من خلال محورَيْن: أولهما: مصادر القوَّة الحِجَاجيَّة فيها. وثانيهما: المفعول الحِجَاجي المترتِّب على ذلك. والاستناد في الوقت ذاته إلى مقولات بلاغة الحِجَاج.

وتتكوَّن الرسالة من مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة، وفهارس. اشتملت المقدمة على مشكلة البحث، وأهميَّته وقيمته، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وتقسيمات الرسالة، ويدور التمهيد حول مفهوم الصورة البيانيَّة، ومفهوم الحِجَاج، ويناقش الفصل الأول حِجَاجيَّة التشبيه عن طريق مبحثَيْن: المبحث الأول: حِجَاجيَّة التشبيه المفرد، والمبحث الثاني: حِجَاجيَّة التشبيه المركَّب، ويتناول الفصل الثاني حِجَاجيَّة المجاز، وفيه ثلاثة مباحث: المبحث الأول: حِجَاجيَّة المجاز العقلي، والمبحث الثاني: حِجَاجيَّة المجاز المرسل، والمبحث الثالث: حِجَاجيَّة الاستعارة، في حين أنَّ الفصل الثالث يركِّز على حِجَاجيَّة الكناية والتعريض، وفيه مبحثان: المبحث الأول: حِجَاجيَّة الكناية، والمبحث الثاني: حِجَاجيَّة التعريض، أمَّا الفصل الرابع فيعالج وظائف الصورة الحِجَاجيَّة من خلال مبحثَيْن: المبحث الأول: التأثير، والمبحث الثاني: الإقناع، وتليه الخاتمة مشتملة على أهم النتائج التي توصَّلت إليها الدراسة وأبرز التوصيات، ومتبوعة بفهرس الآيات، وفهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وأبرز ما خلص إليه البحث أنَّ الخطاب القرآني المكِّي خطاب حِجَاجي إقناعي بامتياز، ومن أهم آلياته الصورة البيانيَّة؛ لأنَّها تعالج قضايا كبرى مفصليَّة، مثل: إثبات وحدانيَّة الله تعالى، والبعث والحساب بعد الموت.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيِّدنا محمد –صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم– ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أمَّا بعد:

فإنَّ القرآن الكريم هو الكتاب الذي لا تنتهي فرائده، ولا تنقضي عجائبه، أودع الله فيه من البيان والحجَّة ما يقيم به الدليل، ويقنع العقول، ويحرِّك القلوب، فتعدَّدت آلياته البلاغيَّة، ومن أبرزها الصورة البيانيَّة، إذ تمثِّل عاملًا مهمًّا في العمليَّة الحِجَاجيَّة، وتضطلع بدور فاعل في إيصال المعنى بوصفها وسيلة من وسائل التأثير والإقناع، التي تؤدِّي إلى الإذعان والتسليم بالأفكار والقضايا المطروحة، ولذا، فإنَّها ليست مجرَّد زخارف لفظيَّة عابرة، بل هي ركن أصيل في البناء الخطابي، ولا يمكن الاستغناء عنها في أي حال من الأحوال، وتتجاوز بذلك الجانب الشكلي إلى ما هو أشد وقعًا وأعمق أثرًا.

ومن هذا المنطلق تشكَّلت فكرة دراسة الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة بالتركيز على حِجَاجيَّتها، وهو جانب لم ينل حظًّا وافيًا من الدراسة، على الرغم من أهميَّته في استكناه فاعليَّة الخطاب المكِّي.

مشكلة البحث:

تتمثَّل مشكلة البحث في الكشف عن حِجَاجيَّة الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة، ومن أهم الأسئلة التي يثيرها هذا البحث ما يأتي:

- ما نتيجة حِجَاجيَّة التشبيه في السور المكِّيَّة؟
- كيف تجلَّت ثمرة حِجَاجيَّة المجاز في السور المكِّيَّة؟
- ما أثر حِجَاجيَّة الكناية والتعريض في السور المكِّيَّة؟
- ما وظائف الصورة الحِجَاجيَّة في السور المكِّيَّة؟

أمَّا الإضافة العلميَّة من هذا البحث فتتمثَّل في الوقوف على حِجَاجيَّة الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة، وما ينتج عنها من تأثير وإقناع وتسليم.

أهميَّة البحث وقيمته:

تكمن أهميَّة البحث في دراسة أثر الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة، بحيث يُركَّز النظر على حِجَاجيَّتها التي تساعد على الإقناع والتأثير في المتلقِّي. وأمَّا أسباب الاختيار فتظهر في الآتي:

١. الإسهام في إغناء الدراسات البلاغيَّة التطبيقيَّة.

٢. خدمة النص القرآني بدراسة متعمِّقة، تقوم على معايشة أثر الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة، والبحث في حِجَاجيَّتها.

٣. لم تُدرَس حِجَاجيَّة الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة -على حد علم الباحث- دراسة علميَّة مستقلَّة جامعة.

٤. المقدرة الحِجَاجيَّة التي يعتمدها القرآن الكريم ببراعة وإتقان في سبيل تحقيق التأثير والإقناع، وبخاصَّة في السور المكِّيَّة.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق أهداف عديدة، يحدِّدها الباحث كما يلي:

١. الكشف عن نتيجة حِجَاجيَّة التشبيه في السور المكِّيَّة.

٢. استجلاء ثمرة حِجَاجيَّة المجاز في السور المكِّيَّة.

٣. معرفة أثر حِجَاجيَّة الكناية والتعريض في السور المكِّيَّة.

٤. بيان وظائف الصورة الحِجَاجيَّة في السور المكِّيَّة.

الدراسات السابقة:

حظيت الصورة البيانيَّة في القرآن الكريم، ولا سيما في السور المكِّيَّة، بالعديد من الدراسات، أهمها:

١) أسلوبيَّة الحِجَاج التداولي والبلاغي: تنظير وتطبيق على السور المكِّيَّة، مثنى كاظم صادق، منشورات ضفاف، لبنان، ط١، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م. وأصل هذا الكتاب أطروحة دكتوراه كان عنوانها: (الحِجَاج في السور المكِّيَّة: دراسة أسلوبيَّة) مقدَّمة إلى الجامعة المستنصريَّة في العراق. تناول هذا الكتاب التمثيل والاستعارة من خلال استعراض نماذج محدودة جدًّا، في

حين أنَّ هذه الدراسة تتناول الصورة البيانيَّة كاملة من تشبيه ومجاز وكناية وتعريض، وتبحث في حِجَاجيَّتها.

٢) جماليَّة التشبيه في السور المكِّيَّة، خولة صالح صيهود، المجلَّة الدوليَّة للعلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، كليَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة في بيروت- لبنان، ع٩، سبتمبر ٢٠١٩م. ركَّزت الباحثة في بحثها على بيان جماليَّة ظاهرة التشبيه في نماذج قليلة جدًّا من السور المكِّيَّة، وهذا الجانب الجمالي يختلف عن الجانب الحِجَاجي الذي يريد البحث دراسته.

٣) أساليب التصوير في السور المكِّيَّة، طراشي حليمة، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة جيلالي ليابس/ سيدي بلعباس، كليَّة الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربيَّة وآدابها، ٢٠١٩م-٢٠٢٠م. تركَّز النظر فيها على تبيان جمال نظم الأسلوب القرآني من خلال الصور البيانيَّة، وهذه الرسالة بعيدة في تناولها الجمالي عن التناول الحِجَاجي.

٤) حِجَاجيَّة الصور البيانيَّة في القرآن الكريم: سورة يوسف عليه السلام أنموذجًا، علي أحمد عمران، مجلَّة الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانيَّة، جامعة العربي التبسي بتبسة- الجزائر، م٦، ع٤، ديسمبر ٢٠٢١م. سعى الباحث في بحثه إلى الكشف عن حِجَاجيَّة القصَّة القرآنيَّة من خلال تجلِّياتها وصورها في سورة يوسف -عليه السلام- وأمَّا هذه الدراسة فتتناول السور المكِّيَّة بالتركيز على حِجَاجيَّة الصورة البيانيَّة فيها.

٥) الصور البيانيَّة ودورها الحِجَاجي في القرآن المكي: نماذج مختارة، شيماء كزوز وعفراء العيفاوي، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي، كليَّة الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، ٢٠٢١م- ٢٠٢٢م. تقوم هذه الرسالة على استنباط ظاهرة الحِجَاج وتحليلها من خلال نماذج محدودة من القرآن المكِّي، واستقراء القضايا البلاغيَّة ورصدها، وفي المقابل تركِّز هذه الدراسة على الصورة البيانيَّة كاملة من تشبيه ومجاز وكناية وتعريض، وتستجلي حِجَاجيَّتها.

هذه أهم الدراسات التي تناولت الصورة البيانيَّة أو شيئًا منها في القرآن الكريم، ولا سيما في السور المكِّيَّة، ويتضح أنَّه لا توجد دراسة علميَّة مستقلَّة جامعة، تدرس (حِجَاجيَّة الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة).

منهج البحث:

يُعنى هذا البحث بدراسة الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة والكشف عن حِجَاجيَّتها، وذلك بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، الذي يقوم بالوصف والتحليل من خلال محورَيْن: الأول: مصادر القوَّة الحِجَاجيَّة فيها. والثاني: المفعول الحِجَاجي المترتِّب على ذلك. والاستناد في الوقت ذاته إلى مقولات بلاغة الحِجَاج، ممَّا يساعد على الوصول إلى النتائج المرجوَّة من هذا البحث.

تقسيمات الرسالة:

وجاء تقسيم الرسالة إلى مقدِّمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة، وفهارس، وتفصيلها على النحو الآتي:

المقدِّمة: وتشتمل على مشكلة البحث، وأهميَّته وقيمته، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وتقسيمات الرسالة.

التمهيد: ويدور حول:

أولًا: مفهوم الصورة البيانيَّة.

ثانيًا: مفهوم الحِجَاج.

الفصل الأول: حِجَاجيَّة التشبيه: ويتكوَّن من مبحثَيْن:

المبحث الأول: حِجَاجيَّة التشبيه المفرد.

المبحث الثاني: حِجَاجيَّة التشبيه المركَّب.

الفصل الثاني: حِجَاجيَّة المجاز: وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: حِجَاجيَّة المجاز العقلي.

المبحث الثاني: حِجَاجيَّة المجاز المرسل.

المبحث الثالث: حِجَاجيَّة الاستعارة.

الفصل الثالث: حِجَاجيَّة الكناية والتعريض: ويتضمَّن مبحثَيْن:

المبحث الأول: حِجَاجيَّة الكناية.

المبحث الثاني: حِجَاجيَّة التعريض.

الفصل الرابع: وظائف الصورة الحِجَاجيَّة: ويحتوي على مبحثَيْن:

المبحث الأول: التأثير.

المبحث الثاني: الإقناع.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصَّلت إليها الدراسة، وأبرز التوصيات.

الفهارس: وتتكوَّن من فهرس الآيات، وفهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وليس من السهولة بمكان الخوض في غمار مثل هذه الموضوعات، فقد ظهرت بعض التحديات، وتتمثَّل فيما يأتي:

أولًا: ما يقتضيه التعامل مع النص الإلهي المقدَّس، بما له من خصوصيَّة تميِّزه عن سائر النصوص، وتفضي إلى تعدُّد آراء المفسِّرين في فهمه وتفسيره، ممَّا يدفع الباحث إلى التأنِّي في ترجيح رأي على آخر، وفي الوقت ذاته يحرص على الوصول إلى كل ما يكشف عن بلاغة هذا النص وحِجَاجيَّته.

ثانيًا: صعوبة استقصاء كل الصور البيانيَّة في السور المكِّيَّة، وتحليلها ضمن فصول الرسالة.

ثالثًا: وجود اختلاف في تمييز السور المكِّيَّة من السور المدنيَّة، ممَّا استدعى الاعتماد على فهرس مصحف المدينة النبويَّة؛ لما يمتاز به من دقَّة التحديد لها.

وقد بذل الباحث ما في وسعه لتجاوز هذه التحديات، ولا يدِّعي الكمال البتَّة؛ لأنَّ الكمال لله وحده لا شريك له.

وما كان في هذه الرسالة من صواب وحق فهو توفيق من الله تعالى، وما كان فيها من خطأ أو نقص فمن نفسي والشيطان، ومهما يكن من جهد مبذول فإنَّ الكمال لله وحده.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكَّلت وإليه أنيب

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

التمهيد:

أولًا: مفهوم الصورة البيانيَّة.

ثانيًا: مفهوم الحِجَاج.

التمهيد

أولًا: مفهوم الصورة البيانيَّة

حظيت الصورة البيانيَّة بالاهتمام والعناية قديمًا وحديثًا، ونتج عن ذلك تباين الآراء، واختلاف الدلالة في تحديد مفهوم دقيق لها، فكان لكلِّ رأي منها نظرته الخاصَّة به.

وأول مسلك للتعرُّف على هذا المصطلح، هو الوقوف عليه بداية في المعاجم اللُّغويَّة، ثم الوصول إلى معناه الاصطلاحي عند النقَّاد والبلاغيين.

وتعني في اللُّغة «الصُّورَة، بالضم: الشكل. والجمع: صُوَر وصِوَر، وقد صَوَّرَه فَتَصَوَّر، وتُستعمل الصُّورَة بمعنى النوع والصفة»[1]. وتَرِدُ الصورة «في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى الصفة، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته»[2]. وتعني أيضًا «الشكل والتمثال المجسَّم. وفي التنزيل العزيز: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٧-٨]. وصورة المسألة أو الأمر: صفتها. والصورة: النوع، يقال: هذا الأمر على ثلاث صور. وصورة الشيء: ماهيته المجرَّدة. والصورة: خياله في الذهن أو العقل»[3]. وتدور الصورة في اللُّغة حول معانٍ متعدِّدة، منها: الشكل، والنوع، والحقيقة، والصفة، والهيئة.

أمَّا الصورة عند النقَّاد والبلاغيين القدامى فقد وردت في أثناء حديثهم عن الشعر وغيره، وأقدم مَن تحدَّث عنها هو "الجاحظ" (ت٢٥٥هـ) حين قال: «فإنَّما الشعر صناعة، وضَرْب من النسج، وجنس من التصوير»[4]. فـ"الجاحظ" استخدم مادَّة (الصورة) في الأدب بصيغة أخرى، وهي (التصوير). وأراد بالتصوير هنا نسج الألفاظ نسجًا يرتقي بالمعاني المقصودة على نحو تصويري حسِّي، ويكون بذلك نتيجة للجهد الذهني المبذول في صناعة العمل الأدبي صناعة تميِّزه عن غيره.

---

[1] القاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، مادَّة: (صور)، ص٥٤٨.

[2] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٤م، مادَّة: (صور)، ٣٠٤/٨.

[3] المعجم الوسيط، مجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة، مكتبة الشروق الدوليَّة، ط٤، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، مادَّة: (صور)، ص٥٢٨.

[4] كتاب الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ١٣٢/٣.

ثم جاء "قدامة بن جعفر" (ت٣٣٧هـ)، فاستعمل كلمة (الصورة) بهذه الصيغة في صدد حديثه عن حد الشعر، فقال: «إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادَّة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة من أن لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها»[١]. ويقصد بالصورة هنا الإطار الخارجي الذي يحدِّد هيكل الشعر وشكله في الأذهان، ويتحقَّق بجلاء عبر ممارسة العمليَّة الإبداعيَّة.

وتناول "أبو هلال العسكري" (ت٣٩٥هـ) كلمة (الصورة) في معرض حديثه عن وجوه التشبيه، فجعل منها تشبيه الشيء بالشيء صورة، وتشبيهه به لونًا وصورة[٢]. وأراد بالصورة هنا الأداة التعبيريَّة التي من خلالها يضع الأطر الخارجيَّة لمثال الشيء وهيكله.

وتشكَّلت ملامح الصورة أكثر عند "عبدالقاهر الجرجاني" (ت٤٧١هـ)، إذ قال: «واعلم أن قولنا "الصورة"، إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلمَّا رأينا البَيْنُونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة، فكان تبَيُّن إنسان من إنسان وفرس من فرس، بخصوصيَّة تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك، وكذلك كان الأمر في المصنوعات، فكان تبَيُّن خاتَم من خاتَم وسِوار من سِوار بذلك، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفَرْقًا، عَبَّرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا: "للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك"»[٣]. ويقصد بالصورة هنا صياغة المعنى صياغة يخلق من خلالها نظمًا متفاعلًا داخل سياق لغوي، ويعكس ما يدور في العقول وما تراه الأبصار شكلًا ومضمونًا، وتتحدَّد قيمته الفنيَّة تبعًا لتلك الفروق الحاصلة بين نظم وآخر، ومثال ذلك تمييز إنسان من إنسان، وفرس من فرس، وخاتم من خاتم، وسِوار من سِوار، فلكل واحد منها خصوصيَّته التي لا تكون إلا فيه. فالصورة عند "الجرجاني" ترتبط بطريقة النظم أو الصياغة، وتشمل كل صياغات الكلام ذات الدلالات الحقيقيَّة أو المجازيَّة.

---

[١] نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر، ط٢، ١٩٦٣م، ص١٧.

[٢] ينظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧١هـ- ١٩٥٢م، ص٢٤٥-٢٤٦.

[٣] كتاب دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلَّق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م، ص٥٠٨.

ويظهر أنَّه «لم يتعمَّق أحد من نقَّاد العرب القدامى ما تعمَّقه عبدالقاهر في فهم الصورة وصلتها بالتعبير، متعمدًا في كل ذلك أساسًا على فكرته في عقد الصلة بين الشعر والفنون النفعيَّة وطرق النقش والتصوير»[1]، وكان له الفضل في إعطائها دلالة اصطلاحيَّة جديدة، إذ إنَّ مَن سبقوه لم يتجاوزوا حدود المدلول اللُّغوي.

أمَّا الصورة في النقد العربي الحديث فقد توسَّع مفهومها، وأصبح «يشمل كل الأدوات التعبيريَّة ممَّا تعوَّدنا على دراسته ضمن علم البيان، والبديع، والمعاني، والعَروض، والقافية، والسرد، وغيرها من وسائل التعبير الفنِّي»[2]. ومِن أوائل النقَّاد العرب الذين تحدَّثوا عن الصورة "مصطفى ناصف"، إذ يرى أنَّها تستعمل عادة «للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسِّي، وتطلق، أحيانًا، مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات»[3]. ويقصر الصورة هنا على الاستعمال الاستعاري والدلالة الحسِّيَّة، ويمكن من خلالها الوقوف على حقيقة الشيء؛ لأنَّ ماهيَّة الصورة عنده «منهج –فوق المنطق– لبيان حقائق الأشياء»[4]، ولذا، فإنَّها تستدعي نوعًا من الوعي يتعدَّى الوعي المنطقي؛ لاستكناه تلك الحقائق.

ويشير "جابر عصفور" إلى أنَّ الصورة «طريقة خاصَّة من طرق التعبير، أو وجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصيَّة وتأثير. ولكن أيًّا كانت هذه الخصوصيَّة، أو ذاك التأثير، فإنَّ الصورة لن تغيّر من طبيعة المعنى في ذاته. إنَّها لا تغيّر إلا من طريقة عرضه وكيفيَّة تقديمه»[5]. وأراد بالصورة هنا طريقة تقديم المعنى بتعبير مخصوص، ينتج عنه خصوصيَّة الدلالة والتأثير في المتلقِّي، وليس للصورة أي دور في تغيير المعنى ذاته، وإنَّما يقتصر دورها في التغيير على طريقة عرضه وتقديمه. وبهذا، فإنَّه يجعلها أسلوبًا من أساليب تقديم المعنى، يحمل خصوصيَّة وتأثيرًا.

ويرى "داود سلُّوم" أنَّ «امتزاج المعنى والألفاظ والخيال كلها هو الذي يسمَّى بالصورة...»[6]. فالصورة عنده مستوحاة من نظريَّة النظم لعبدالقاهر الجرجاني، إذ يسعى إلى

---

[1] النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، ١٩٩٧م، ص١٦١.

[2] الصورة الشعريَّة في الخطاب البلاغي والنقدي، الولي محمد، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٠م، ص١٠.

[3] الصورة الأدبيَّة، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م، ص٣.

[4] المرجع السابق، ص٨.

[5] الصورة الفنيَّة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، ط٣، ١٩٩٢م، ص٣٢٣.

[6] النقد الأدبي، داود سلُّوم، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٦٧م، ٨١/١.

الجمع بين الدلالة اللفظيَّة والدلالة المعنويَّة في مدى ائتلافهما بتصوُّر ذهني تخيُّلي؛ ليشكِّل بذلك عملًا فنيًّا متكاملًا.

وينظر "محمد الصادق عفيفي" إلى الصورة بأنَّها «تجسيم للأفكار التجريديَّة، والخواطر النفسيَّة والمشاهد الطبيعيَّة حسِّيَّة كانت أم خياليَّة على أسس من المبادئ»[1]. فالصورة عنده قد تعدَّدت مصادر تشكيلها سواء أكانت حسِّيَّة أم خياليَّة، وتقوم على أسس من المبادئ أقرب ما تكون للجماليَّة الفنيَّة.

وبهذا يتَّضح أنَّ مفهوم الصورة «ليس من المفاهيم البسيطة السريعة التحديد، وإنَّما هناك عدد من العوامل تدخل في تحديد طبيعتها كالتجربة، والشعور والفكر والمجاز والإدراك الحسِّي، والتشابه والدقَّة...إلخ»[2]، ممَّا جعلها تكتسب أبعادًا متعدِّدة.

ومهما اختلفت الرؤى حول تحديد مدلول الصورة، فإنَّه لا يخفى أثرها في السياق وأداء المعنى، وتأثيرها في نفس المتلقِّي، فهناك فرق «بين أن تفيض الكلمات بالمعاني والمقاصد، وأن تفيض بها الأحداث والصور، فرق بين ما يدل عليه لفظ الشجاعة، وما تدل عليه صورة الأسد ببطشه وإقدامه وبأسه وشدَّته، المعاني التي تفيض بها الأحداث والصور أغزر، وأبين، وأمكن»[3]، وتؤدِّي إلى التسليم أو تزيد في درجاته.

أمَّا الصورة البيانيَّة في القرآن الكريم فإنَّ لها طبيعة خاصَّة، تتجلَّى من خلال عرض المشاهد المتنوِّعة والموضوعات المختلفة، وتقوم على توجيه كل طاقات الألفاظ، وشحنها بالدلالات العميقة والأسرار الكامنة؛ لكي تثير فكر المتلقِّي وعواطفه، وتقوده إلى الإقناع والإذعان، إذ تعدُّ مظهرًا مهمًّا من مظاهر إعجاز كتاب الله؛ لأنَّها تعبِّر عن مقاصده وأغراضه وبيانه، فليست حلية يتزيَّن بها الكلام أو محض صدفة تقع كيفما اتفق، وإنَّما هي منهج معتبر، وخطَّة رصينة، وخصيصة شاملة، وهذا ما جعلها شكلًا من أشكال التحدِّي الذي عجز العرب عن مجاراته بأي وسيلة كانت، وأعطاها أهميَّة كبرى في الدراسات البلاغيَّة والقرآنيَّة.

---

[1] النقد التطبيقي والموازنات، محمد الصادق عفيفي، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٤٢.

[2] الصورة البلاغيَّة عند عبدالقاهر الجرجاني منهجًا وتطبيقًا، أحمد علي دهمان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٦م، ١/٣٠٠-٣٠١.

[3] التصوير البياني: دراسة تحليليَّة لمسائل البيان، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٨، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، ص٦٢.

ويخلص الباحث إلى أنَّ الصورة البيانيَّة هي التعبير الذي يؤدِّي المعنى المقصود عبر طاقات اللغة ودلالاتها البيانيَّة، ويخاطب عقل الإنسان ووجدانه في صورة معبِّرة موحية مؤثِّرة، تهدف إلى حمله على الاقتناع بما يعرض عليه، ويكون ذلك عن طريق علم البيان: التشبيه، والمجاز، والكناية، والتعريض.

ثانيًا: مفهوم الحِجَاج

لم يكن الحِجَاج حديث النشأة، بل إنَّ جذوره ممتدَّة وموغلة في القدم، ولا سيما في الدراسات الغربيَّة والعربيَّة. ولم يحظَ قديمًا وحديثًا بمفهوم محدَّد الدلالة، وإنَّما تجاذبته مجموعة من الحقول المعرفيَّة، فأصبح مرتبطًا بالفلسفة، والمنطق، والبلاغة، والقضاء، والسياسة، وغيرها من العلوم، وهذا ما جعله متباينًا من حقل إلى آخر.

وللتعرُّف على هذا المصطلح لابد من النظر فيه بداية من خلال المعاجم اللُّغويَّة، ثم الوقوف على معناه الاصطلاحي عند الغرب والعرب.

وفي اللُّغة «يقال: حاججتُه أُحاجُّه حِجاجًا ومُحاجَّة حتى حَجَجتُه أي غلبتُه بالحُجَج التي أَدليتُ بها... والحُجَّة: البرهان؛ وقيل: الحُجَّة ما دُوفع به الخصم... وهو رجل مِحْجاج أي جَدِل. والتَّحاج: التَّخاصم؛ وجمع الحُجَّة: حُجَج وحِجاج. وحاجَّه مُحاجَّة وحِجاجًا: نازعه الحُجَّة. وحَجَّه يَحُجُّه حَجًّا: غلبه على حُجَّته»[1]. وتعني أيضًا «الحُجَّة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة... سميت حُجَّة؛ لأنَّها تُحَجُّ؛ أي: تُقصد؛ لأنَّ القصد لها وإليها. وكذلك: مَحَجَّة الطريق هي المقصِد والمسلك»[2]. ويمكن وضع مادَّة: (حجج) في أصول أربعة: الأول: القصد، وكل قَصْد حج، ثم اختُصَّ بهذا الاسم القصد إلى البيت الحرام للنُّسك. والثاني: الحِجَّة وهي السنَة. والثالث: الحِجَاج، وهو العظْم المستدير حول العَين، يقال للعظيم الحِجَاج أحَج، وجمع الحِجَاج أحِجَّة. والرابع: الحَجْحَجة النُّكوص، يقال: حَمَلوا علينا ثمَّ حَجْحَجُوا، والمحَجْحِج: العاجز[3]. ويتراوح الحِجَاج في اللُّغة حول دلالات متقاربة، منها: الغلبة، والجدال، والقصد، والبرهان، والخصام، والنزاع.

أمَّا الحِجَاج في الدراسات الغربيَّة القديمة فقد ظهر عند الفلاسفة اليونان، حيث أولوه المزيد من الاهتمام والعناية في ضوء اهتمامهم بفنون الكلام وقواعده. وأهم مَن اضطلع بهذا "أرسطو"، إذ يقول: «إنَّ الريطورية (يعني صناعة الخطابة) ترجع على الديالقطيقية (يعني صناعة

---

[1] لسان العرب، مادَّة: (حجج)، ٣٨/٤.

[2] تهذيب اللُّغة، محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: أحمد عبدالرحمن مخيمر، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، مادَّة: (حج)، ١٩/٣.

[3] ينظر: معجم مقاييس اللُّغة، ابن فارس، تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، مادَّة: (حج)، ٢٩/٢-٣١.

الجدل)، وكلتاهما توجد من أجل شيء واحد (يعني الإقناع)»[1]. وهذا يؤكِّد أنَّ الخطابة عنده وسيلة لإنتاج الحِجَاج مثلها مثل الجدل، وعلى الرغم من الاختلاف الذي يحصل بينهما في بنية الحِجَاج، فإنَّ التوافق يكون بينهما في مجالَيْ: الاستدلال، والإقناع.

إنَّ الحِجَاج عنده حِجَاجان: جدلي، وخطابي. فالحِجَاج الجدلي يعدُّ ذا «مجال فكري خالص، فهو عادة ما يكون بين شخصَيْن يحاول كلٌّ منهما إقناع صاحبه بوجهة نظر معيَّنة. وأمَّا الحِجَاج الخطابي فمجاله توجيه الفعل وتثبيت الاعتقاد أو صنع الاعتقاد، فهو حِجَاج موجَّه للجماهير»[2]. فالأول يقوم على مرتكزات عقليَّة خالصة، في حين أنَّ الثاني يقوم على مرتكزات عاطفيَّة، وكلاهما يسعى إلى تحقيق غاية واحدة هي (الإقناع والتأثير).

وهذا ما جعل الحِجَاج عنده يرتبط بثلاثة مستويات: (الإيتوس، الباتوس، اللوغوس)؛ فالإيتوس يعني صفات الخطيب، وصورته المتشكِّلة في الأذهان. ويقصد بالباتوس مجموعة انفعالات يرغب الخطيب في إثارتها لدى المتلقِّين. ويمثِّل اللوغوس الحِجَاج المنطقي، الذي يعبِّر عن الجانب العقلاني في السلوك الخطابي، ويرتبط بالقدرة الخطابيَّة على الاستدلال والبناء الحِجَاجي[3]. ولا يمكن أن يتحقَّق في هذه المستويات الحِجَاج والإقناع إلَّا من خلال تضافرها وتكاتفها في آن واحد.

ويظهر أنَّ الحِجَاج عند "أرسطو" بناء بلاغي صفته الأساس (الاحتمال)، وينهض على آليات متعدِّدة خطابيَّة كانت أو جدليَّة، ويركِّز دائمًا على تحقيق الوظيفة الإقناعيَّة، وتشترك في توجيهه حِجَاجيًّا عناصر مقاميَّة من متكلِّم ومستمع وظروف.

أمَّا الحِجَاج عند العرب قديمًا فقد برز في خضم اهتمامهم بالممارسات التخاطبيَّة، إذ جعلوا للكلام مقامات تراعي مقتضيات الأحوال المختلفة، وتسعى إلى نتيجة مفادها: الإفهام، والإقناع. وأبرز مَن تناوله "الجاحظ" (ت٢٥٥هـ) في أثناء حديثه عن البيان، الذي هو «اسم

---

[1] الخطابة، أرسطوطاليس، حقَّقه وعلَّق عليه: عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩م، ص٣.

[2] الحِجَاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط٢، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، ص١٨.

[3] ينظر: النظريَّة الحِجَاجيَّة من خلال الدراسات البلاغيَّة والمنطقيَّة واللسانيَّة، محمد طروس، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص١٨-١٩.

جامع لكل شيء كشَفَ لك قِناع المعنى، وهتَك الحجاب دون الضمير، حتى يُفْضي السامع إلى حقيقته، ويَهجُم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأنَّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنَّما هو الفَهْم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[1]. فالحِجَاج هنا يتحقَّق من خلال البيان الذي يستهدف غاية رئيسة هي (إفهام السامع وإقناعه)، وتستدعي هذه الغاية ضرورة مراعاة أحوال المخاطبين، والمقامات التواصليَّة، والظروف المحيطة بها.

وجاء الحِجَاج عند "ابن وهب الكاتب" (ت٣٣٥هـ) ضمن الجدل والمجادلة، إذ هما «قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب، والديانات، وفي الحقوق، والخصومات، والتنصل في الاعتذارات، ويدخل في الشعر وفي النثر»[2]. فالحِجَاج هنا جزء من الجدل، ويسهم في حل النزاعات والاختلافات بين المتجادلين، ويكون ذلك بإقامة الحجة في موضعها المناسب، الذي ينتج عنه الاستمالة والإقناع.

وتحدَّث "أبو هلال العسكري" (ت٣٩٥هـ) عن الحِجَاج تحت عنوان (في الاستشهاد والاحتجاج)، ووصفَه بأنَّه «كثير في كلام القدماء والمحدثين... ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكِّده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته»[3]. فالحِجَاج هنا يدور حول الدليل أو البرهان، ويتكوَّن من معنيَيْن: الأول: هو الدعوى التي يريد الاحتجاج لها. والثاني: هو الحجة التي يستشهد بها على صحة المعنى الأول. ويقصد من ورائهما التأثير في المتلقِّي.

وعدَّ "أبو الوليد الباجي" (ت ٤٧٤هـ) هذا العلم «من أرفع العلوم قدرًا وأعظمها شأنًا؛ لأنَّه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال»[4]. فجعل الحِجَاج هنا علمًا قائمًا بذاته، يهتم بكل ما يؤدِّي إلى معرفة الحق وتمييزه.

---

[1] البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، ص٧٦.

[2] البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م، ص٢٢٢.

[3] كتاب الصناعتين، ص٤١٦.

[4] كتاب المنهاج في ترتيب الحِجَاج، أبو الوليد الباجي، تحقيق: عبدالمجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ٢٠٠١م، ص٨.

ويتضح أنَّ الحِجَاج عند العرب القدماء كان حاضرًا في مؤلَّفاتهم، وشكَّل بنية أساسيَّة حتى وإن اختلفت تسمياته، فمنهم مَن أطلق عليه البيان في سبيل الإفهام والإقناع، ومنهم مَن وظَّفَه ضمن الجدل والمجادلة، ومنهم مَن جاء به؛ للاستدلال والاستشهاد، ومنهم مَن جعلَه علمًا قائمًا بذاته بين العلوم.

أمَّا الحِجَاج في الدراسات الغربيَّة الحديثة فقد تبلورت معالمه عام ١٩٥٨م على يدَيْ "شاييم بيرلمان" و"لوسي أولبرخت تيتكا" عند صدور كتابهما (المصنَّف في الحِجَاج: الخطابة الجديدة)، إذ عرَّفاه بأنَّه «دراسة الأدوات الخطابيَّة التي تسمح ببعث أو زيادة استمالة الأذهان إلى الدعاوى التي تُقدَّم للموافقة عليها»[١]. ويقوم الحِجَاج عندهما على منتجي الخطاب من خلال توظيف التقنيات الحِجَاجيَّة المختلفة، التي تسهم في تحريك الأذهان؛ لكي تكون متهيَّأة لقبول الأطروحات المعروضة أو تزيد في درجة قبولها، ويتحقَّق بهذا الاقتناع والتأثير والإذعان. وقد حصرا هذه التقنيات في تقنيتَيْن: أولها: الوصل: ويعمل على التقريب بين العناصر المتباينة للوصول إلى نتيجة واحدة. وثانيها: الفصل: ويعمل على الفصل بين العناصر المتحدة فيما بينها لغايات حِجَاجيَّة[٢]. فالحِجَاج عند "بيرلمان" و"تيتكا" يتكوَّن من الكلام (تقنيات الخطاب)، ويتجه إلى العقل (ميدان الحِجَاج)، ويسعى إلى تحقيق غاية واحدة (الاقتناع والإذعان).

وأشار "ديكرو" و"أنسكومبر" في كتابهما (الحِجَاج في اللُّغة) إلى أنَّ الحِجَاج يقوم على «دراسة الجوانب الحِجَاجيَّة في اللُّغة، ووصفها انطلاقًا من فرضيَّة محوريَّة ألا وهي "أنَّنا نتكلَّم عامَّة بقصد التأثير". أي: تحمل اللُّغة في طيَّاتها بصفة ذاتيَّة وجوهريَّة وظيفة حِجَاجيَّة تتجلَّى في بنية الأقوال ذاتها، صوتيًّا، وصرفيًّا، وتركيبيًّا، ودلاليًّا»[٣]. فالحِجَاج عندهما محصور في اللُّغة فحسب، ولا ينظر إلى ماهو واقع خارجها. وتضطلع اللُّغة بوظيفة أساسيَّة تتمثَّل في إقامة الحجج بمستويات لغويَّة مختلفة، تسهم في عمليَّة إقناع المتلقِّي وتغيير مواقفه وأفكاره، ويكون ذلك بتقديم المتكلِّم قولًا يفضي إلى التسليم بقول آخر، عن طريق إنجاز عملَيْن: عمل التصريح

---

[١] المصنَّف في الحِجَاج: الخطابة الجديدة، شاييم بيرلمان ولوسي أولبرخت تيتكا، ترجمة: محمد الولي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٢٣م، ص٤٧.

[٢] ينظر: المرجع السابق، ص٥٦.

[٣] من الحِجَاج إلى البلاغة الجديدة، جميل حمداوي، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٤م، ص٣٥.

بالحجة من ناحية، وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى، سواء أكانت النتيجة مصرَّحًا بها أم ضمنيَّة مفهومة[1]. وبهذا، فإنَّ الحِجَاج عند "ديكرو" و"أنسكومبر" لا يتشكَّل إلا في اللُّغة نفسها بعيدًا عمَّا يقع خارجها، ويقصد التأثير في المتلقِّي بما يجعله يغيِّر قناعاته وتوجُّهاته.

وتناول "ماير" الحِجَاج انطلاقًا من نظرية المساءلة، إذ عرَّفه بأنَّه «دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيه. والوجه في ذلك، حسب رأيه، أن يوجد في معنى الجملة الحرفي شارة حِجَاجيَّة تؤدي إلى ظهور الضمني في ضوء ما يمليه المقام، وتلوِّح بنتيجة ما تكون مقنعة أو غير مقنعة»[2]. ويقوم الحِجَاج عنده على قسمَيْن رئيسَيْن: صريح، وضمني. فالحِجَاج الصريح يتمثَّل فيما يورده المتكلِّم من جواب مصرَّح به وهو (الحجة)، والحِجَاج الضمني يتمثَّل فيما يكتشفه السامع من سؤال أو أسئلة مضمرة في السياق، ولذا، فإنَّ الضمني يرتبط لزومًا بالصريح عن طريق معطيات مقاميَّة. ويظهر أنَّ الحِجَاج عند "ماير" ينهض على ثنائيَّة متلازمة (سؤال/ جواب)، فظاهر الكلام (الجواب) وضمنيه (السؤال)، وما بينهما ينشأ الحِجَاج.

ويتبيَّن أنَّ الحِجَاج في الدراسات الغربيَّة الحديثة تبلور في عدَّة نظريَّات، أهمها: نظريَّة "بيرلمان" و"تيتكا" التي تقوم على الفصل والوصل الحِجَاجيَّيْن، ونظريَّة "ديكرو" و"أنسكومبر" التي تجعل الحِجَاج قائمًا في جوهر اللُّغة نفسها دون النظر إلى خارجها، ونظريَّة "ماير" التي تقوم على ثنائيَّة حِجَاجيَّة (سؤال/ جواب). وتسعى هذه النظريَّات إلى تحقيق (التأثير والإقناع).

أمَّا الحِجَاج عند العرب حديثًا فقد حظي باهتمام نخبة من الباحثين، ومن أبرزهم "طه عبدالرحمن" الذي عرَّف الحِجَاج بأنَّه «كل منطوق به موجَّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها»[3]. ويتأسَّس الحِجَاج عنده على قصدَيْن رئيسَيْن: قصد الادعاء من جهة المخاطِب، وقصد الاعتراض من جهة المخاطَب. وهذا ما جعله «فعاليَّة تداوليَّة جدليَّة، فهو تداولي؛ لأنَّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي...، وهو أيضًا جدلي؛ لأنَّ هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلاليَّة»[4]. فالحِجَاج عند "طه عبدالرحمن" يأخذ طابعًا فلسفيًّا

---

[1] ينظر: الحِجَاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة، عبدالله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م، ص٣٣.

[2] المرجع السابق، ص٣٧.

[3] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٢٦.

[4] في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٧م، ص٦٥.

تداوليًّا جدليًّا؛ لأنَّه يراعي السياقات المقاميَّة والاجتماعيَّة المختلفة، ويراعي أيضًا المعارف والخبرات المشتركة بين المتخاطبين؛ وذلك لتحقيق الانسجام الحواري الذي يقود إلى التأثير والإفهام والإقناع.

وجاء الحِجَاج عند "محمد العمري" متجلِّيًا في العمليَّة الإقناعيَّة، انطلاقًا «من أنَّ البلاغة هي علم الخطاب الاحتمالي الهادف إلى التأثير أو الإقناع أو هما معًا، إيهامًا أو تصديقًا»[1]. فالحِجَاج عنده يتشكَّل في الخطاب الإقناعي الذي يركِّز على عدَّة عناصر، وهي: المقام، وصور الحِجَاج (القياس- المثل- الشاهد)، والأسلوب، وترتيب أجزاء القول[2].

وذكر "أبو بكر العزاوي" أنَّ الحِجَاج هو «تقديم الحجج والأدلة المؤدِّية إلى نتيجة معيَّنة، وهو يتمثَّل في إنجاز تسلسلات استنتاجيَّة داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثَّل الحِجَاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللُّغويَّة، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها»[3]. ويكمن الحِجَاج عنده في اللُّغة، ويأتي على قسمَيْن متتابعَيْن، أولهما: يكون في تقديم الحجج اللُّغويَّة. وثانيهما: يكون في نتائج تلك الحجج. ويروم اكتشاف منطق اللُّغة المتمثِّل في القواعد الداخليَّة للخطاب، التي تتحكَّم في تسلسل الأقوال وتتابعها.

ويتضح أنَّ الحِجَاج عند العرب المحدثين برز في ثلاثة اتجاهات: أولها: فلسفي ويمثِّله "طه عبدالرحمن"، وثانيها: بلاغي ويمثِّله "محمد العمري"، وثالثها: لغوي ويمثِّله "أبو بكر العزاوي".

أمَّا الحِجَاج في القرآن الكريم فإنَّ له طبيعة خاصَّة، يكتسبها من خصائص الخطاب القرآني، الذي «يرمي إلى تغيير وضع ذهني يترتَّب عليه ضرورة تغيير وضع مادي»[4]، ويسعى إلى الإفهام والإقناع من خلال استثمار اللُّغة وإمكاناتها الواسعة.

وخلاصة القول: إنَّ الحِجَاج هو عمليَّة تخاطبيَّة تكون بين طرفَيْن فأكثر حول أطروحة ما، وتكتسب أبعادها من الأحوال والقرائن، وتهدف إلى استمالة الآخرين والتأثير فيهم وإقناعهم بما يعرض عليهم، ويكون ذلك عن طريق آليات لغويَّة وبيانيَّة متعدِّدة.

---

[1] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠١٢م، ص٦.

[2] ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٢٩-١٤٥.

[3] اللُّغة والحِجَاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٦م، ص١٦.

[4] الحِجَاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة، ص٤٣.

الفصل الأول:

حجاجيَّة التشبيه

الفصل الأول

حِجَاجيَّة التشبيه

يعدُّ التشبيه من أهم الآليات الحِجَاجيَّة التي تشغل حيّزًا كبيرًا عند النقَّاد والبلاغيين قديمًا وحديثًا؛ لأنَّه يساعد على إثارة المتلقِّي وإشغال تفكيره، بما يحتوي عليه من أطروحة تصويريَّة تحمله على القبول والاقتناع.

وجاء في اللُّغة أنَّ «الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونًا ووصفًا»[1]. ويعني «الشِّبْه والشَّبَه والشَّبيه: المِثْل، والجمع أشباه. وأشْبَه الشيءُ الشيءَ: ماثله... وأشبهتُ فلانًا وشابهته واشتبه عليَّ وتشابَه الشيئان واشتبَها: أشْبَه كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه... والتشبيه: التمثيل»[2]. ويدور التشبيه في اللُّغة حول معاني المماثلة والمشاكلة ونحوهما.

أمَّا في الاصطلاح فقد تعدَّدت تعريفات التشبيه، ومن أهمِّها ما أشار إليه "الرُّمَّاني" (ت٣٨٦هـ) بقوله: «التشبيه هو العقد على أنَّ أحد الشيئَيْن يسد مسد الآخر في حس أو عقل»[3]. فـ"الرُّمَّاني" يؤكِّد وجود قرينة تربط بين شيئَيْن، وتجعل أحدهما ينوب عن الآخر، ويتشكَّل في اللفظ والاعتقاد.

وتناول "ابن رشيق" (ت٤٥٦هـ) التشبيه على أنَّه «صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنَّه لو ناسبه مناسبة كليَّة لكان إيَّاه»[4]. ويقصد هنا أنَّ الشيء قد يشترك مع آخر بصفة أو صفتَيْن أو صفات كثيرة، ولكنَّه لا يصل إلى حد التناسب الكلِّي بينهما؛ لأنَّه لو كان الأمر كذلك، لم يكن هناك ما يستدعي إقامة هذه العلاقات.

وذكر "السكاكي" (ت٦٢٦هـ) أنَّ التشبيه «مستدع طرفَيْن، مشبهًا ومشبهًا به، واشتراكًا بينهما من وجه، وافتراقًا من آخر، مثل: أن يشتركا في الحقيقة، ويختلفا في الصفة، أو

---

[1] معجم مقاييس اللُّغة، مادَّة: (شبه)، ٢٤٣/٣.

[2] لسان العرب، مادَّة: (شبه)، ١٧/٨.

[3] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّمَّاني والخطَّابي وعبدالقاهر الجرجاني في الدراسات القرآنيَّة والنقد الأدبي، حقَّقها وعلَّق عليها: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦م، ص٨٠.

[4] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصريَّة، بيروت، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، ٢٥٢/١.

بالعكس»[1]. فـ"السكاكي" يضع أمرَيْن رئيسَيْن لا يتحقَّق التشبيه إلا بهما: أولهما: وجود طرفَيْ التشبيه: المشبَّه، والمشبَّه به. وثانيهما: أن يشتركا في وجه، ويفترقا في آخر.

وبهذا يتبيَّن أنَّ التشبيه لم يبتعد كثيرًا في الاصطلاح عن المعنى اللُّغوي، فقد اتفق معظم النقَّاد والبلاغيين ضمنيًّا على أنَّه «الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى»[2]، حتى لو اختلفوا في صياغة تعريفه ظاهرًا.

وللتشبيه مكانة كبيرة في الكلام، إذ يعطي اللفظ حلاوة، ويضفي عليه طلاوة، ويظهر الخفي، ويقرِّب البعيد، ويزيد المعنى وضوحًا، ويكسبه تأكيدًا، ولهذا اتفق جميع المتكلِّمين من العرب والعجم على أهميَّته، ولم يستَغْنِ أحد منهم عنه[3].

وقيمة التشبيه الحِجَاجيَّة لا تكون فيما يجمع من صفات ثلاثة: المبالغة، والبيان، والإيجاز[4] فحسب، وإنَّما تتجاوز ذلك إلى تحقيق غايات إقناعيَّة وتأثيريَّة، تسهم في تحريك القلوب وتحفيز الأذهان، وإحداث تغيير في المواقف العاطفيَّة والفكريَّة[5].

وتميَّزت تشبيهات القرآن الكريم عن غيرها بأنَّها جزء أساس منه، ولم تقف «عند مجرَّد تسجيل وجوه الشبه المادِّيَّة بين الأشياء، بل تجاوزتها إلى المماثلة النفسيَّة، وتعمقتها حتى أضفت عليها حياة شاخصة وحركة متجدِّدة، فانقلب المعنى الذهني إلى هيئة أو حركة، وتجسَّمت الحالة النفسيَّة في لوحة أو مشهد، وليس هذا فحسب، بل يُبرِز جمال التشبيه القرآني ما فيه من إبداع في العرض، وجمال في التنسيق، وروعة في النظم والتأليف، وجرس في الألفاظ يدل على صورة معانيها»[6]، وهذا يقود إلى التأثير في المتلقِّين وإقناعهم بما تعرضه هذه التشبيهات.

---

[1] مفتاح العلوم، السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلَّق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص٣٣٢.

[2] الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي، المكتبة العصريَّة، بيروت، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، ص٢٠٩.

[3] ينظر: كتاب الصناعتين، ص٢٤٣.

[4] ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، قدَّمه وعلَّق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، ط٢، ١٩٧٣م، ١٢٢/٢.

[5] ينظر: اللُّغة والخطاب، عمر أوكان، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١١م، ص٢١٨.

[6] الصورة الأدبيَّة في القرآن الكريم، صلاح الدين عبدالتواب، الشركة المصريَّة العالميَّة للنشر- لونجمان، مصر، ط١، ١٩٩٥م، ص٤٥.

وللبلاغيين رؤى في تقسيمات التشبيه[1]، ولكن الدراسة ستقتصر على التشبيه المفرد والتشبيه المركَّب؛ لأنَّ لهما أهميَّة كبيرة في الكشف عن الجوانب الحِجَاجيَّة التي يكتنزانها في السور المكِّيَّة.

وتتشكَّل دراسة هذا الفصل في مبحثَيْن على النحو الآتي:

المبحث الأول: **حِجَاجيَّة التشبيه المفرد**.

المبحث الثاني: **حِجَاجيَّة التشبيه المركَّب**.

[1] ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ص٢١٤-٢٥٧. وعلوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م، ص١٨٠-٢٠٠. والبلاغة فنونها وأفنانها: علم البيان والبديع، فضل حسن عبَّاس، دار النفائس، الأردن، ط١٢، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٩م، ص٤٩-٩٧.

المبحث الأول

حِجَاجيَّة التشبيه المفرد

يُعرَّف التشبيه المفرد بأنَّه التشبيه الذي يقوم على لفظ المفرد، بحيث «يكون فيه الوصف المشترك محققًا في شيء واحد»[1]، ويحمل طاقة حِجَاجيَّة وقوَّة إقناعيَّة، تدفع المتلقِّي إلى الاقتناع والتسليم بما يعرض عليه.

ويتجلَّى هذا النوع في السور المكِّيَّة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢]، وظهر التشبيه في هذه الآية الكريمة مؤَكِّدًا أنَّ الدنيا زائلة لا محالة، ويجب على الإنسان أن يستثمرها بالأعمال الصالحة بعيدًا عن الانشغال بما لا يجدي نفعًا؛ لأنَّ الحياة الدنيويَّة الفانية جسر إلى الحياة الأخرويَّة الباقية.

ومحاجَّة التشبيه تنهض على أنَّه شبَّه الحياة الدنيا باللعب واللهو، وبينهما حالة من المماثلة في الفعل والمآل، فمَن اتبع الهوى ضلَّ عن سواء السبيل، وكانت عاقبته الحسرة والندامة والهلاك، وأمَّا مَن آمن بالله فقد اهتدى إلى سبل الخير والفلاح، وكانت نهايته الفرح والرضا والنجاة، وكلا الأمرَيْن يكشف بجلاء عن قيمة زخارف الدنيا في ميزان الآخرة، وأنَّ التمسُّك بها ليس ضربًا من الجهل والعناد فحسب، وإنَّما هو إعراض عن دعوة الله إلى الحق ومخالفة لأوامره ونواهيه[2]. ويستدعي التلازم بين الدنيا والآخرة مسألة محوريَّة تدور حول (البعث والجزاء بعد الموت)، ممَّا يستوجب الرد على منكريها الكفرة، وتفنيد دعواهم الباطلة بالحجج المقنعة والأدلَّة القطعيَّة، وإثبات وقوعها في الآخرة بما لا يدع مجالًا للظن والتوهُّم، وهذا يبيّن أنَّ الإيمان باليوم الآخر أصل من أصول الدين، وتتأسَّس عليه الرؤى والتصوُّرات القائمة على جدليَّة الحياة والموت، بما يعيد تنظيم علاقة الإنسان بدنياه، ويجعله أكثر وعيًا بمصيره الحتمي.

ويكتسب التشبيه فاعليَّته من الاعتماد على الواقع المعيش، فاللعب واللهو مظهران من المظاهر المألوفة في حياة الناس، وتوظيفهما في سياق الإخبار عن خيريَّة دار الآخرة يدل على سهولة تصوُّرهما في الأذهان، وإمكانيَّة قياس الدنيا عليهما؛ لأنَّ الاشتغال بهما يزيد من الغفلة

---

[1] التصوير البياني: دراسة تحليليَّة لمسائل البيان، ص٨١.

[2] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسيَّة للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ١٩٣/٧.

والبُعد عن العبادات والطاعات، فضلًا عن سرعة الانقضاء وذهاب اللذَّة، ودنو القدر والمرتبة، وهذه هي الدنيا دائمًا إذا خلت من ذكر الله[1] لا طائل منها.

إنَّ معرفة حقيقة الحياة الدنيويَّة الزائلة كفيلة بالتأثير في نفوس المتلقِّين وإقناعهم بأن يعيدوا النظر في مسار حياتهم الخاطئ، ويبتعدوا عن الملهيات والملذَّات، ويقبلوا على الله بأقوالهم وأفعالهم، ويسارعوا إلى الخيرات والأعمال الطيِّبة المباركة، ويقدِّموا لحياتهم الأخرويَّة الأبديَّة ما ينفعهم من الصالحات الباقيات؛ لأنَّ دار الفناء لا تستقيم أبدًا إلا إذا كانت وسيلة لبلوغ دار البقاء.

وفي أثناء الحديث عن قصَّة نوح -عليه السلام-[2] ورد التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود:٤٢]، ويكشف عن الحالة التي كانت عليها السفينة الناجية من الطوفان العظيم، إذ تجاوزت كل المهلكات بأمر الله وحكمته، وأصبحت المعجزة الخالدة التي تشهد على نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.

والحجيَّة تقوم على أنَّه شبَّه الموج الذي تجري فيه السفينة بالجبال؛ لأنَّ «الجبال توحي بالضخامة والجلال معًا، وكأنَّ كل موجة من ذاك الموج كانت كجبل في ارتفاعها وضخامتها»[3]. وتأتي هذه الصورة التشبيهيَّة في إطار استكناه مضمرات الخطاب القرآني، الذي يوظِّف المشاهد الكونيَّة بوصفها وسيلة من وسائل الوعظ والإنذار؛ ليخلق حالة من التأمُّل والتفكُّر في قدرة الله العظيمة التي تفوق كل قدرات المخلوقين، وشأنه الذي يعلو على كل شأن، وسلطانه الذي يقهر كل سلطان، فمَن آمن وعمل صالحًا فلا خوف عليه ولا يأسى، وينجيه الله من العذاب والهلاك، وأمَّا مَن كفر وعصى فقد ظلم نفسه، وليس له من ولي ولا نصير، ولن ينجيه أحد من العقاب والوبال، وهكذا حال السفينة ينجو مَن ركب فيها مؤمنًا، ويغرق مَن تخلَّف عنها كافرًا.

---

[1] وقد ورد في الحديث أنَّ رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- يقول: «ألا إنَّ الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلِّم». الجامع الكبير، أبو عيسى محمد الترمذي، حقَّقه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، أبواب الزهد، رقم الحديث: ٢٣٢٢، ١٥١/٤.

[2] ينظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق: سعيد اللحَّام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، ص٦٥-٩٧.

[3] من بلاغة النظم القرآني، بسيوني عبدالفتاح فيود، مطبعة الحسين الإسلاميَّة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م، ص٢٩٣.

وفي هذا تحذير من خطورة الإصرار على الشرك والضلال، وتنبيه إلى ضرورة أخذ العظة والعبرة من مصير أولئك الكفَّار الذين كذَّبوا الرسالة، وتمرَّدوا على رسولهم، فاستحقوا ما حلَّ بهم من غضب الله، فأهلكهم بالطوفان إهلاكًا لا مثيل له.

ومفعول التشبيه الحِجَاجي يعتمد على توظيف المألوف (جريان السفينة في البحر) في موضع غير المألوف (جريان السفينة في موج ضخم كالجبال)، ويترتَّب على هذا المشهد المهول إثارة عواطف المخاطَبين، وتغيير التصوُّرات الراسخة في أذهانهم، بحيث ينتقلون من الشرك والعصيان إلى التوحيد والإذعان، ويكونون أكثر إقبالًا واستجابة لما يعرض عليهم من دعوة الهداية والنور.

وينطوي عقد المشابهة بين الموج الهادر والجبال الشامخة على حمولة حِجَاجيَّة، تفضي إلى الوقوف على أهوال ذلك الموقف المهيب، وتدفع إلى تحقيق التأثير والإقناع من جهتَيْن: الأولى: تثبيت المؤمنين على الحق، وعصمتهم من العذاب، مع أنَّ الموج عظيم والحالة عصيبة، ممَّا يدل على أنَّ قوَّة الله فوق كل قوَّة، وحفظه لعباده الصالحين متحتم مهما كانت الظروف والأهوال. والثانية: ردع الكافرين المعتدين الذين إذا لم يرعووا يحلُّ بهم العذاب، ويستأصل شأفتهم، فلا يبقي على الأرض منهم ديَّارًا. وكلتا الجهتَيْن تسهم في بيان ما يحظى به أهل الإيمان من رعاية واهتمام، وما ينتظر أهل الكفر من عقاب وإبادة.

وفي وصف حال النسوة اللاتي رأين يوسف –عليه السلام– برز التشبيه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف:٣١]، ويبيّن شدَّة ذهولهن وفرط دهشتهن عندما خرج عليهن، حتى إنَّهن انشغلن بجماله عن أنفسهن، فقطَّعن أيديهن من دون وعي.

وترتكز المحاجَّة على أنَّهن شبَّهن يوسف الصديق «بواحد من الملائكة بطريقة حصره في جنس الملائكة تشبيهًا بليغًا مؤكَّدًا»[1]؛ لمَّا رأين عليه هيبة النبوَّة وتمام العفَّة، وهذا يدل على أنَّه بلغ من الكمال مبلغًا جعلهن يتجاوزن حدود بشريَّته، وكأنَّه آتٍ من عالم مغاير لا تخضع معاييره لما ألفه الناس من طبائع البشر، فانتقل بذلك وعيهن من العالم الحسي إلى العالم

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٢٦٣/١٢.

المتخيَّل، وأقررن بأنَّ جمال يوسف جمال ملائكي[1] لا مثيل له في الخلق. وقد جاءت هذه الآية الكريمة ردًا عمليًّا من امرأة العزيز على ما أوردنه النسوة من اتهام ومكر في قوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [يوسف:٣٠]، وتبريرًا لما وقعت فيه من حب لفتاها، وما أقدمت عليه من مراودة له، ولذا أرادت أن تستثمر المحاجَّة لصالحها، حين أخرجت النسوة من موقع اللوم والتأنيب إلى موقع الإعجاب والانبهار، فسقطت دعاويهن من تلقاء نفسها، وتبددت حججهن من بعد أن قطَّعن أيديهن إذعانًا له، وأصبح ما كان موضع إدانة واستنكار محط إجلال وتمجيد، حيث تبيَّن للعيان أنَّ ما أصاب النسوة من ذهول ودهشة قد أصاب امرأة العزيز من قبل، وأنَّ يوسف بريء من كل تهمة وافتراء، فضلًا عن عظم شأنه وعلو مكانته بين الخلائق قاطبة.

ويستقي التشبيه مفعوله الحِجَاجي من استحضار المخزون الذهني، إذ وظَّف ما ترسَّخ في الذاكرة الجمعيَّة من تصوُّرات عن الملَك، تتمثَّل في أنَّه الأكمل حسنًا والأسمى منزلة والأبعد عن الشهوات[2]، وما تشبيه يوسف -عليه السلام- بالملَك إلا بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، تدعم إعادة تشكيل المفاهيم الكبرى المرتبطة بالفتنة والغواية، فتكسر القاعدة السائدة التي تجعل الرجل هو المفتتن بالمرأة والساعي إليها، والمرأة هي مصدر الفتنة والإغواء؛ لكي تقدِّم مشهدًا مناقضًا لما هو مألوف في أذهان الناس، فيغدو النبي يوسف بوصفه الرجل الجميل العفيف، وتكون النساء هنَّ المفتونات به والمندهشات من جماله الفائق، فقد أتين إليه بفكرة مسبقة مفادها أنَّه الفتى الذي تراوده امرأة العزيز عن نفسه، ولكنَّهن خرجن من عنده بفكرة مختلفة، وهي أنَّه ملَك كريم منزَّه عن كل شائبة وعائبة تمثَّل في هيئة إنسان، وهذا تغيُّر جذري في موقف النسوة.

وللتشبيه دور فاعل في تقديم قصَّة يوسف بمثابة النموذج العملي على الصبر والثبات في وجه المحن والمصائب، ويؤكِّد مسألة عقديَّة مهمَّة، وهي أنَّ أولياء الله الصالحين متوكِّلون عليه ومنقادون لأوامره ونواهيه، فلا تغلبهم الفتن مهما عصفت، ولا تغويهم المغريات مهما كثرت،

---

[1] ورد في حديث الإسراء أنَّ يوسف -عليه السلام- قد أعطي شطر الحسن. ينظر: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م، كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- إلى السماوات وفرض الصلوات، رقم الحديث: ١٦٢، ١٤٦/١.

[2] ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١٠، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، ٥٨٩/٦.

والابتلاء في حقيقته ليس عقابًا بقدر ما هو وسيلة لامتحان العباد وتمحيصهم، ورفع درجاتهم عند الله، وتمكينهم في الأرض.

وفي خضم الحديث عن قصَّة موسى -عليه السلام- أتى التشبيه في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشعراء:٦٣]، ويكشف عن المعجزة العظيمة التي أظهرها الله على يد نبيِّه[1]، إذ أوحى إليه أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق فصار كل فرق كالجبل الشامخ؛ ليكون طريقًا آمنًا لنجاة المؤمنين، ووسيلة لهلاك الطاغية فرعون.

وحِجَاجيَّة التشبيه تنهض على أنَّه شبَّه فرق البحر عندما ضربه موسى بعصاه بالطود[2] العظيم، وأراد الله بعد إقامة الحجج والبراهين على فرعون وملئه، أن «تكون الآية متصلة بموسى ومتعلِّقة بفعل فعله، وإلا فضرب العصا ليس بفالق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته، إلا بما اقترن به من قدرة الله»[3] وإبداعه، الذي جعل من الأمر المستحيل ممكنًا ويسيرًا، فلا يعجزه شيء في الكون، بيده مقاليد السماوات والأرض، يصرِّف الأمور كيف يشاء، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، فكل إله دونه عاجز، لا يملك من القدرة شيئًا، ولا يستطيع أن يحرِّك ساكنًا أو يسكِّن متحركًا إلا بإذن الله ومشيئته، وما الطاغية فرعون مدِّعي الألوهيَّة سوى مثال جلي على العجز البشري في مواجهة القدرة الإلهيَّة المطلقة. وهذه دلائل صريحة على صدق تأييد الله لأنبيائه المرسلين في تبليغ رسالاته إلى الناس، مهما عظم طغيان الطغاة وتجبُّر المتجبِّرين، فإنَّ الله يمهلهم بحكمة ورحمة ولا يهملهم؛ حتى يصبح الحق مستقرًّا في أذهانهم، فلا عذر لهم يومئذ أمام أعدل العادلين.

وفاعليَّة التشبيه تنتزع من الصورة الذهنيَّة التي رسمها القرآن الكريم للأمم السابقة، حيث يمثِّل موسى -عليه السلام- الحق والهدى، في حين أنَّ فرعون يمثِّل الباطل والضلال، وما بين هذا وذاك صراع أزلي، يعلو فيه الحق على الباطل ولو بعد أمد، فمَن كان مع الله فلا غالب له، وظفر بالفوز والفلاح والتمكين، وعاقبته جنَّات النعيم، وأمَّا مَن تولَّى عن أمر الله فقد خسر

---

[1] ينظر: قصص الأنبياء، ص٣٥٢-٣٦٠.

[2] الطود: الجبل العظيم. لسان العرب، مادَّة: (طود)، ١٥٦/٩.

[3] المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالحق بن عطيَّة الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ٢٣٣/٤.

دنياه وآخرته، ولن يجد له ناصرًا أو شفيعًا، ومصيره نار جهنم، ويبقى النصر الربَّاني هو الفيصل الذي عليه مدار حسم الصراع.

ويتضمَّن المعنى التشبيهي في الآية الكريمة طاقات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تسهم في نقل خصائص الجبال إلى خصائص البحر، وهي الهيبة والضخامة والارتفاع، وتجسيدها في مشهد واقعي حسِّي، وهذا ما يزيد من التأثير في نفوس المخاطَبين وإقناعهم بأنَّ الله، الذي قدر على نجاة موسى ومَن معه وإهلاك فرعون وقومه، قادر على أن يهلك كل أمَّة تحارب رسولها، وتعصيه، وتؤلِّب عليه المخالفين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾ [يس:٣٩] جاء التشبيه مبيِّنًا هيئة القمر في آخر منازله، وقد بدأها هلالًا ضعيفًا، ثم اكتمل بدرًا ساطعًا، ثم عاد في انحساره محاقًا، وفي كل منزلة من هذه المنازل يتخذ شكلًا مرئيًّا[1]، يؤكِّد عظمة الخالق في إحكام صنعه وكمال تدبيره لهذا النظام الكوني البديع، الذي يمثِّل آية من آياته الكبرى، ودليلًا قاطعًا على وحدانيَّته وملكوته.

والحجَّة تقوم على أنَّه شبَّه القمر في نهاية رحلته بالعرجون[2] القديم، وبينهما حالة من المماثلة في الشكل والمضمون، فالقمر مسكنه في السماء يرسل النور والهداية، في حين أنَّ العرجون موطنه في الأرض يحمل الثمر والنفع، وكلاهما في تلك الحالة ملفت للنظر، وموضع للاهتمام، ومصدر للعطاء[3]، وبعد هذه الرحلة من النضج والتوهُّج، يعود القمر «دقيقًا نحيلًا محدودبًا لا تكاد العين تنتبه إليه، وكأنَّما هو في السماء كوكب تائه، لا أهميَّة له، ولا عناية بأمره»[4]، وكذلك العرجون يصبح يابسًا متقوِّسًا مجرَّدًا من قيمته، فلا يلتفت إليه أحد، والجامع بينهما يتمثَّل في الدقَّة والانحناء والاصفرار[5]، فضلًا عن اشتراكهما في مسار دوري متجدِّد، يبدأ

---

[1] ينظر: الكون والقرآن: كتاب يبحث في علم الفلك، محمد علي حسن الحلي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ٢٠١٠م، ص٦٨-٧٢.

[2] العرجون: العود الذي تخرجه النخلة، فيكون الثمر في منتهاه، وهو الذي يبقى متصلًا بالنخلة بعد قطع الكَبَاسَة منه، وهي مجتمع أعواد التمر. تفسير التحرير والتنوير، ٢٢/٢٣.

[3] ينظر: التصوير البياني: دراسة تحليليَّة لمسائل البيان، ص٨١.

[4] من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، ٢٠٠٥م، ص١٤٩.

[5] ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جارالله الزمخشري، اعتنى به وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، ٨٩٥/٢٣.

من طور الشباب والقوَّة، وينتهي إلى طور الهرم والضعف، وهذا التحوُّل المستمر يدل على قدرة الله وعظمته في تقدير الكون وتدبيره، ويدحض حجج منكري البعث الذين زعموا استحالة إعادة الخلق بعد الفناء والتلاشي، دون أن يستندوا إلى دليل عقلي أو نقلي يثبت ما ذهبوا إليه، ممَّا يؤكِّد أنَّ الله، الذي قدر على خلق القمر والعرجون وأحكم نظامهما، قادر على أن يحيي الموتى من جديد.

ويكتسب التشبيه فاعليَّته من الاعتماد على الحياة الواقعيَّة، إذ وظَّف (العرجون القديم) في سياق الإخبار عن حالة القمر في آخر منازله، وأراد أن يقرِّب المشهد الكوني من أذهان المخاطَبين، ويفتح لهم آفاقًا واسعة من التفكُّر والتأمُّل في عظمة الله وصنائعه التي لا تعدُّ ولا تحصى؛ لكي يزداد الإنسان يقينًا بقدرة الخالق، وإدراكًا لإحكام نظامه، واستشعارًا لجلاله في كل مظاهر الكون.

وتتأسَّس الصورة التشبيهيَّة في الآية الكريمة عن طريق تقديم النموذج العملي (القمر/ العرجون القديم) بمثابة الدليل القاطع، الذي يثبت أنَّ خالق هذا الكون الفسيح هو المستحق للألوهيَّة والعبوديَّة وحده دون سواه، ممَّا يدفع إلى تقويم المسار العقدي الخاطئ بما يتوافق مع التعاليم الربَّانيَّة، ويقود العقول البشريَّة إلى الإقرار بوحدانيَّة الله تعالى، ويزيد من الإقبال عليه بالطاعة والعبادة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾ [الصافات:٦٤-٦٥] ظهر التشبيه واصفًا شجرة الزقوم، التي جعلها الله فتنة للظالمين، إذ تنبت في قعر الجحيم، فيأكل منها أهل النَّار حتى تملأ بطونهم، فتغلي في أجوافهم كغلي الحميم، فلا تغني عنهم من جوع، ولا تخفِّف عنهم من سعير جهنم، بل تزيدهم عذابًا فوق عذابهم؛ جزاء بما كانوا يعتقدون ويفعلون.

ومحاجَّة التشبيه ترتكز على أنَّه شبَّه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين؛ لأنَّه «اعتمد في بيان حالتها على ما تخيَّلته النفوس للشيطان من رأس قبيحة جدًّا وبالغة في النفرة والكراهيَّة، والشجرة شجرة غريبة لم توجد على أساس القانون الطبيعي لوجود الشجر، من تربة فيها حياة وماء، وإنَّما هي شجرة تخرج في أصل الجحيم، فناسبتها هذه الرؤوس الغريبة رؤوس الشياطين، والجمع في كلمة رؤوس يمنح الصورة قدرًا من الغزارة، فليس عليها رأس شيطان، وإنَّما عليها رؤوس جميع الشياطين المنبثّين في الثقلَيْن جادِّين في إفساد الوجود، يغرسون الشر والأذى،

ويقتلعون الخير النافع... طلع شجرة الضر النامية في قعر جهنم تثمر طعامًا لهؤلاء الذين كانوا يكوِّنون جبهة الشر في الأرض أو حزب الشيطان، هذا التشبيه فيه قدر من التهكُّم بأولياء الشياطين الذين يطعمون في جهنم من شجرة طلعها كرأس شيخهم»[1]، فجاءت نهايتهم متناسبة مع فساد عقائدهم ورذائل أعمالهم، فالجزاء من جنس العمل.

ومفعول التشبيه الحِجَاجي يعتمد على المخزون الإدراكي، الذي ترسَّخ عن طريق العُرف والعادة وما يشيع بين البشر، وقد استقرَّ وثبت أنَّ «الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس؛ لاعتقادهم أنَّه شر محض لا يخلطه خير، فيقولون في القبيح الصورة: كأنَّه وجه شيطان، كأنَّه رأس شيطان. وإذا صوَّره المصوِّرون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله»[2]، ممَّا يثير في نفوس المتلقِّين الفزع والخوف، ويدفعهم إلى أخذ العظة والعبرة من مصير أولئك الكفرة الذين صدَّوا عن ذكر الله، وفعلوا المعاصي والمنكرات، وسعوا في الأرض فسادًا، ولم يستجيبوا لداعي الحق والهدى.

إنَّ معرفة حقيقة ما ينتظر الكفَّار في يوم القيامة كفيلة بتغيير المواقف والأفكار من حالة الكفر والإنكار إلى حالة الإيمان والقبول، وإعادة تشكيل التصوُّرات العقديَّة في ضوء التوجيهات الإلهيَّة، التي تؤسِّس لمنهج قويم ينظِّم الحياة الإنسانيَّة بأكملها، ويحقِّق التوازن بين الدنيا والآخرة، بحيث يكون الإنسان مدركًا لمسؤولياته، متحكِّمًا في أفعاله، ملتزمًا بالقيم الأخلاقيَّة، مستهديًا بالقرآن الكريم وسنَّة الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

وفي صدد تحذير الكافرين المكذِّبين وتهديدهم ورد التشبيه في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت:١٣]، ويكشف عن المصير الحتمي المؤسف الذي ينتظرهم إذا لم يرعووا عن التكذيب والإنكار، حيث يجري عليهم ما جرى على الأمم السابقة من الهلاك والإبادة، وهذه سنَّة الله الثابتة في عقاب العصاة المعرضين، ولا تتغيَّر مهما تغيَّر الزمان والمكان.

والحجيَّة تنهض على أنَّه شبَّه الصاعقة التي أنذر الله بها المشركين بصاعقة عاد وثمود، وأراد من بعد أن تمَّت الحجَّة على أكمل وجه، أن يخوِّفهم «بتوقُّع عقاب مثل عقاب الذين

---

[1] التصوير البياني: دراسة تحليليَّة لمسائل البيان، ص١٤٩-١٥٠.

[2] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٩٠٧/٢٣.

شابهوهم في الإعراض خشية أن يحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك، بناء على أنَّ المعروف أن تجري أفعال الله على سنن واحد، وليس هو وعيدًا؛ لأنَّ قريشًا لم تصبهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، وإن كانوا قد ساوَوْهما في التكذيب والإعراض عن الرسل، وفي التعلُّلات التي تعلَّلوا بها... وأمهل الله قريشًا حتى آمن كثير منهم، واستأصل كفَّارهم بعذاب خاص»[1] يتناسب مع حالتهم الميؤوس منها، والعصيَّة على الهداية، وما ذكر الصاعقة إلا بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، تدعم الخطاب القرآني في إبراز حكمة الله البالغة، ورحمته التي وسعت كل شيء، حتى الذين أعرضوا عن الإسلام، وخالفوا الأوامر والنواهي، وتوغَّلوا في الكفر والطغيان، فإنَّ الله قد منحهم فرصًا كثيرة للتوبة والإيمان قبل أن ينزل العذاب الشديد بهم، ولكنَّها لم تزدهم إلا إصرارًا على ما هم عليه من العناد والضلال، وهذا الإمهال لم يكن تقصيرًا أو ضعفًا، بل هو من تمام عدل الله تعالى وعظم تدبيره.

ويستقي التشبيه مفعوله الحِجَاجي من الاعتماد على السياق التاريخي، الذي تشكَّلت فيه صورة الأمم السابقة، ولا سيما عاد وثمود، وقد خصَّهم الله «بالذكر؛ لوقوف قريش على بلادها في اليمن وفي الحجر في طريق الشام»[2]، ومعرفة أحوالهم ومآلهم، وهذا يدل على أنَّ استحضارهم في مقام التحذير والتهديد أبلغ أثرًا في التذكير، وأقوى توجيهًا في سوق العِبَر، وأشد تنبيهًا إلى عواقب التكذيب، إذ ينقل أذهان المخاطَبين من مجرَّد الوعظ النظري إلى تجربة حسيَّة حيَّة، فيكون الإنذار في منزلة الحقيقة المشاهَدة، التي لا يمكن لأحد أن ينكرها أو يتجاهلها، ممَّا يسهم في تعزيز حضور الصاعقة بوصفها نتيجة حتميَّة للكفر والعصيان، وشاهد عيان على أنَّ الله يمهل ولا يهمل.

وينطوي عقد المشابهة بين الصاعقتَيْن على حمولة حِجَاجيَّة، تفضي إلى الوقوف على أهوال تلك الصاعقة التي أهلكت قوم عاد وثمود، وتدفع إلى تحقيق التأثير والإقناع بأنَّ الشرك والزيغ سبيل إلى وقوع العذاب والهلاك؛ لأنَّ الإعراض عن الحق بعد بيانه إعراض آخر أشد وأعظم، فيغلق على صاحبه أبواب الهداية، ويجعله أقرب إلى استحقاق العقوبة وسوء المصير، في حين أنَّ التوحيد والإيمان طريق إلى كبح العناد والتكبُّر، والعودة إلى جادَّة الصواب، والانقياد إلى الله طاعة وعبادة، والنجاة من العذاب والهلاك.

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٢٥٢/٢٤.

[2] المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٨/٥.

وفي أثناء الحديث عن الأخلاق السامية التي يجب على المؤمنين أن يتحلَّوا بها جاء التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤]، ويبيّن الطريقة المثلى في بناء العلاقات الإنسانيَّة، بحيث يكون الإحسان مرتكزًا رئيسًا فيها، ولا سيما في مقابلة الإساءة؛ لأنَّ الهدف المقصود هو الانتقال من دائرة الكراهيَّة والحقد إلى دائرة الألفة والمحبَّة.

وترتكز المحاجَّة على أنَّه شبَّه الذي بينك وبينه عداوة بعد أن تحسن إليه بالولي الحميم، وهذا يؤكِّد أنَّ «الإحسان ناجع في اقتلاع عداوة المحسَن إليه للمحسِن على تفاوت مراتب العداوة قوَّة وضعفًا، وتمكُّنًا وبُعدًا، ويعلم أنَّه ينبغي أن يكون الإحسان للعدو قويًّا بقدر تمكُّن عداوته؛ ليكون أنجع في اقتلاعها»[1]، وتحقيق الأهداف الأخويَّة الفاضلة، التي تزيد من المودَّة والتآخي والترابط، وتجلب النفع والبركة، وتمنع أسباب الشر والضرر، ولا يبلغ تلك المرتبة الرفيعة إلا مَن يملك الصبر والحظ العظيم كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت:٣٥]، فالصابر الذي يكظم غيظه، ويعفو عن الناس، ويحسن إليهم، يؤتيه الله نصيبًا وافرًا من الخير والثواب؛ لأنَّه لا يتوقَّف عند كف الأذى فحسب، وإنَّما يتجاوز ذلك إلى ما هو أرقى وأعمق، ويتمثَّل في رد السيئة بالحسنة، وكأنَّ العداوة بينهما لم تكن أصلًا، وشتَّان بين هذا وذاك.

وفاعليَّة التشبيه تعتمد على الفضاءَيْن الأخلاقي والاجتماعي، إذ وظَّف العلاقة الضديَّة بين المحسِن والمسيء، حتى يبرز فعاليَّة الإحسان في قلب الموازين؛ لأنَّ السيئة سبب للعداوة والبغضاء، ولو قوبلت بسيئة مثلها لزادت العداوة والبغضاء أكثر، ولكن الله أراد تقديم طريقة عمليَّة تساعد على نزع العداوة وتلاشيها، وهي مقابلة السيئة بالحسنة؛ لأنَّ النفس البشريَّة تميل إلى الإحسان ميلًا شديدًا، ممَّا يدفع إلى تغيير موقفها من العداء والبغض إلى الصداقة والمودَّة، فالحجَّة تتمحور حول (مقابلة الإساءة بالإحسان)، والنتيجة تتجلَّى في (اقتلاع العداوة من جذورها، وزرع المحبَّة).

وللتشبيه دور بارز في الكشف عن المبادئ الأخلاقيَّة الراقية، التي ينبغي أن تتسم بها العلاقات الإنسانيَّة، وهذا ما يؤدِّي إلى تأسيس منهج إسلامي رصين يقوم على قاعدة راسخة،

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٢٩٣/٢٤.

وهي (ادفع بالتي هي أحسن)، حيث تسهم في إصلاح النفوس وتهذيبها، وتوجيهها نحو التسامح والتآلف، والبُعد عن الخصومة والتنافر، ويترتَّب عليه إزالة الفكرة الخاطئة القائمة على (مقابلة السيئة بالسيئة)، وتبديلها بالفكرة الصحيحة القائمة على (مقابلة السيئة بالحسنة)، بما يضمن سلامة المجتمع من الخلافات والصراعات.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى:٣٢] برز التشبيه مبيّنًا أحد المظاهر الكونيَّة البديعة، التي تتمثَّل في حركة السفن على سطح البحر بثبات وانسيابيَّة، ممَّا يدل بجلاء على قدرة الله الباهرة، وعظمته القاهرة، ونعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى على عباده، ومن أبرز تلك النعم: تسخير البحر والرياح لما يخدم المصالح البشريَّة؛ لتكون بذلك آية وتذكرة للعالمين.

وحِجَاجيَّة التشبيه تنهض على أنَّه شبَّه الجواري في البحر بالأعلام[1]؛ لأنَّ «في هذه المظاهر من خلق السفن والبحار وتسخير البحار وسير السفن عليها وركودها عند سكون الريح لحجج واضحة قويَّة على وجود الله وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته، ولكن لا يراها ولا ينتفع بها»[2] إلا كل عبد صبَّار على طاعة الله وبلائه، شكور لآلائه ونعمه عليه، كما أتى في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى:٣٣]، وتكمن البؤرة المركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة في تجاوز المعنى السطحي، الذي يبرز صورة السفن الجارية على وجه الماء، إلى المعنى العميق الذي يجعل من هذا المشهد الكوني دليلًا حسيًّا قاطعًا على التدبير الإلهي المحكم، إذ يؤكِّد أنَّ حركة هذه الجواري ليست حركة عمياء أو وليدة المصادفة، بل هي حركة منتظمة ومسيَّرة بأمر الله. ويستدعي الحديث عن البحر والجواري قضيَّة جوهريَّة تدور حول (إثبات وجود الخالق المدبِّر)، ممَّا يستوجب الرد على جاحديها الكفرة، وتفنيد مزاعمهم الباطلة بالدلائل الظاهرة والحجج المسكتة، التي تثبت أنَّ إنكارهم لوجود الخالق المدبِّر أمر منافٍ لما تراه العين ماثلًا أمامها، ويدركه العقل من خلال التدبُّر والتفكُّر في الآيات البيِّنات.

---

[1] الجواري: السفن. والأعلام: الجبال. معاني القرآن الكريم، أبو جعفر النحَّاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكَّة المكرَّمة، ط١، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م، ٣١٨/٦.

[2] أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، أبو بكر الجزائري، دار راسم للدعاية والإعلان، جدَّة، ط٣، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، ٦١٤/٤.

ويكتسب التشبيه فاعليَّته من الاعتماد على الحياة الواقعيَّة، إذ جمع بين نقيضَيْن: حركة الماء (الجواري)، وثبات اليابسة (الأعلام)، ويدل اختيار الجواري دون غيرها على الإيماء «إلى محل العبرة؛ لأنَّ العبرة في تسخير البحر لجريها، وتفكير الإنسان في صنعها»[1]، وكذلك اختيار الأعلام، فإنَّه يوحي بجمال السفن الجارية، وهي تشق الأمواج، ويزدان بها سطح البحر، فضلًا عن الدلالة على ضخامتها وعظمها، فكأنَّما أراد هنا الإشارة إلى جلالها وجمالها معًا[2]، وكلا الاختيارَيْن يثير في النفوس الدهشة والمهابة، ويقودها إلى التسليم بعظمة الله وقدرته المطلقة.

ويتضمَّن المعنى التشبيهي في الآية الكريمة طاقة حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تكشف عن زاويتَيْن يشترك بهما طرفا التشبيه: الأولى: حسيَّة، وتظهر في الشكل والعظم والضخامة والارتفاع. والثانية: معنويَّة، وتتمثَّل في أنَّهما علامات هداية يستدل بها على تدبير الله وبديع صنعه[3]. وعند تأمُّل هاتَيْن الزاويتَيْن معًا، فإنَّه يؤدِّي إلى التأثير في المتلقِّين وإقناعهم بأنَّ هذا المشهد الكوني ليس مجرَّد صدفة عابرة، بل هو آية بيِّنة محكمة، تؤكِّد أنَّه لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ملكوت السماوات والأرض.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر:٥٠] جاء التشبيه مفصحًا عن القدرة الإلهيَّة في سرعة الخلق والإيجاد بحكمة بالغة وتدبير متقن، فلا شيء يحدث محض صدفة دون تقدير، وإنَّما خلقه الله بقدر معلوم، وإذا أراد أمرًا قال له: كن فيكون مرَّة واحدة في أسرع من لمح البصر، ولا يحتاج إلى تكرار وتأكيد؛ لأنَّه خالق كل شيء من العدم، وله الخلق كله، والأمر كله، والملك كله.

والحجَّة تقوم على أنَّه شبَّه سرعة حصول ما أمر الله به بلمح البصر، وهذا فيه تقرير لعقيدة القضاء والقدر، ودليل قاطع على أنَّ قدرة الله تفوق كل قدرات الخلائق، ورد صريح على المنكرين الذين يدَّعون أنَّ الخالق ليس وحده القادر على التصرُّف في الكون وشؤونه، حيث يتبنَّى هؤلاء الكفرة أفكار القدريَّة الضالة، التي تزعم أنَّ العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنَّه مستقل بإرادته عن مشيئة الله وقدرته، وليس لهما فيه أي أثر، فكل حركة وسكنة

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٢٥/١٠٥.

[2] ينظر: من بلاغة القرآن، ص١٥٥.

[3] ينظر: أثر التشبيه على المعنى في القرآن الكريم، عمر عطيَّة الله الأنصاري، مجلَّة مركز البحوث والدراسات الإسلاميَّة، م٨، ع٢٧، ٢٠١٢م، ص٧٤.

في العبد عندهم هي منه وإليه[1]. وهذه الدعوى الزائفة باطلة ومنكرة من ناحيتَيْن: الأولى: تتعلَّق بالشرع، وقد بيَّن الله أنَّه خالق كل شيء، وكل شيء كائن بمشيئته، وأنَّ أفعال العباد تقع بمشيئته، فقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة:١٣]. والثانية: تتعلَّق بالعقل، وتظهر في أنَّ الكون كله مملوك لله -جلَّ جلاله- والإنسان من هذا الكون فهو مملوك لله، ولا يمكن للمملوك أن يتصرَّف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته[2]. وكلتا الناحيتَيْن تدعم الأطروحة الحِجَاجيَّة المتمثِّلة في أنَّه لا يمكن لأحد أن يكون قادرًا على تدبير الأمور وتصريفها إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

ويستقي التشبيه مفعوله الحِجَاجي من الوسائل الإدراكيَّة لدى الإنسان، وتتمثَّل في حاسَّة البصر، إذ أسهمت في تجلية عظمة الخالق وإتقانه في خلق كل شيء، وتقديم برهان حسي مقنع يدحض حجج المشركين الواهية، التي قامت على معتقد باطل وأساس فاسد، وهو الإيمان بوجود شريك لله، وهذا أمر غير مقبول البتَّة، ويتنافى مع الأدلَّة القطعيَّة الواردة في القرآن الكريم والسنة النبويَّة، التي تؤكِّد ضرورة الإيمان بوحدانية الله وقضائه وقدره.

وتتأسَّس الصورة التشبيهيَّة في الآية الكريمة عن طريق استحضار سرعة تحقُّق ما أمر الخالق به ولمح البصر في آن واحد؛ لتقريب المشهد من أذهان المخاطَبين، والتأثير فيهم وإقناعهم بأهميَّة استشعار قوَّة القدرة الإلهيَّة ونفوذها الواسع، وترسيخ الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، والتحذير من الخوض في غمار الكفر والشرك، والوعيد لكل الخائضين بالنكال والإهلاك في طرفة عين، و«هذا التشبيه في تقريب الزمان أبلغ ما جاء في الكلام العربي»[3]، وهو معجز لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم:٣٥] أتى التشبيه مجلِّيًا البون الشاسع بين المسلمين والمجرمين في الجزاء يوم القيامة، حيث يتبيَّن ما يؤول إليه المسلمون من

---

[1] ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٢٠٢/١٤.

[2] ينظر: شرح الأصول الثلاثة لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، محمد بن صالح العثيمين، إعداد: فهد ناصر سليمان، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، ص١١٦-١١٧.

[3] تفسير التحرير والتنوير، ٢٢١/٢٧.

نعيم مقيم، في مقابل ما يصير إليه المجرمون من عذاب وجحيم، وهذا يعكس حكمة الله وعدله بين الناس، فلا يظلم أحدًا شيئًا، وإن كان مثقال حبة من خردل، وشتَّان بين مَن آمن بالله وأطاعه، وبين مَن أشرك به وعصاه.

ومحاجَّة التشبيه ترتكز على أنَّه شبَّه المسلمين بالمجرمين، وأراد أن ينكر التسوية بينهم، ويدحض ما يزعمه «الكفرة عند سماعهم بحديث الآخرة، وما وعد الله المسلمين فيها، فإنَّهم كانوا يقولون: إن صح أنَّا نبعث، كما يزعم محمد ومَن معه، لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا»[1]، وهذا يكشف عن الركيزة الرئيسة التي تنهض عليها حججهم الزائفة، وهي القياس الفاسد على أحوال الدنيا ونتائجها، دون النظر إلى المقياس الأخروي الذي لا يقوم على المعايير الدنيويَّة الفانية من قوَّة ومال وجاه، بل يقوم على الإيمان بالله والعمل الصالح. وقد جاءت هذه الآية الكريمة تقريرًا لما ورد في الآية السابقة لها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ [القلم:٣٤]، وتأكيدًا لحتميَّة اختلاف المصير بين المتقين والمشركين، وتفنيدًا لتلك الدعوى القائمة على المساواة بينهم في جزاء الآخرة؛ لأنَّ الله أعدل العادلين، فلا يمكن أن يجازي المحسنين كما يجازي المسيئين في يوم الحساب.

ومفعول التشبيه الحِجَاجي يعتمد على المدركات العقليَّة، إذ إنَّ عقد المشابهة بين طرفَيْن متناقضَيْن: المسلمين والمجرمين، يسهم في بيان ماهيَّة كل واحد منهم، فالمسلمون هم الذين امتثلوا لأوامر الله، واتبعوا هداه، واجتنبوا نواهيه، وصدَّقوا رسله، فاستحقوا الوعد بجنَّة عرضها السماوات والأرض، في حين أنَّ المجرمين هم الذين أنكروا الحق، وأعرضوا عن الهدى، وتوغَّلوا في ميادين الشرك والضلالة، فاستوجبوا الوعيد بالعذاب الشديد، وهذا الفرق الجوهري هو الذي عليه مدار العمليَّة الحِجَاجيَّة.

إنَّ استحضار صورة المسلمين المشرقة وصورة المجرمين المظلمة معًا في المخيَّلة، طريق إلى تحقيق التأثير في المتلقِّين وإقناعهم بتغيير الفكرة الخاطئة المبنية على أنَّ الجزاء محصور على المعيار الدنيوي، وتبديلها بالفكرة الصحيحة المرتكزة على أنَّ الدنيا دار عمل وعبور، والآخرة دار جزاء وقرار، فالمساواة بين الناس قاطبة أمر محال؛ لأنَّه يتنافى جملة وتفصيلًا مع حكمة الله وعدله

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، وضع حواشيه: عبداللطيف عبدالرحمن، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، ٢٨٩/٦.

المطلق، الذي يؤكِّد أنَّ التفاضل الحقيقي يوم القيامة يكون في الأعمال والنيَّات، ويترتَّب عليها تفاوت الدرجات والمنازل.

وفي بيان عظمة الخالق وقدرته ظهر التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴿١٩﴾﴾ [نوح:١٩]، ويبيّن حجم النعم الكثيرة التي أسبغها الله على الناس قاطبة، إذ جعل لهم الأرض مبسوطة وممهَّدة؛ لكي يعيشوا فيها، ويسكنوا عليها، ويسيروا في نواحيها، ويعمروا مناكبها، وينتفعوا بما أودع فيها من موارد وخيرات، بحيث تكون حياتهم مستقرَّة وميسَّرة غاية الاستقرار والتيسير.

والحجيَّة تنهض على أنَّه شبَّه الأرض بالبساط[1]، وهذا يكشف عن الأحوال التي استوت عليها، حتى أصبحت صالحة لأن يعيش عليها الإنسان، ويمشي في أرجائها بيسر وسهولة، وما الأرض إلا آية عظيمة من «آيات الله الكونيَّة، وكلها دالَّة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته، وهي موجبة للعبادة له عقلًا، ونفيها عمَّا سواه»[2] بالكليَّة؛ لأنَّه لا يليق بأحد أن يوحَّد ويعبد ولا يشرك به إلا الله الواحد القهَّار المتعالي، ممَّا يستدعي دحض مزاعم الكافرين الذين أنكروا دلائل الكون الجليَّة، وتولَّوا عن التفكُّر في عظيم خلق الله، فعميت بصائرهم عن إدراك الحق الكامن في تمهيد الأرض وبسطها للخلائق، وظنُّوا بجهلهم أنَّ استواءها يتناقض مع عظمتها وكرويَّتها، وهو في حقيقة الأمر أكمل وجوه الحكمة والإتقان، وأظهر براهين القدرة والرحمة، ولذا، فإنَّ استقرار الأرض وتمهيدها ليس مجرَّد ظاهرة طبيعيَّة، بل هو تدبير إلهي محكم يستوجب الحمد والامتنان من جهة، والإقرار بأنَّه لا إله إلا الله وحده لا شريك له من جهة أخرى.

وفاعليَّة التشبيه تعتمد على الحياة الواقعيَّة، إذ وظَّف (البساط) في سياق تجلية قدرة الخالق في تذليل الأرض لخدمة الإنسان، وتجسيدها في مشهد حسي يسهم في تقريب الصورة من أذهان المخاطَبين؛ للتأثير فيهم وإقناعهم بأنَّ القوَّة والفضل لله وحده دون سواه، فلا يقدر أحد في الكون أن يفعل مثل فعله، وقد أحاط بكل شيء علمًا وحكمة، وهذا ما يقود إلى فتح آفاق واسعة من التأمُّل والتفكُّر في تلك النعم، وتغيير المواقف من الكفر والعصيان إلى الإيمان والطاعة، وتعميق الشعور بعظمة الله وشكر نعمه.

---

[1] البساط: ما يفرش للنوم عليه والجلوس من ثوب أو زربيَّة. تفسير التحرير والتنوير، ٢٠٥/٢٩.

[2] أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، ٤٤٢/٥.

وينطوي عقد المشابهة بين الأرض والبساط على حمولة حِجَاجيَّة، تؤكِّد أنَّهما يشتركان في جانبَيْن: أولهما: البسط عند الاستقرار. وثانيهما: الطي عند الزوال. وكلاهما يفضي إلى الوقوف على بديع صنع الله بوصفه دليلًا مشاهَدًا على كمال تدبيره وتسخيره وعنايته، فيكون الطي برهانًا على البعث كما كان البسط برهانًا على الخلق، ممَّا يؤدِّي إلى نتيجة حتميَّة، تتجلَّى في إفراد الله بالعبادة، وتنزيهه عن الشريك، واليقين بالمعاد.

وفي خضم الحديث عن الجن برز التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدَا ﴿١١﴾﴾ [الجن:١١]، ويكشف عن الأحوال التي كانوا عليها من تشتُّت المذاهب وتفرُّق الأهواء، إذ ليسوا على نمط واحد مستقيم، بل إنَّ منهم مَن استقام على طريق الهدى والرشاد، ومنهم مَن أعرض عنه عنادًا واستكبارًا، فسلك مسالك الضلال والضياع، وتفرَّقت به في كل مفترق.

وترتكز المحاجَّة على أنَّه شبَّه تخالف أحوال الجن ومذاهبهم بالطرائق القدد[1]، التي تنتهي كل واحدة منها إلى غاية لا تنتهي إليها الأخرى، وهذا يدل على أنَّ تفرُّقهم مبني على غير هداية ورشاد قبل استماع القرآن الكريم، ممَّا جعلهم «يدعون إخوتهم إلى وحدة الاعتقاد باقتفاء هدى الإسلام»[2]، وذم التناحر والتقطُّع والشقاق؛ لأنَّ في اتحادهم وتكاتفهم على المنهج القويم تستقيم أحوالهم وعقائدهم، وتكمن البؤرة المركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة في إبراز التباين الشاسع بين كمال الوحدة في الحق وهوان التشتُّت في الباطل، إذ يمثِّل التوحيد نقطة الارتكاز التي تلمُّ الشتات، وتصهر الاختلافات في بوتقة واحدة، فيتحوَّل أولئك القوم من مجرَّد قدد تائهة لا وجهة لها إلى أمَّة مستبصرة، يجمعها صراط واحد يضمن لها النجاة في الدنيا والآخرة، ولذا أراد الله أن يثبت أهليَّة الجن للهداية وتحمُّل المسؤوليَّة مثلهم مثل الأنس، ويدحض التصوُّرات الخاطئة القائمة على تجانسهم في الشر وحصرهم في الكفر، فالعدل الإلهي يقتضي حريَّة الاختيار لكل مكلَّف، سواء أكان من الجن أم من الأنس؛ ليكون كل مخلوق مسؤولًا عن أقواله وأفعاله، ويحاسب عليها في يوم الحساب.

ويكتسب التشبيه فاعليَّته من الاعتماد على الواقع المعيش، إذ وظَّف (الطرائق القدد) في سياق بيان ما كان عليه الجن من عقائد مختلفة، والغرض منه تقريب المشهد من عقول المتلقِّين؛

---

[1] القدد تعني أنَّهم تفرَّقوا قِددًا وتقطَّعوا. لسان العرب، مادَّة: (قدد)، ٣٤/١٢.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٢٣٣/٢٩.

للتأثير فيهم وإقناعهم بأنَّ كثرة الطرق المتشعِّبة دليل قاطع على حالة الاضطراب والضلال، في حين أنَّ طريق الاستقامة واحد لا اعوجاج فيه؛ لأنَّه منبثق من التشريع الربَّاني المؤسَّس على مبدأ التوحيد الخالص، الذي لا يتعدَّد بتعدُّد السالكين، ولا يتبدَّل بتبدُّل الأهواء.

وللتشبيه دور فاعل في تقرير سنَّة الاختلاف في الخلق، على الرغم من وحدة صراط الحق المبين، حيث يرسِّخ في الوعي أنَّ التنوُّع في المواقف والاتجاهات أمر فطري، لا ينافي وضوح الحق، ولا يقدح في حجيَّته، وإنَّما يظهر تفاوت الاستجابة له ما بين القبول والإنكار، وتتجلَّى بذلك حكمة الله في امتحان الخلائق، وتمحيص أعمالهم، ومحاسبتهم عليها، وهذا فيه تسلية فؤاد الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- وتثبيته على منهج الهدى، والصبر على إعراض المستكبرين.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ۝٣٣﴾ [المرسلات:٣٢-٣٣] ورد التشبيه واصفًا هول نار جهنم التي ينتهي إليها المكذِّبون، من بعد إصرارهم على الجحود والتكذيب، وابتعادهم عن ميادين الهداية والرشاد، فلا ينفعهم يومئذ ما كانوا يقولون من إفك وباطل، وما يقومون به من كيد وسوء، ولا يجدون من العذاب الشديد منقذًا لهم ولا ناصرًا، فالجزاء من جنس العمل.

وحِجَاجيَّة التشبيه تنهض على أنَّه شبَّه الشرر الذي ترمي به جهنم بالقصر[1]، وشبَّهه أيضًا بالجمالة[2] الصفر، وجاء هذا «تأكيدًا للتخويف من النار التي ترامى به، وتعظيمًا لشأنها، وإرهابًا للكافرين من سطوتها»[3]، وردعهم عن تكذيب دعوة الله والفرار عنها، وتفنيد دعواهم الزائفة المبنية على حجج غير منطقيَّة البتَّة، لا تقبلها العقول البشريَّة بأي وسيلة كانت؛ لأنَّ الله جعل الحق واضحًا وضوح الشمس في رابعة النهار، فلا حجَّة تستطيع أن تقرع حجَّته، ولا برهان يستطيع أن يجاري برهانه، ولا يمكن أن يشارك المخلوقُ الخالقَ في ملكوته وسلطانه، ممَّا يثبت بطلان ما يزعمه هؤلاء الضالون، وتقبيح ما يقومون به من اعتداء صريح على الدين

---

[1] القصر: من البناء في عظمة ارتفاعه. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار ابن كثير، دمشق، ط١١، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، ١٨٢/٨.

[2] الجمالات: جمع جِمالة، وهي طائفة من الجمال، وهي أيضًا حبل تشدُّ به السفينة، ويُسمَّى القَلْس. ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ٤٣٧/٢٩-٤٣٨.

[3] الجمان في تشبيهات القرآن، ابن ناقيا البغدادي، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، دار الجمهوريَّة، بغداد، ١٣٨٧هـ- ١٩٦٨م، ص٣٧٤.

الإسلامي الحنيف، ولذا أتى الخطاب القرآني مشحونًا بطاقات تأثيريَّة ودلاليَّة مكثَّفة، تسهم في تقديم نموذج عملي تتلاشى دونه مزاعم الجاحدين، بحيث يتحوَّل من كونه وصفًا مجرَّدًا إلى سوط عذاب معنوي، يستأصل شأفة كبريائهم، ويضعهم أمام مصيرهم الحتمي.

ويستقي التشبيه مفعوله الحِجَاجي من استحضار مظهر حسي مشاهَد من مظاهر البيئة العربيَّة، وهو تطاير الشرر من النار، وتوظيفه في سياق بيان العذاب الذي أعدَّه الله وعيدًا للمكذِّبين يوم القيامة، وممَّا يزيد من هول هذا المشهد الأخروي أن تكون كل شررة كبيرة الحجم، وعالية الارتفاع، وسريعة الحركة، ومتتابعة الانتشار، وتبعث هذه الصورة المرعبة في النفوس الخوف والفزع، وتساعد على تغيير الأفكار الضالة والمواقف المضادَّة من الكفر والعصيان إلى الإيمان والطاعة.

وينطوي عقد المشابهة بين الشرر في الدنيا والشرر في الآخرة على حمولة إقناعيَّة، تفضي إلى الوقوف على نتيجة تكذيب الدعوة الإلهيَّة، وتدفع إلى إعمال كفاية المخاطَبين الثقافيَّة والمنطقيَّة؛ للتأثير فيهم وإقناعهم بأنَّ الله حقيق بالألوهيَّة والعبوديَّة، أقام شريعته على الدليل الأبلج والمحجَّة البيضاء، بما لا يدع مجالًا للشك والتوهُّم والظن، ومَن يزغ عنه جحودًا ونكرانًا بعد وضوح الدلائل المقنعة فقد ظلم نفسه، وكانت عاقبته الخزي والهلاك، فضلًا عن أنَّ نار الآخرة ليست كنار الدنيا، إذ لا يتصوَّرها العقل البشري القاصر، وأنَّ الله -جلَّ جلاله- هو القادر على أمر الدنيا والآخرة.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة:٤-٥] ظهر التشبيه مبيِّنًا شدَّة أهوال يوم القيامة، وما يصحبها من فزع وهلع يقرع قلوب الناس وعقولهم، فيذرهم في حيرة وتشتُّت يتخبَّطون من غير هدى وبصيرة، فتخور قواهم أمام عظمة هذا الموقف المهيب، الذي تنقلب فيه الموازين، وتبدو الحقائق جليَّة إيذانًا بالعرض والجزاء.

والحجَّة تقوم على أنَّه شبَّه الناس في ذلك اليوم بالفراش المبثوث، وشبَّه الجبال بالعهن[1] المنفوش، وأراد أن يكشف عن عظم الخطب الذي يفقد فيه الناس تماسكهم وهيبتهم، كما تفقد الجبال صلابتها وثباتها؛ لكي يقدِّم برهانًا ساطعًا على قدرة الله المطلقة في الخلق والتدبير

[1] العهن: الصوف المصبوغ ألوانًا. لسان العرب، مادَّة: (عهن)، ٣٢٢/١٠.

والإعادة، ويقرِّر مسألة جوهريَّة تدور حول (البعث والحساب بعد الموت)، ممَّا يستوجب الرد على منكريها الكفرة، وتفنيد دعواهم الباطلة بالحجج المفحمة والأدلَّة المسكتة، وإثبات وقوعها في الآخرة بما يقطع دابر الشك والظن، وما تحوُّل الناس والجبال يومئذ إلا بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، تدعم الخطاب القرآني في ترسيخ حتميَّة المعاد، حيث يجتمع الخلق قاطبة من كل حدب وصوب، ولذا «شبَّههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلَّة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار»[1]، وجعل الجبال مصاحبة للمشهد؛ حتى يزيد من تهويل الموقف، واستشعار عظمة الله وهيبته.

ومفعول التشبيه الحِجَاجي يعتمد على البيئة الواقعيَّة، إذ وظَّف (الفراش المبثوث- العهن المنفوش) في سياق بيان أحوال الناس في يوم القيامة، وما يحدث للجبال من تحوُّل جذري؛ لكي يقرِّب المصير الأخروي المحتوم من أذهان المخاطَبين، وينتقل بذلك من مجرَّد الإخبار الغيبي إلى التقرير الحسي، وكأنَّ أحداث اليوم الموعود ماثلة أمام أعينهم، يشعرون بشدَّة وقوعها، ويدركون هول وطأتها، بحيث تكون حقيقة محسوسة لا مجال لإنكارها.

ويتضمَّن المعنى التشبيهي في الآية الكريمة طاقات تأثيريَّة وإقناعيَّة، تسهم في تقديم النموذج العملي (الناس/ الفراش- الجبال/ العهن) بمثابة الدليل القاطع، الذي يؤكِّد أنَّ الحياة الدنيويَّة زائلة بكل ما فيها، مهما بلغت من القوَّة والاستقرار، وأنَّ الحياة الأخرويَّة باقية، مهما حاول الضالون تكذيب وجودها، فلا ينفع يومئذ جاه ولا مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب مؤمن متمسِّك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١٢١٨/٣٠.

المبحث الثاني

حِجَاجيَّة التشبيه المركَّب

التشبيه المركَّب هو ما كان «منتزعًا من أمرَيْن أو عدَّة أمور امتزج أحدهما بالآخر حتى يستخرج من مجموعها صورة جديدة غير التي كانت عليه في حال الإفراد»[1]، وتنطوي على حمولة حِجَاجيَّة وطاقة إقناعيَّة، تؤدِّي إلى تحقيق التأثير والإقناع بما تحمله من أطروحات وقضايا.

ويظهر هذا النوع في السور المكِّيَّة، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام:٧١]، وبرز التشبيه في هذه الآية الكريمة واصفًا حال الذي يرتد على عقبَيْه من دون هدى وبصيرة، بعد أن مَنَّ الله عليه بالهداية إلى الرشاد والحق.

والمحاجَّة تنهض على عقد المشابهة بين حالَيْن: حال الذي يعود إلى الكفر والشرك والضلالة بعد الإيمان والإسلام، وحال الذي استهوته الشياطين، فألقته في أرض فلاة محتارًا تائهًا ضالًّا عن الطريق، وهناك مَن يدعوه إلى السير في الطريق الصحيح، ولكنَّه لا يستجيب له. ويدل هذا «على أنَّ عرضًا من المشركين كان لبعض المؤمنين لأن يعبدوا معهم آلهتهم، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم عرضهم الرخيص منكرًا عليهم ذلك أشد الإنكار»[2]، ورادعًا لمن سولت له نفسه من المؤمنين قبوله، ومؤكِّدًا أنَّ الهدى الحق هو هدى الله وحده، والعودة، بعد وضوح البيِّنة وقيام الحجَّة التي تفصل الحق من الباطل، كفر وفسوق وضلال، وسبب الحرمان والحيرة والبُعد عن الله.

وفاعليَّة التشبيه مبنية «على ما تزعمه العرب وتعتقده أنَّ الجن تستهوي الإنسان، والغيلان تستولي عليه»[3]، وتجعله هائمًا على وجهه من غير هداية. وهذا المشهد راسخ في أذهان المخاطَبين من خلال التراكم الثقافي والمعرفي، وإنكار حدوثه يعادل إنكار المشاهَدات

---

[1] القرآن والصورة البيانيَّة، عبدالقادر حسين، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، ص٦٥.

[2] أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، ٧٨/٢.

[3] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٣٣٣/٧.

والمحسوسات في الواقع. وبذلك يتحقَّق التأثير فيهم وإقناعهم بأنَّ مصير المرتدِّين عن الدين مثل مصير التائهين عن الطريق الصحيح في صحراء مهلكة.

وفي بيان أثر الإيمان والكفر على الإنسان ورد التشبيه في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢]، ويبيّن الحالة التي يكون عليها عند اتخاذه أحد الأمرَيْن، فالإيمان يمنح صاحبه حياة ونورًا يمشي به في الأرض، بينما الكفر يجعل صاحبه ضالًا ميّتًا لا حياة فيه.

وترتكز محاجَّة التشبيه على أنَّه شبَّه مَن أحياه الله بالإيمان بعد أن كان ميّتًا بالضال الذي لا خروج له من ظلمات كفره وطغيانه، وشبَّه تزيين الأعمال السيئة للكافرين بمَن زيّن له أن يمكث في الظلمات متحيّرًا، وفيها أكَّد «تفظيع حال المشركين، ووصَفَ حسن حالة المسلمين حين فارقوا الشرك، فجاء بتمثيلَيْن للحالتَيْن، ونفَى مساواة إحداهما للأخرى تنبيهًا على سوء أحوال أهل الشرك وحسن حال أهل الإسلام»[1]، الذين مَنَّ الله عليهم بالهداية إلى طريق الفلاح والصلاح، وصرفَهم عن الكفر والعصيان.

ومفعول التشبيه الحِجَاجي يأتي من تقرير حقيقة الإيمان وحقيقة الضلال، ورصد علاقات التضاد بينهما؛ لأنَّها تقوم على تعميق أثر التمثيل في نفوس المتلقِّين، ممَّا يقودهم إلى التمييز بين الحق والباطل، والابتعاد عن ميادين الشرك والمشركين، والاقتناع بالمنهج الإسلامي القويم الذي يضيء حياة المسلم بأنوار الوحي الإلهي.

إنَّ استكناه هاتَيْن الحقيقتَيْن المتضادَّتَيْن من منابعهما الصحيحة، وتوظيفهما في سياق تحديد مصير الإنسان الدنيوي والأخروي، يساعد على تجلية قصديَّة الخطاب القرآني المناهض لمسألة المساواة بينهما، والمتشكِّل من البون الشاسع بين النور الذي يملأ الحياة حياة وإشراقًا، ويهتدى به، وبين الظلام الذي يتخبَّط به مَن زاغ قلبه وعقله عن مواطن التوحيد والخير على غير بصيرة ودراية وفطنة.

وتتأسَّس العلاقة بين النور والظلام عن طريق الاعتماد على مشاهَدات الحياة اليوميَّة، فالنور في الواقع يحمل خصائص تميّزه عن الظلام، ويستمدُّ منه الوضوح والقوَّة والوعي، ويرمز

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٤٣/٨.

إلى الحق القاطع وسُبل الهدى، أمَّا الظلام ففيه الضياع والتيه والحيرة، ويرمز إلى الباطل ومكامن الضلال، وكلاهما يعينان العقل البشري على استيعاب جدليَّة الإيمان والكفر.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام:١٢٥] أتى التشبيه مبيِّنًا أحوال الإنسان الضال عن الإسلام، والعاقبة الوخيمة التي ينتهي إليها؛ جزاء بما كان يعتقد ويفعل.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه شبَّه حال الذي ضلَّ عن ذكر الله، وما فيه من ضيق الصدر والحرج، بحال الذي يصَّعَّد في السماء[1]؛ لأنَّ «الصاعد يضيق تنفُّسه في الصعود، وهذا تمثيل هيئة معقولة بهيئة متخيَّلة؛ لأنَّ الصعود في السماء»[2] مثل في الامتناع، والبُعد، وعدم المقدرة عليه، فكذلك حال الضال مع الإيمان يمتنع منه، ويبعد عنه، ولا يقدر عليه؛ بسبب كفره وضلالته وطغيانه، فقد أنزل نفسه منزلة لا تطيقها، وتقودها إلى الخذلان والعذاب والهلاك. ولذا أراد الله أن يقدِّم برهانًا معلومًا لدى الناس، يثبت فيه أنَّ الأمر كله بيده وحده، ولا يحدث شيء في الكون إلا بعلمه ومشيئته وتدبيره.

إنَّ استحضار حالة الصعود إلى السماء وحالة وصول صدر الضال إلى الحرج معًا في المخيَّلة، تؤدِّي إلى الوقوف على نتيجة الكفر والفسوق والعصيان، وتدفع إلى تحقيق التأثير في وجدان العاصي وإقناعه بأنَّ الحياة الطيِّبة الهانئة لا تكون إلا بالانكسار بين يدي الله والإيمان به واتباع رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وتسهم أيضًا في ثبات المؤمن على إسلامه بانشراح صدره وعصمته من الضيق والهم، الذي يقع في صدر المعرض عن دعوة الله إلى الدين الحنيف.

وفي بيان نهاية الذين كذَّبوا بالآيات واستكبروا عنها ورد التشبيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾ [الأعراف:٤٠]، ويكشف عن المنتهى الذي وصلوا إليه بعد تكبُّرهم وإعراضهم عن النور المبين.

---

[1] أثبت العلم حديثًا أنَّ الإنسان عند صعوده في الهواء يضيق صدره، وكلَّما ارتفع اشتد هذا الضيق حتى يصير في مأزق حرج، لا يمكنه التخلُّص منه إلا بالوسائل التي هداه إليها العلم، والتي يستعملها الطيَّارون اليوم. القرآن والعلم، أحمد محمود سليمان، الدار القوميَّة للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص٣٦.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٨/٦٠.

والحجَّة تقوم على أنَّه شبَّه حرمان الذين كذَّبوا بآيات الله واستكبروا عنها من الجنَّة بامتناع ولوج الجمل[1] في سم الخِياط[2]، وفيه «تمثيل لحرمانهم من وسائل الخيرات الإلهيَّة الروحيَّة، فيشمل ذلك عدم استجابة الدعاء، وعدم قبول الأعمال والعبادات، وحرمان أرواحهم بعد الموت مشاهدة مناظر الجنَّة ومقاعد المؤمنين منها»[3]، وتخليدها في نار جهنَّم؛ لأنَّهم لم يقدِّموا في الدنيا شيئًا لحياتهم الأخرويَّة الباقية، وغير مكترثين بنداء الله الذي يقودهم إلى الخير والفلاح والنجاة من العذاب الشديد، فجزاهم الله عن تكذيبهم واستكبارهم أن أعرض عنهم، وصرفَهم عن فعل الطاعات والصالحات.

إنَّ ارتباط قبول أعمال الكافرين ودخولهم الجنة بولوج الجمل في ثقب الإبرة أمر مستحيل الحصول ومستبعد؛ لأنَّ «العرب إذا أرادت تأكيد النفي، علَّقته بما يستحيل وقوعه، فيقولون: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب، وحتى تتفطَّر السماء»[4] وهكذا، وهو أسلوب شائع في كلامهم. وجاء في هذه الآية الكريمة مدعِّمًا موضوعها الرئيس بالأدلَّة والبراهين، ويقوم بتجلية جانبَيْن: الأول: قدرة الله، ووحدانيَّته، وحكمته، وتدبيره، وانفراده بالألوهيَّة والعبوديَّة. والثاني: مصير أولئك المكذِّبين المستكبرين الذين صدَّوا عن سبيل الحق، ولم ينظروا إليه بتاتًا، واحتقروه تكبُّرًا وغرورًا، وتركوه وراء ظهورهم.

ويستمدُّ التشبيه مفعوله الحِجَاجي من الاعتماد على المخزون الذهني، الذي ترسَّخ عن طريق العادة والعُرف والشيوع، إذ «أحال على ما هو معروف عند الناس من حقيقة الجمل وحقيقة الخِياط، ليعلم أنَّ دخول الجمل في خَرْت الإبرة محال متعذِّر ما داما على حالَيْهما المتعارفَيْن»[5]، وهذا يزيد من قوَّة حضورها في الذهن، ويجعله قابلًا للإذعان والتسليم بهذه الأطروحة التي تتمحور حول (حرمان الكفَّار من الجنَّة)؛ نتيجة (كفرهم وعنادهم وتكبُّرهم).

---

[1] الجمل: هناك قولان يفسرانه: الأول: البعير المعروف عند الناس. والثاني: الحبل الغليظ الخاص بالسفن. والفصل في ذلك أنَّ الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة والبعير لا يناسبه، إلا أنَّ قراءة العامَّة أوقع؛ لأنَّ سم الإبرة مثل في ضيق المسلك... والجمل مثل في عظم الجرم. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٣٦٣/٨.

[2] سم الخِياط: ثقب الإبرة. معاني القرآن الكريم، ٣٦/٣.

[3] تفسير التحرير والتنوير، ١٢٦/٨.

[4] الإبداع البياني في القرآن العظيم، محمد علي الصابوني، المكتبة العصريَّة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٦م، ص٩٦.

[5] تفسير التحرير والتنوير، ١٢٨/٨.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦] ظهر التشبيه مجلِّيًا حال الرجل[1] الذي انسلخ عن آيات الله، ولم ينتفع بما أتاه من العلم والحكمة، واتبع هواه والشيطان، فغوى وضلَّ عن الطريق السليم.

وحِجَاجيَّة التشبيه تكمن في أنَّه شبَّه هيئة الرجل المنسلخ من الدين، والمتبع للشياطين والهوى، ومَن سار على نهجه من الكافرين المكذِّبين، بهيئة الكلب اللاهث[2] في كل أحواله، وبينهما صلة قويَّة في المذلَّة والخسَّة والحقارة؛ لأنَّ «المنسلخ يظلُّ غير مطمئن القلب، مزعزع العقيدة، مضطرب الفؤاد، سواء أدعوته إلى الإيمان، أم أهملت أمره، كالكلب يظلُّ لاهثًا، طردته وزجرته، أم تركته وأهملته»[3]، وهذه طبيعة فيه لا يمكن أن يتركها مهما حدث. والإنسان بأي حال من الأحوال لا يُقبل منه، بعد وضوح البرهان وقيام البيِّنة، مخالفة التعاليم الإسلاميَّة والانسلاخ منها؛ لأنَّ الله قد منَّ عليه بنعم كثيرة، أهمها العقل الذي يميِّز به الحق من الباطل، ولذا، فهو مكلَّف ومحاسب على أقواله وأفعاله ومعتقداته.

ويكتسب التشبيه فاعليَّته من تجسيد صورة الرجل المنسلخ من الدين بمشهد محسوس في الحياة الواقعيَّة، ويؤكِّد الحالة المؤسفة التي وصل إليها بعدما كان عزيزًا في رحاب الله. وفي هذا عظة واعتبار وتحذير من الاغترار بالعلم والعمل والتمكين، واتباع الأهواء الدنيئة، والركون إلى الدنيا وملذَّاتها، والوقوع في أوحال الضلالة وتيه الغواية، وترك ما أرشد الله إليه من الهداية والإيمان والتقوى، وهنا اختيار الكلب ولهثه صورة تشمئز منها النفوس، ولذا وظَّفها في التنفير من هذا الفعل القبيح؛ لكي تقتنع النفوس بالبُعد عن الأفعال المشينة.

---

[1] هو عالم من علماء بني إسرائيل، وقيل: من الكنعانيين اسمه بلعم بن باعوراء. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٣٩٦/٩.

[2] لهث الكلب: إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش. لسان العرب، مادَّة: (لهث)، ٢٤١/١٣.

[3] من بلاغة القرآن، ص١٥٨.

إنَّ معرفة نتيجة الانسلاخ من الإسلام كفيلة بإقناع الكفَّار المكذِّبين والتأثير فيهم، وتغيير أفكارهم ومواقفهم من الكفر والتكذيب إلى الطاعة والتصديق، وإعادتهم إلى جادَّة الصواب وسبيل الهدى، وإبعادهم عن ظلمات الفسوق والعصيان.

وفي سياق الإخبار عن مآل أعمال الكافرين برز التشبيه في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ [إبراهيم:١٨]، ويبيّن الجزاء المستحق لأعمالهم التي بنوها على أساس غير صحيح، فصارت هباء منثورًا لا ينتفعون بشيء منها في يوم الحساب.

وترتكز محاجَّة التشبيه على أنَّه شبَّه هيئة أعمال الكفرة في الآخرة بهيئة الرماد الذي اشتدَّت به الريح في يوم عاصف، فأصبح أثرًا بعد عين. وقد «اجتمع المشبَّه والمشبَّه به في الهلاك، وعدم الانتفاع، والعجز عن الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة»[1]؛ لأنَّ أعمالهم كصلة الأرحام، وبر الوالدين، وإكرام الضيف، ونجدة الملهوف ونحوها، يُبطلها الكفر، ويُذهب بركتها، وتكون وبالًا على أصحابها يوم القيامة، فلا ثمرة ترجى من ورائها، ولا غناء فيها ينتظر.

ويتضمَّن عقد المشابهة بين بطلان أعمال الكفَّار والرماد المتجمِّع والمتطاير طاقات حِجَاجيَّة، تسعى إلى تقريب المشهد من أذهان الناس؛ للتأثير فيهم وإقناعهم بأنَّ الأعمال المقدَّمة، مهما كانت قريبة من الخير والصلاح، إذا لم تكن مبنية على أساس الإسلام المتين، فإنَّها سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، ولم يجده شيئًا، فكذلك حال الكفرة والعصاة والجبابرة يظنُّون أنَّ أعمالهم سبب في دخولهم جنَّات النعيم، والنجاة من العذاب الشديد، وهي غير مقبولة البتَّة عند الله، ولا تنفعهم في الموقف العظيم، الذي يكون فيه الإنسان إمَّا في الجنَّة منعَّمًا، وإمَّا في النَّار معذَّبًا.

ويأتي مفعول التشبيه الحِجَاجي من خلال نقل المعقول إلى المحسوس، وجعله في صورة حسيَّة مؤثِّرة مقنعة، تؤكِّد أنَّ أعمال الكافرين لا وزن لها في ميزان الآخرة، وبطلانها مبني على

[1] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّمَّاني والخطَّابي وعبدالقاهر الجرجاني في الدراسات القرآنيَّة والنقد الأدبي، ص٨٢.

بطلان اعتقادهم ومذهبهم؛ لأنَّ الأساس ليس تقديم العمل نفسه، وإنَّما الباعث على العمل من معتقد ونيَّة[1] وغاية وقصد.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٦] أتى التشبيه مبيِّنًا ما ينتج عن الكلمة الطيِّبة من أعمال صالحة ظاهرة وباطنة، وما ينتج عن الكلمة الخبيثة من أفعال قبيحة وباطلة تتعارض مع المنهج الإسلامي القويم.

وتظهر الحجيَّة في أنَّه شبَّه الكلمة الطيِّبة بالشجرة الطيِّبة الثابتة، وشبَّه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة غير الثابتة[2]، فالأول تكون فيه «الهيئة الحاصلة من البهجة في الحس والفرح في النفس، وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رسوخ الأصل، وجمال المنظر، ونماء أغصان الأشجار، ووفرة الثمار، ومتعة أكلها. وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتَيْن يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى»[3]، في حين أنَّ الثاني يكون «على الضد بجميع الصفات الماضية من اضطراب الاعتقاد، وضيق الصدر، وكدر التفكير، والضر المتعاقب. وقد اختصر فيها التمثيل اختصارًا اكتفاء بالمضاد، فانتفت عنها سائر المنافع للكلمة الطيِّبة»[4]؛ لأنَّ الأرض التي غرست فيها تختلف عن تلك، بما تحمله من مقوِّمات وسمات.

إنَّ استدعاء مظهر محسوس من مظاهر البيئة المعهودة في الحياة اليوميَّة، وتوظيفه في سياق بيان أثر الكلمة الطيِّبة والكلمة الخبيثة في أرض الواقع، يزيد من ترسيخ هاتَيْن الصورتَيْن

---

[1] وقد ورد في الحديث أنَّ رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- قال: «الأعمال بالنيَّة، ولكل امرئ ما نوى...إلخ». صحيح البخاري، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٣، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أنَّ الأعمال بالنيَّة والحِسْبَة ولكل امرئ ما نوى، رقم الحديث: ٥٤، ص٢٠.

[2] جاء في الحديث عن أنس بن مالك قال: أُتِيَ رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- بقناع عليه رطب، فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥] قال: (هي النخلة) ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم:٢٦] قال: (هي الحَنْظَلَة). الجامع الكبير، أبواب تفسير القرآن، رقم الحديث: ٣١١٩، ١٩٥/٥.

[3] تفسير التحرير والتنوير، ٢٢٤/١٣.

[4] المرجع السابق، ٢٢٤/١٣-٢٢٥.

في عقول المتلقِّين، ويجعلها أكثر تأثيرًا وإقناعًا بالأطروحة التي تدور حول (الدعوة إلى الإيمان بالله، والحث على الكلم الطيّب والعمل الصالح، والبُعد عن الشرك والمحظورات الخبيثة)؛ لأنَّ الله يثبّت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيويَّة والحياة الأخرويَّة، ويضلُّ الذين كفروا عن سبيل المؤمنين الصالحين، فلا حجَّة لهم تقرع، ولا أساس ثابت يعملون عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل:٩٢] جاء التشبيه واصفًا حال الذين ينقضون العهود بعد توكيدها، غير ملتزمين بما ورد فيها من بنود واتفاقيات قد أبرمت على الصدق والوفاء والأمانة، فلهم يوم القيامة عند ظهور الحقائق الجزاء الأوفى بما كانوا فيه يختلفون.

ومحاجَّة التشبيه تكمن في أنَّه شبَّه ناقضي العهد بعد توكيده بالمرأة الحمقاء[1] التي نقضت[2] غَزْلها[3] من بعد شدِّ فتله وإحكامه أنكاثًا[4]، وفيه «تقبيح نقض العهود الموثقة وتشنيع فعلها، لذلك نرى كل جزئيَّة في هذا التشبيه تشي بالتحقير والترذيل لتشويه هذا الفعل في النفوس»[5]، وردعها عن القيام به؛ لأنَّه من الواجب الشرعي أداء الأيمان والمواثيق، والالتزام بها يحقِّق الثبات على المبدأ، ويساعد على استمرار الجهد وإنجاز الوعد، ويُنبئ عن كمال الوعي وقمَّة الإدراك، ويبني جسورًا من الوفاء والإنصاف والتوافق.

وتتأسَّس العلاقة بين نقض العهد ونقض الغَزْل عن طريق انتزاعها من تجارب الحياة اليوميَّة الحسيَّة، فالغَزْل له أهميَّة كبيرة في الواقع، حيث يتخذ منه البيوت والفرش وغيرهما، فهو

---

[1] قيل: هي ريطة بنت سعد بن تيم. وكانت خرقاء اتخذت مغزلًا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهنَّ فينقضن ما غزلن. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٥٨٢/١٤.

[2] النَّقْض: إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء... النَّقْض ضد الإبرام. لسان العرب، مادَّة: (نقض)، ٣٣٩/١٤.

[3] الغَزْل: فتل نتف من الصوف أو الشَّعر لتُجعل خيوطًا محكمة اتصال الأجزاء بواسطة إدارة آلة الغَزْل، بحيث تلتفُّ النُّتف المفتولة باليد، فتصير خيطًا غليظًا طويلًا بقدر الحاجة ليكون سُدى أو لُحمة للنَّسْج. تفسير التحرير والتنوير، ٢٦٥/١٤.

[4] النَّكْث: نَقْض ما تعقده وتصلحه من بيعة وغيرها. لسان العرب، مادَّة: (نكث)، ٣٥٠/١٤.

[5] بلاغة الفرائد القرآنيَّة، سارة بنت نجر العتيبي، دار مستقبل الكتاب للنشر والتوزيع، جدَّة، ط١، ١٤٤٣هـ- ٢٠٢٢م، ص٥٩٤.

وسيلة مهمَّة من وسائل الحياة والعيش، وكذلك العهود لها أهميَّة مماثلة للغَزْل. وينتج عن هذه العلاقة معرفة حقيقة ناقض العهد بأنَّه جاهل وعديم الرجولة، ولذا شبَّهه بالمرأة ناقضة الغزل.

ويسهم استحضار المشهد الحسي الملموس (نقض الغَزْل) في تجلية تفاصيل الأمور المعنويَّة العقليَّة (نقض العهد)، وتقريبها من أفهام المخاطَبين وكفايتهم الثقافيَّة؛ للتأثير فيهم وإقناعهم بوجوب المحافظة على العهود والأيمان والمواثيق؛ لأنَّ الله أمرَ بذلك، ونهى عن نقضها والإخلال بها تنفيرًا عن فعل هذا الصنيع، وتقبيحًا لمن قام به. وهذه دعوة إلى التفكُّر والتأمُّل في خطورة نقض المعاهدات، وما يترتب عليها من سوء العاقبة والخصام والضغينة، والرجوع إلى الفساد بعد المضي في طريق الصلاح.

وفي خضم الحديث عن الحياة الدنيا ورد التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف:٤٥]، ويكشف عن شدَّة ضعفها وسرعة اضمحلالها، وهذا يؤدِّي إلى التنفير منها، والاقتناع بزوالها وتبدُّد آمال المعوِّلين عليها، فيجب التمسُّك بالعروة الوثقى المنجية من العذاب وبئس المآب.

والمحاجَّة تتجلَّى في أنَّه شبَّه حال الحياة الدنيا في بهجتها ونضرتها وما يليها من فناء وهلاك، بحال النبات الذي اختلط به الماء النازل من السماء، فصار أخضرَ بهيًّا وارفًا، ثم يصبح بعد ذلك هشيمًا يابسًا محطَّمًا تطيِّره الرياح، فيتفرَّق في كل مكان غير منتفع به. ويتضح أنَّ «أعظم حائل بين المشركين وبين النظر في أدلَّة الإسلام انهماكهم في الإقبال على الحياة الزائلة ونعيمها، والغرور الذي غرَّ طغاة أهل الشرك، وصرفهم عن إعمال عقولهم في فهم أدلَّة التوحيد والبعث... وكانوا يحسبون هذا العالم غير آيل إلى الفناء»[1]، وهذه نظرة خاطئة تقودهم إلى نهاية مؤسفة، لا تنسجم مع العقل والواقع في وجود البراهين والدلائل المقنعة، والمؤكِّدة لحقارة الدنيا وسوء عاقبة المفتونين فيها، وإثبات البعث بعد الموت.

إنَّ «مشهد الخضرة تتحوَّل إلى حطام وهشيم، هو بلا مراء من أعظم مشاهد الطبيعة تأثيرًا في وجدان العربي ساكن شبه الجزيرة، وهو في الوقت نفسه من أكثر المشاهد تكرُّرًا في

[1] تفسير التحرير والتنوير، ١٥/٣٣٠.

حياته، بحيث يكون هذا المشهد من أعلق المشاهد بذاكرته، ومن أشدها وقعًا عليه»[1]، وبخاصَّة عند الحديث عن تقلُّب أحوال الدنيا الفانية، التي تتزيَّن إليه بزخارفها وحسنها؛ لإغوائه وإشغاله عن الاستعداد إلى يوم الجزاء.

ويستمدُّ التشبيه فاعليَّته من تجسيد المعقول صورة الحياة الدنيويَّة بالمحسوس صورة النبات الأخضر اليانع المتحوِّل إلى هشيم يابس، ويسعى إلى الوقوف على حقيقة الدنيا الزائلة، والانتقال من حال إلى حال، وهذا يجعل المتلقِّي أكثر قبولًا وتسليمًا بهذه الفكرة المدعَّمة بالبرهان والبيِّنة، التي تغيِّر مواقف المنغمسين في الملذَّات والمغريات من اللعب واللهو إلى العبادة والطاعة؛ بغية الحصول على مغفرة الله ورضوانه، والبُعد عن مسبِّبات الهلاك والعذاب. فالحجَّة (الدنيا زائلة كنبات تذروه الرياح)، والنتيجة (إثبات البعث والحساب في الآخرة).

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:١٠٤]، ظهر التشبيه مفصحًا عن حدث عظيم من أحداث يوم القيامة، ويتمثَّل في طوي السماء على عظمتها واتساعها؛ إيذانًا بالعودة إلى أول الخلق.

وتبرز المحاجَّة في أنَّه شبَّه طوي السماء بطي السجل للكتب، وشبَّه (إعادة خلق الأجسام) بـ(ابتداء خلقها)، ويقصد من ورائها «ذكر البعث والاستدلال على وقوعه وإمكانه إبطالًا لإحالة المشركين وقوعه؛ بعلَّة أنَّ الأجساد التي يدَّعى بعثها قد انتابها الفناء العظيم»[2]. وجاءت هذه البيِّنة القاطعة ردًّا على تلك الدعوى الباطلة؛ حتى تزيل الشبهات والضلالة، وتهدي إلى الحق والنور، وتردع كل مَن ينكر البعث والحساب في يوم القيامة.

وتأتي فاعليَّة التشبيه من تجسيد ما يحدث في ذلك اليوم العظيم بمشهد محسوس في الحياة الواقعيَّة، ويدل استحضار صورة طوي السماء وصورة طي السجل للكتب معًا على قدرة الله في بداية الخلق وإعادته، وبلوغ النهاية الحاسمة التي يكون فيها الإنسان إمَّا في الجنَّة، وإمَّا في النَّار، وينسجم ذكر السجل[3] هنا مع الدور المنوط به في يوم الجزاء؛ لأنَّ فيه أعمال الناس محفوظة.

---

[1] الحِجَاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة، ص٥٠٤.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ١٥٧/١٧.

[3] وقد ورد في الحديث قال رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-: «إنَّ الله سيخلِّص رجلًا من أمَّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًّا كل سجل، مثل: مد البصر، ثمَّ يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي

إنَّ إعمال المخيَّلة وتأمُّل هذا المشهد المهيب سبب في تحفيز الأذهان وتنشيطها، وإثارة المشاعر وتحريكها، وهذا ما يحقِّق فيها التأثير والإقناع، ويغيِّر مواقف المنكرين الجاحدين من العناد والتكذيب إلى الإيمان والتصديق.

وفي وصف حال الكافرين ظهر التشبيه في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [العنكبوت:٤١]، ويبيّن النهاية المؤسفة التي ينتهون إليها، بعد أن امتنعوا عن الامتثال لأمر الله، واتخذوا من الأضعف أولياء لهم من دونه.

وحِجَاجيَّة التشبيه تكمن في أنَّه شبَّه هيئة المتخذين من دون الله أولياء بهيئة العنكبوت التي اتخذت بيتًا[1]، وفيه «أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، وقد اجتمعا في ضعف المعتَمَد، ووهاء المسْتَنَد، وفي ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين، مع الشعور بما فيه التوهين»[2]؛ لأنَّهم ضعفاء اتخذوا أولياء أضعف منهم، فزدادوا بهم ضعفًا ووهنًا، ولم يجدوا منهم إلا الهوان والخزي. وفي هذا دليل قاطع على بطلان الشرك بالله، وضعف المشركين وخسارتهم في تحقُّق ضد ما يتمنَّونه من العزَّة والقوَّة والتمكين، وهو الذل والضعف والضعة؛ جزاء لهم على شركهم وكفرهم.

والعلاقة بين مَن يتوسَّل بغير الله وبيت العنكبوت الواهي تتأسَّس عن طريق تحويل الأمور المعنويَّة غير المرئيَّة إلى صورة مرئيَّة محسوسة، والغرض منها تقريب المشهد من أفهام المتلقِّين وعقولهم؛ لكي يؤثِّر فيهم ويقنعهم بأنَّ الشرك واتخاذ أولياء من دون الله يقودهم إلى الوهن والوضاعة، ويبعدهم عن مواطن القوَّة والرفعة، التي لا تكون إلا من خلال إفراد الله وحده بالعبادة والطاعة والتوكُّل.

الحافظون؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا ربِّ...إلخ». الجامع الكبير، أبواب الإيمان، رقم الحديث: ٢٦٣٩، ٤/٣٧٩-٣٨٠.

[1] أثبت العلم الحديث أنَّ بيت العنكبوت أوهن البيوت على الإطلاق من الناحيتَيْن: الأدبيَّة الأخلاقيَّة المعنويَّة، والماديَّة. ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطَّهرة، يوسف الحاج أحمد، مكتبة ابن حجر، دمشق، ط٢، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، ص٤٩٩-٥٠٢.

[2] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّمَّاني والخطَّابي وعبدالقاهر الجرجاني في الدراسات القرآنيَّة والنقد الأدبي، ص٨٤.

إنَّ استحضار حالة العنكبوت وبيتها الواهن من المشاهَد المادِّيَّة اليوميَّة، وإعمالها في تبيان حالة المتوسِّلين بغير الله، طريقة إلى معرفة نتيجة الاعتماد على غيره في صغائر الأمور وكبائرها، ومحاولة إزالة الفكرة السابقة من عقول البشر التي تتمثَّل في (اتخاذ أولياء من دون الله)، وتبديلها بالفكرة الجديدة التي تتمحور حول (انفراد الله وحده في كل شيء لا شريك له)، وهذا يجنِّبهم أن يكون حالهم كحال العنكبوت وبيتها الضعيف.

وفي قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم:٢٨] أتى التشبيه مجلِّيًا حال المشركين الذين اتخذوا لله شركاء في الألوهيَّة والعبوديَّة، ولم يرضوا أنفسهم أن يشاركهم عبيدهم ومماليكهم ويساوونهم في أي شيء يملكونه، فكذلك الله لا يرضى أن يشاركه أحد ويساويه في وحدانيَّته وملكوته وربوبيَّته.

والمحاجَّة تقوم على أنَّه شبَّه هيئة المشركين الذين جعلوا لله شركاء في العبادة والطاعة بهيئة السادة الذين لهم عبيد ومماليك، فصاروا يشاركونهم في أرزاقهم على السواء، وشبَّه خوف أسياد العبيد من مشاركة عبيدهم لهم فيما يملكون بالخوف من مشاركة الأحرار بعضهم البعض، وهذه «الهيئة المشبه بها هيئة قبيحة مشوَّهة في العادة لا وجود لأمثالها في عرفهم، فكانت الهيئة المشبهة منفية منكرة»[1]، ومسهمة في إبراز المعنى الاعتقادي الباطل الذي بنوا عليه عقيدتهم وعبادتهم، حيث قادهم إلى اتخاذ أولياء وشركاء يتوسَّلون بهم من دون الله. ولذا جاءت هذه الآية الكريمة؛ لتواجه قضيَّة رئيسة من قضايا الشرك والتوحيد، وتفنِّد حجج المشركين الواهية بالعقل والبرهان، وتقيم عليهم الحجَّة الدامغة؛ لإثبات وحدانيَّة الله وألوهيَّته وعظمته، وهدم صوامع الشرك والكفر والوثنيَّة.

ويستقي التشبيه فاعليَّته «من الفضاء الاجتماعي الذي تنشط فيه مجموعة المتلقِّين الأولين، وفيه تتحرَّك وتنسج مجمل علاقاتها الخاصَّة والعامَّة... إذ مدار الأمر على علاقة العبد بالسيِّد مطلقًا، وهي على كل حال علاقة معروفة»[2] من قِبلهم، ومنتزعة من أحوالهم وواقعهم المعيش، وتسعى إلى تقريب الصورة من أذهانهم وأفهامهم؛ لكي تكشف عن حقيقة المعتقد

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٨٦/٢١.

[2] الحِجَاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة، ص٥٢٠-٥٢١.

الباطل وضلال أصحابه وفساد أعمالهم، وتؤدّي بهم إلى الإذعان والتسليم والامتثال لأوامر الله ونواهيه، ونفي الشريك عنه في مُلكه وصفاته وأفعاله، وإخلاص العبادات والأعمال له وحده دون سواه.

ويتضمَّن تشكيل المعاني المعقولة في صورة مشاهَدة حسيَّة حمولة حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تأتي من وعي المخاطَبين وإدراكهم لمسألة الإشراك والمساواة التي لم يقبلوها على أنفسهم أصلًا، فكيف يريدون أن يقبل بها الله الذي بيده ملكوت كل شيء! وهذا يدل على تفكيرهم السطحي المحدود، وبطلان الأسس التي قامت عليها دعواهم الزائفة، وتأكيد الوحدانيَّة من الواقع البشري نفسه. واختصَّ أهل العقل بالذكر من بين الخلائق؛ لأنَّ من طبيعتهم يتفكرون في الآيات البيِّنات، ويقبلون عليها مقتنعين بالدلائل المفصَّلة من غير مكابرة وإعراض، ومنتفعين بما فيها من حكمة وخير وتوجيه، ومَن لم يتسم بهذه الصفات فليس منهم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾ [الروم:٥٠] برز التشبيه دالًّا على قدرة الله وعظمته وإتقانه في الإنشاء والإحياء والإعادة، ممَّا يوجب الإيمان به، وتوحيده، وعبادته، وطاعته، والتقرُّب إليه.

والحجَّة تنهض على أنَّه شبَّه هيئة إحياء الأموات بهيئة إحياء الأرض بعد موتها، وفيه «تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مظاهر قدرة الله تعالى في الكون»[1]، والاستدلال على حكمته وتدبيره وتفرُّده بهذا الصنيع العجيب الذي لا يقدر على فعله سواه، ويتمثَّل في إعادة الحياة بعد الموت، وتؤكِّد هذه البراهين القاطعة أنَّ الله وحده المنفرد بكل شيء في الأرض وفي السماء، والحقيق بالألوهيَّة والعبوديَّة.

ويكتسب التشبيه مفعوله الحِجَاجي من توظيف المشاهَد في الحياة الواقعيَّة في سياق الإخبار عن أمر غيبي، يحدث للموتى في الآخرة عند البعث والنشور، وبين المرئي والغيبي حالة من المماثلة في الشكل والمضمون؛ لأنَّهما «قياس الغائب على الشاهد، أو استدلال بالشاهد

[1] أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، ٤/١٩٠.

على الغائب، أي إثبات البعث بناء على ثبوت ظاهرة مشابهة هي إحياء النبات»[1] برحمة الله وقدرته ومشيئته.

والخطاب هنا يتغيَّا أمرَيْن رئيسَيْن: الأول: إبراز عظمة الله وهيبته، وسعة نعمه وفضله، وبديع صنعه الذي أتقن كل شيء. والثاني: إبطال دعوى منكري البعث والحساب يوم القيامة، والرد عليهم بالحجج المقنعة والأدلَّة القطعيَّة الواردة في القرآن الكريم والسنة النبويَّة، والمؤكِّدة لوقوع البعث في يوم الجزاء؛ لكي تزيل من عقولهم وأفكارهم الضلالات والشبهات، وتهديهم إلى الحق المبين والصراط المستقيم.

وينطوي عقد المشابهة بين إحياء الأرض الميِّتة وإحياء الأموات على طاقات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تؤدِّي إلى تجلية حقيقة ما يحدث في الآخرة، وترسيخها في أذهان الناس؛ لإقناعهم بأنَّ الدنيا دار ممر لا دار مقر، والحياة الحقيقيَّة تبدأ بعد الانتقال منها، وهذا ما يدعو إلى التفكُّر والاعتبار والتزوُّد من الأعمال الصالحة والنافعة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان:٧] جاء التشبيه مبيِّنًا حال مَن يعرض عن آيات الله، ويستكبر عنها غير مستجيب لما ورد فيها من أوامر ونواهٍ، فيبشر بعذاب أليم؛ جزاء له على شدَّة استكباره، وفرط عناده، وتولِّيه عن دعوة الحق.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه شبَّه حالة تولِّي المستكبر بعد سماع الآيات المحكمات بحالة تولِّي مَن لم يسمعها أصلًا، وأراد أن يزيد التشبيه تأكيدًا، فشبَّهه أيضًا بحالة مَن في أذنَيْه وقر[2]، ويظهر أنَّ المعرض قد وصل إلى مرحلة حرجة، فحالته «بعد سماع الآيات كحالته تمامًا قبل سماعها، وتلاوتها عليه؛ وذلك لعدم تأثُّره بهذه الآيات، والانتفاع بها، فسماع هذه الآيات دون قبول حكمها، والعمل بما جاء فيها في حكم العدم»[3]، على الرغم من شأنها أنَّها تجعل الناس يقبلون عليها، ويصغون إليها، وتكون سبب هدايتهم إلى الرشاد والفلاح. وهذا يكشف عن أمرَيْن: أولهما: مكانة القرآن الكريم، وما فيه من نور يهدي إلى سبيل أقوم، والسعيد الذي

---

[1] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ١١٩/١١.

[2] الوَقْر: ثقل في الأذن... وقيل: هو أن يذهب السمع كله. لسان العرب، مادَّة: (وقر)، ٢٥٦/١٥.

[3] التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، عبدالعزيز صالح العمَّار، جائزة دبي الدوليَّة للقرآن الكريم، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، ص١٦.

يسعد به سعادة أبديَّة. وثانيهما: موقف مَن أعرض عن النور الساطع، وأقبل على الظلام الحالك، وعاش في شقاء مقيم خاسرًا دنياه وآخرته.

وفاعليَّة التشبيه تعتمد على المخزون الذهني، إذ استدعى هيئة المستكبر التي من طبيعتها تقتضي عدم السماع، وهيئة مَن به وقر وصمم يمنعانه نهائيًّا من السماع، وكلتا الهيئتَيْن موجودة في الحياة المعيشة، وتشتركان في مسألة الامتناع عن الاستجابة لكلام الله استكبارًا عنه، وكفرًا به، وجحودًا له وإنكارًا. والإشكاليَّة تنبع من المعرض نفسه، وموقفه المناهض للإسلام، وليست من الآيات نفسها.

وللتشبيه دور فاعل في ترقية الخطاب تصاعديًّا، حيث تدرَّج في وصف العمليَّة التواصليَّة بين الذكر الحكيم والمعرض، فكلَّما تُليت عليه البيِّنات الهاديات ولَّى مستكبرًا عنها كأن لم يسمعها بتاتًا، بل كأنَّ في أذنَيْه وقرًا يمنعه من الاستماع والانتفاع، وليس هناك ما يستدعي الإيغال في الإعراض سوى الكفر والطغيان والوقوف ضد الدعوة الإسلاميَّة، فكانت النتيجة (الحرمان من خيرات الدنيا ونعيم الآخرة، والتبشير بالعذاب الأليم). وهذه عظة واعتبار وتحذير من هذا الرجل الضال، وإظهار جرمه الشنيع، والإنكار عليه جملة وتفصيلًا، ولا يضير القرآن الكريم إدبار المدبر وإقبال المقبل.

وفي وصف عذاب قوم ثمود لَمَّا عقروا ناقة الله التي كانت لهم آية، برز التشبيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١﴾ [القمر:٣١]، وفيه بيان لجزاء الذين كذَّبوا نبي الله صالحًا -عليه السلام- المبعوث إليهم بالهداية والحق، واستهزأوا بنُذر الله التي أرسلها إليهم، فكان مصيرهم الهلاك والإبادة.

والمحاجَّة تكون في أنَّه شبَّه قوم ثمود بعد نزول الصيحة بهم بهشيم المحتظر[1]، وبينهما صلة من ناحيتَيْن: الناحية الأولى: ترتبط بما قبل الهلاك، إذ كان الهشيم شجرًا مورقًا، متماسكًا قويًّا، حسن المنظر، وكذلك كان قوم ثمود من القوَّة والصلابة والزهو كما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتَا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٩]. أمَّا الناحية الثانية

[1] هشيم المحتظر: هو الهشيم المجموع في الأرض قبل أن يُسيَّج، ولذلك قال: "كهشيم المحتظر"، ولم يقل: "كهشيم الحظيرة"؛ لأنَّ المقصود بالتشبيه حالته قبل أن يرصف ويصفَّف، وقبل أن تتخذ منه الحظيرة. تفسير التحرير والتنوير، ٢٠٣/٢٧.

فترتبط بما بعد الهلاك، إذ أصبح الشجر هشيمًا يابسًا محطَّمًا في الأرض لا يلتفت إليه ولا يستفاد منه، وكذلك قوم ثمود بعد نزول الصيحة بهم، صاروا محطَّمين يابسين لا ينظر إليهم ولا يستفاد منهم، ولم يكتفِ الله بتحطيمهم وفنائهم، وإنَّما أراد بهم «الازدراء، وأنَّهم لا كرامة ولا آدميَّة لهم... هم كهذا الهشيم الموطوء بالدواب تبول وتروث عليه، وفيه من الإهانة وضياع الحرمات ما ترى»[1]. وفي هذا دليل على قدرة الله وعظمته، وشدَّة سخطه على القوم الكافرين المستهزئين.

إنَّ عقد المشابهة بين هؤلاء الصرعى المعذَّبين والهشيم الضعيف الذاوي المتكسِّر يتضمَّن حمولة حِجَاجيَّة، تسعى إلى تقريب المشهد من أذهان المتلقِّين؛ للتأثير فيهم وإقناعهم بأنَّ مصير مَن يكفر بالله، ويستهزئ بأوامره ونواهيه، يكون مصيره مصير قوم ثمود. وهذا تنبيه وتحذير للبشريَّة قاطبة، وترهيب لهم من عصيان الله وعذابه.

وفي سياق الإخبار عن حال المشركين أتى التشبيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القلم:١٧]، ويكشف عن الابتلاء الذي حلَّ بهم؛ إثر امتناعهم عن شكر الله وحمده كفرًا واستكبارًا، بعد أن أسبغ عليهم النعم العظيمة والآلاء الجسيمة التي لا تعد ولا تحصى.

والحجَّة تنهض على أنَّه شبَّه حال الذين ابتلاهم الله بالنعم والعطاءات ليشكروا أو ليكفروا، بحال أصحاب الجنَّة[2] الذين ابتلاهم بالفضائل الكثيرة والخيرات الوفيرة؛ ليشكروه حق شكره على ما أفاء عليهم، ولكنَّهم كفروا بها وبطروا وأقسموا ليصرمنَّها[3] مصبحين، وبين هذَيْن

---

[1] التصوير البياني: دراسة تحليليَّة لمسائل البيان، ص٨٥.

[2] أحداث القصَّة، كما يذكرها المفسِّرون، أنَّ رجلًا صالحًا من أهل صنعاء، كان له بستان كبير، فيه من أنواع الفواكه والثمار والنخيل، وكان إذا حان وقت الحصاد، دعا الفقراء فأعطاهم حقهم ونصيبهم وافرًا، وكان ينفق الثلث على أهله وعياله، ويتصدَّق بالثلث، ويترك الباقي لمصروف البستان وأجرة العمَّال، فلمَّا توفي الأب وورثَه أبناؤه، قال بعضهم لبعض: إنَّ أبانا كان مسرفًا أحمق، يبذِّر المال، وينفق على المساكين، ويحرمنا من كثير من حقوقنا، فتشاوروا فيما بينهم، وعزموا على أن يقطفوا ثمار البستان في الليل، قبل طلوع الشمس، لئلا يحضر أحد من المحتاجين والمساكين، فيطلبوا ما كانوا ينالونه في زمن أبيهم، وحلفوا على جني ثمارها في ظلمة الليل، فأرسل الله على البستان ليلًا نارًا محرقة، وصواعق مدمِّرة، أتلفت الشجر، وأحرقت الثمر، فلمَّا رأوا البستان محترقًا، ليس فيه ثمر، قالوا: لقد أخطأنا الطريق، فما هذا بستاننا، ثم تبيَّن لهم أنَّهم ما كانوا مخطئين الطريق، وعرفوا أنَّ الله تعالى عاقبهم بنيَّتهم السيئة، فأحرق لهم ثمر البستان، فندموا وتابوا ولكن بعد فوات الأوان. الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص٣٦٤-٣٦٥.

[3] الصرم: القطع البائن. لسان العرب، مادَّة: (صرم)، ٨/٢٣١.

الحالَيْن تكون المماثلة في الابتلاء، والإعراض عن شكر النعمة. وينتج عن هذا التمثيل تأكيد مسألة الامتنان والشكر لله على واسع فضله وجزيل كرمه، والتهديد والوعيد لكل المعرضين «بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنَّة من البؤس بعد النعيم والقحط بعد الخصب، وإن اختلف السبب في نوعه فقد اتحدَّ جنسه»[1]، جزاء لهم على جحود النعمة ونكران الإحسان؛ لأنَّ الاغترار بالقوَّة وسعة العيش لن تغني عن الله شيئًا، فله التدبير والأمر كله، وإليه المرجع والمآب.

وتتأسَّس العلاقة بين حال المشركين وحال أصحاب الجنَّة عن طريق الاعتماد على الفضاء الاجتماعي والمخزون الذهني، إذ وظَّف (قصَّة أصحاب الجنَّة) في الحديث عن أثر شكر النعم وأثر الكفر بها، وأراد من خلال هذه القصَّة أن يقدِّم نموذجًا حيًّا معلومًا لدى المشركين بمثابة الدليل، والغرض منه التذكير والعظة والاعتبار بما جرى لأولئك المعرضين عن تأدية حق الله، والاعتراف بفضله عليهم.

والخطاب في الآية الكريمة مشحون بحمولة إقناعيَّة، تقود إلى تجلية أسباب دوام النعم، وكيفيَّة المحافظة عليها من الزوال، والرد بالبيِّنة القاطعة على الدعوى المزعومة المتمثِّلة في (أنَّ النعمة تأتي بالعمل والجهد وتستمر، وليس بفضل الله وحمده)، وممَّا يزيد الخطاب تأثيرًا وإقناعًا إزالة الفكرة السابقة المرفوضة، وتبديلها بالفكرة الجديدة المقبولة المنبثقة من (أنَّ حصول النعم بفضل الله وحده، ودوامها بدوام الشكر والحمد).

وفي وصف حال المشركين عند خروجهم من قبورهم تجلَّى التشبيه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج:٤٣]، ويبيِّن العاقبة الوخيمة التي يوفضون[2] إليها بعد كفرهم وعصيانهم لأوامر الله.

والحجيَّة تتشكَّل من أنَّه شبَّه إسراع الكافرين عند بعثهم من قبورهم يوم الحساب بإسراعهم في الدنيا إلى أصنامهم وطواغيتهم، وفيها تهكُّم بهم، وتسخيف لعقولهم، و«إدماج لتفظيع حالهم في عبادة الأصنام، وإيماء إلى أنَّ إسراعهم يوم القيامة إسراع دع ودفع؛ جزاء على

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٢٩/٧٩.

[2] يوفضون: يسرعون. والإيفاض: الإسراع. تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيِّد أحمد صقر، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م، ص٤٨٦.

إسراعهم للأصنام»[1]. ولذا، فإنَّ الهوان والمذلَّة ملازمان لهم؛ لأنَّهم عبدوا ما لا يستحق أن يعبد، وتركوا الجدير بالعبادة الله الواحد الأحد.

إنَّ استدعاء صورة الإسراع إلى آلهتهم وأصنامهم من الواقع المحسوس، طريق إلى الوقوف على ما يكونون عليه يوم العرض من حال، وإثارة الرعب والفزع في نفوس الناس وتحذيرهم من الوقوع في ذلك العذاب الشديد، وهذا ما يحقِّق التأثير والإقناع، ويغيِّر موقف الكافرين المعاندين الذين كذَّبوا دعوة الله إلى دين الحق.

وفي بيان حال المعرضين عن التذكرة ظهر التشبيه في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر:٤٩-٥١]، ويبيِّن مصيرهم المؤسف الذي ينتهون إليه، بعد أن امتنعوا عن قبول دعوة الله إلى الدين القويم كفرًا وعنادًا، وانغمسوا في أوحال الضلالة والعصيان.

ومحاجَّة التشبيه ترتكز على أنَّه شبَّه حالة نفور الكفَّار عن التذكرة العظيمة والموعظة الحسنة بحالة الحُمُر[2] المستنفرة الفارَّة من القسورة[3]، وفيها يثبت أنَّ صدودهم وفرارهم عن دعوة الإسلام «مذمَّة ظاهرة، وتهجين لحالهم، وشهادة عليهم بالبَلَه وقلَّة العقل»[4] والجهل، وتشنيع لهم، وسخريَّة منهم؛ لأنَّ بصيرتهم عمياء عن نور الحق، وثاقبة في ظلام الباطل، فهم رضوا أن يعيشوا في المذلَّة والهوان، ولم يلتحقوا في ركب الصالحين المفلحين، ولم ينتفعوا بخيريَّة الدين الحنيف الهادي إلى سواء السبيل، وهذا يسفر عن تجلية موقف المشركين من الكتاب العزيز، وشدَّة نفورهم وإعراضهم عنه، وفرط استكبارهم عمَّا فيه من مواعظ وحكم، دون وجود حجَّة مقنعة لديهم تبرر أفعالهم المشينة والقبيحة، التي تتمثَّل في سرعة إبعاد أنفسهم عن الهداية الربانيَّة على غير بصيرة ودراية وهدى.

ومفعول التشبيه الحِجَاجي يأتي من نقل المعقول (صورة نفور الكفرة من الدعوة) إلى المحسوس (صورة استنفار الحُمُر الشديد)، وهذا المشهد الواقعي معروف عند العرب، وهو

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ١٨٣/٢٩.

[2] الحُمُر: الحمير الوحشيَّة. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٢٥٩/١٥.

[3] القسورة: جماعة الرماة الذين يتصيدونها، وقيل: الأسد. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١١٥٩/٢٩.

[4] إعراب القرآن الكريم وبيانه، ١٤٢/٨.

مشهد قوي الحركة، ولكنَّه في الآن نفسه مضحك أشد الضحك إذا يشبه به البشر عند خوفهم ونفورهم؛ لأنَّهم يتنقلون من الهيئة البشريَّة إلى هيئة الحُمُر، فضلًا عن أنَّ سبب هذا النفار مذكِّر يذكِّرهم برهِّم ومصيرهم الحتمي؛ ليتقوا ذلك الموقف العظيم في يوم الحشر والحساب، حيث لا ينفع الكفَّار كفرهم وامتناعهم إلا مَن آمن بالله، وأقبل عليه، وامتثل لأوامره ونواهيه، وتمسَّك بالعروة الوثقى.

إنَّ استدعاء هيئة الحُمُر ونفورها من البيئة الحسيَّة المعهودة لدى المتلقِّين، وإشغالها في تبيان هيئة الفارِّين من دعوة الحق، تسهم في تقرير عنادهم ومكابرتهم وإنكارهم لتلك المواعظ البليغة والدلائل الواضحة، التي فيها صلاح حياتهم واستقامتها، وخلوصهم من الغي وضنك العيش وسوء المنقلب يوم القيامة. وتكشف أيضًا عن نتيجة إعراضهم وصدودهم المتمثِّلة في حرمانهم الشديد من الانتفاع بهذه الخيرات الكثيرة والأجور الوفيرة، وجعلهم أكثر شرودًا وتشتُّتًا وحيرة في كل شؤونهم وأمورهم، غير مستقرِّين بأي حال من الأحوال، ممَّا يقتضي الإنكار عليهم، والتعجُّب من أحوالهم المختلفة ومواقفهم المتطرِّفة، الدالَّة على اضطراب عقولهم وانعدام أفهامهم وموت ضمائرهم.

وثمَّة علاقة وثيقة بين نفور الكافرين ونفور الحُمُر، تتجلَّى من خلال تجسيدها ماثلة أمام أعين الناس، والغرض منها تقريب مشهد الهرب والنفرة من الأذهان؛ لكي يؤثِّر فيها ويقنعها بأنَّ الإسلام جاء لهداية البشريَّة قاطبة، وتحقيق المقاصد العالية النافعة، والابتعاد عنه يقود إلى الحرمان والشقاء؛ لأنَّه يتضمَّن مصادر السعادة الحقيقيَّة في الدنيا والآخرة. ولم يكن نفور الكافرين عن الإسلام مبرَّرًا كنفور الحُمُر من القسورة، على الرغم من اشتراكهما بصفات حركيَّة متعدِّدة، فالكافرون يفرِّون إلى هلاكهم، أمَّا الحُمُر فتهرب من هلاكها، ولذا، فإنَّ الحُمُر على جهلها وبلادتها التي يضرب بها المثل[1]، قد أصبحت أكثر وعيًا وإدراكًا من الكافرين. وهذه عظة واعتبار منهم، ودعوة إلى الإيمان بالله، والإقبال عليه، والتحذير من الإعراض والنفور عنه.

وفي قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات:٤٦] برز التشبيه واصفًا حال المكذِّبين بقيام الساعة يوم القيامة، وما ينتابهم من اندهاش شديد

[1] ينظر: كتاب جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، ضبطه وكتب هوامشه ونسَّقه: أحمد عبدالسلام، وخرَّج أحاديثه: محمد سعيد زغلول، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، ١/٢٧٠.

بسرعة انقضاء الزمان الطويل الذي لبثوا فيه، كأنَّه عشيَّة أو ضحاها أمام هول هذه الساعة وعظم أمرها.

والمحاجَّة تقوم على أنَّه شبَّه هيئة المنكرين للساعة عند قيامها بهيئة الذين لم يلبثوا إلا مدَّة قصيرة بمقدار العشيَّة أو الضحى، وفيها «إمَّا تقرير وتأكيد لما ينبئ عنه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به... وإمَّا رد لما أدمجوه في سؤالهم، فإنَّهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجلين بها، وإن كان على نهج الاستهزاء بها»[1] والسخريَّة منها. وفي كلا الأمرَيْن إثبات لمسألة البعث والجزاء في الآخرة، وبيان لقدرة الله وعظمته في الخلق والإحياء والإعادة، وإنكار لما يظهره المكذِّبون من كفر وعناد واستكبار، ودحض لدعواهم الكاذبة القائمة على الاستخفاف والزور والبهتان، وإبطال لحججهم الواهية بالحجَّة الواضحة والبيِّنة القاطعة.

ويكتسب التشبيه مفعوله الحِجَاجي من الاعتماد على واقع الحياة المعيشة، فالعشيَّة والضحى[2] مظهران من المظاهر الموجودة في خصائص كل يوم، ويمثِّلان المدَّة الزمنيَّة التي تكون فيها الأرض ميدانًا للعمل والسعي كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١﴾ [النبأ:١١]، واختيار النهار دون الليل؛ لأنَّه يمضي سريعًا غير مشعور به، بخلاف الليل الذي يكون للتفكُّر والتأمُّل. وتؤدِّي المقارنة بين النهار المعلوم وتلك الساعة الأخرويَّة إلى زيادة التقليل والتحقير، والغرض منها تقريب المشهد من أفهام الناس وعقولهم؛ لكي يؤثِّر فيهم ويقنعهم بأنَّ تكذيب قيام الساعة كفر وفساد في المعتقد، والواجب التصديق بها والامتثال لأوامر الله ونواهيه، والابتعاد عن كل ما ينافي منهج الإسلام.

إنَّ معرفة نتيجة الاعتقاد الباطل الذي يدور حول (إنكار حدوث البعث بعد الموت) كفيلة بتحقيق الاقتناع والانتفاع بها، وإزالة هذه الفكرة الخاطئة المرفوضة من الأذهان، وتبديلها بالفكرة الجديدة المقبولة التي تتمحور حول (الإيمان بحدوث البعث بعد الموت)، وهذا تحوُّل محمود من الهلاك والفناء إلى النجاة والبقاء.

---

[1] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ضبطه وصحَّحه: علي عبدالباري عطيَّة، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م، ٢٣٨/١٥.

[2] العشيَّة: ما بين الظهر إلى غروب الشمس. والضحى: ما بين طلوع الشمس إلى الظهر. الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص٣٩٢.

وممَّا سبق يتجلَّى أنَّ التشبيه بقسمَيْه: المفرد، والمركَّب، قد حضر في السور المكِّيَّة حضورًا حِجَاجيًّا مؤثِّرًا، وجعل المعاني المعنويَّة المجرَّدة في صور محسوسة معبِّرة، تقود المتلقِّي إلى الإذعان والتسليم بما تحمله من قضايا محوريَّة كبرى، مثل: إثبات وحدانيَّة الله تعالى، والبعث والحساب يوم القيامة...إلخ.

الفصل الثاني:
حجاجيَّة المجاز

الفصل الثاني

حِجَاجيَّة المجاز

يمثِّل المجاز أسلوبًا من الأساليب الحِجَاجيَّة التي تحظى باهتمام من البلاغيين والنقَّاد قديمًا وحديثًا، إذ يسهم في تحفيز المخاطَب وتوجيه عقله نحو قضيَّة أو فكرة ما، تحمله على الامتثال لها والتسليم بها.

والمجاز في اللُّغة مأخوذ من «جُزْتُ الطريقَ وجازَ الموضعَ جَوْزًا وجُؤُوزًا وجَوازًا ومَجازًا وجازَ به وجاوَزه جِوازًا وأجازه وأجاز غيرَه وجازَه: سار فيه وسلكه، وأجازَه: خَلَّفه وقطعه، وأجازه: أنْفَذَه... والمجازُ والمجازَةُ: الموضع»[1]. ويتمحور حول معانٍ متقاربة، منها: الإجازة، والعبور، والتعدِّي.

أمَّا في الاصطلاح فقد تنوَّعت تعريفات المجاز، ومن أهمِّها ما ذكره "عبدالقاهر الجرجاني" (ت٤٧١هـ) بقوله: «أمَّا المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول»[2]. فـ"الجرجاني" يفطن إلى العلاقة الجامعة بين المعنيَيْن اللُّغوي والاصطلاحي، حيث يتشكَّل الثاني في غير ما وضع للأول منطلقًا من القرينة القائمة بينهما.

وتناول "السكاكي" (ت٦٢٦هـ) المجاز على أنَّه «الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق، استعمالًا في الغير، بالنسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع»[3]. ويضع "السكاكي" تصوُّرًا دقيقًا يبيِّن من خلاله استعمال الكلمة المجازي، الذي يتحقَّق في غير ما تدلُّ عليه ظاهرًا مع وجود قرينة تمنع إرادته.

وذكر "ابن الأثير" (ت٦٣٧هـ) أنَّ المجاز هو «ما أُريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللُّغة، وهو مأخوذ من جاز من هذا الموضع إلى هذا الموضع، إذا تخطَّاه إليه»[4]. ويركِّز هنا على نقل المعنى من لفظ موضوع له أصلًا إلى لفظ آخر غيره، ويدور جوهريًّا حول عمليَّة تغيير المحتوى بآخر.

---

[1] لسان العرب، مادَّة: (جوز)، ٢٣٨/٣.

[2] أسرار البلاغة في علم البيان، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م، ص٣٠٤.

[3] مفتاح العلوم، ص٣٥٩.

[4] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٨٤/١.

وبهذا يظهر أنَّ المجاز في الاصطلاح لم يبتعد كثيرًا عن الأصل اللُّغوي، وإنَّما جعله ركيزة ينطلق منها؛ لاستنباط المعنى الاصطلاحي، ويتفق البلاغيون على وجود ما يمنع إيراد المعنى الحقيقي، حتى لو تمايزوا في التعبير عنه.

وللمجاز منزلة رفيعة في الكلام، وتعدُّه العرب «من مفاخر كلامها، فإنَّه دليل الفصاحة ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها عن سائر اللُّغات»[1]، ولذا كثر استخدامهم له؛ لأنَّه يجسِّد المعاني في صور مرئية مشاهَدة، ويجعل وقعها على الأذهان أشد وأعمق.

وقيمة المجاز الحِجَاجيَّة تتجلَّى في عدوله «عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة، وهي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه»[2]، إذ يعطي الألفاظ دلالات جديدة غير مألوفة، تضفي على الفكرة المطروحة مزيدًا من التأثير والإقناع، وتقود المتلقِّين إلى الإذعان لها والانقياد إليها، بل يتخطَّى ذلك إلى تبنِّيها والمحاججة عنها.

والمجاز في القرآن الكريم يملك «قدرًا رفيعًا، ومستوى عاليًا من البيان، تميَّز عن غيره، وتفرَّد بخصائص باين بها أسلوب البشر أجمعين»[3]، ولم يقصد لذاته، وإنَّما لما يحمله من إمكانات تعبيريَّة وغايات تأثيريَّة وأغراض متعدِّدة، تسهم في اكتشاف معنى أو استنباط حكم أو تقويم فكرة أو تغيير موقف، ممَّا يعني أنَّه لا يقف عند حدود المعنى القريب، بل يتجاوزه إلى معنى أبعد، يتناسب مع السياق الذي يرد فيه، والآفاق الواسعة التي ينفتح عليها، ويراعي أفهام المخاطَبين وكفايتهم المعرفيَّة والمنطقيَّة، وهذا يزيد من استمالتهم وقبولهم بالقضايا والمسائل التي يطرحها المجاز طرحًا مقنعًا ومؤثِّرًا.

وجاء تقسيم المجاز إلى «ضربَيْن: مجاز من طريق اللُّغة، ومجاز من طريق المعنى والمعقول»[4]، فالمجاز العقلي يقع في الإسناد، ويقوم على إسناد أمر إلى ملابس له غير ما هو له في الحقيقة، أمَّا المجاز اللُّغوي فيقع في الألفاظ، وينهض على نقلها من معناها اللُّغوي الحقيقي إلى معنى

---

[1] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ٢٣٢/١.

[2] الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنِّي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ٢٠٨/٢.

[3] التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، ص١٣١.

[4] أسرار البلاغة في علم البيان، ص٣٥٥.

آخر مجازي مراد في نطاق ما دلَّت عليه اللُّغة[1]، وكلاهما يسهم في استكناه الجوانب الحِجَاجيَّة التي تتضمَّنها السور المكِّيَّة.

وتتبلور دراسة هذا الفصل في ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: **حِجَاجيَّة المجاز العقلي**.

المبحث الثاني: **حِجَاجيَّة المجاز المرسل**.

المبحث الثالث: **حِجَاجيَّة الاستعارة**.

[1] ينظر: من بلاغة النظم القرآني، ص١٣٧.

المبحث الأول

حِجَاجيَّة المجاز العقلي

المجاز العقلي هو «إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأوُّل»[1]، ويتضمَّن طاقات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تسهم في إبلاغ المقاصد والأغراض، وتقريب الصورة من أفهام المتلقِّين، وتجعلهم أكثر قبولًا وتسليمًا بما يعرض عليهم من قضايا ومسائل.

ويبرز هذا اللون في السور المكِّيَّة، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف:٢٧]، وظهر المجاز في هذه الآية الكريمة محذِّرًا من خداع الشيطان لبني آدم أن يفعل بهم كما فعل بأبوَيْهم من قبل، إذ زيَّن لهم المعصية، فأخرجهما من الجنَّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه أسند الإخراج والنزع والإراءة إلى الشيطان، وهذا «مبني على التسامح في الإسناد بتنزيل السبب منزلة الفاعل... أن يجعل له غرض من تلك الأفعال، وهو أن يريهما سوآتهما ليتم ادعاء كونه فاعل تلك الأفعال المضرَّة، وكونه قاصدًا من ذلك الشناعة والفظاعة، كشأن الفاعلين أن تكون لهم علل غائيَّة من أفعالهم إتمامًا للكيد، وإنَّما الشيطان في الواقع سبب لرؤيتهما سوآتهما»[2]، ونزعهما لباسهما، وإخراجهما من الجنَّة؛ لأنَّه وسوس لهما فأوقعهما في المعصية، وهي الأكل من تلك الشجرة التي نهاهما الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف:١٩]، ولذا جاء الخطاب مشحونًا بحمولات حِجَاجيَّة تكشف عن أصل العلاقة بين سيِّدنا آدم –عليه السلام– والشيطان الملعون.

ويستمدُّ المجاز فاعليَّته من الاعتماد على السياق التاريخي، الذي تشكَّلت فيه هذه العلاقة العدوانيَّة القديمة، فالشيطان موغل في العداوة لآدم وبنيه، ومتربِّص بهم كل حين؛ لكي يوقعهم في المعاصي والمنكرات، ويبعدهم عن مواطن الخيرات والطاعات. وهذه العداوة مبدؤها

---

[1] الإيضاح في علوم البلاغة، ص٣٦.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٧٨/٨.

من الشيطان، ومنشؤها الحسد والكبر والبغضاء، بعد أن شرَّف الله آدم بأربع «تشريفات: خلْقه له بيده الكريمة، ونفْخه فيه من روحه، وأمْره ملائكته بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء»[1]، فحجَّة الشيطان تتمثَّل في أنَّه ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص:٧٦]، والنتيجة معصية الله وعدم الامتثال لأوامره، ولهذا ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ [ص:٧٧-٧٨].

إنَّ توظيف المجاز في قصَّة إغواء الشيطان لآدم وإخراجه من الجنَّة دليل قاطع على عداوته الأزليَّة، ممَّا يرسِّخ في الأذهان هذه المسألة، التي تستدعي التحذير من اتباعه والانقياد إليه؛ لأنَّه سبب في حدوث كل شر، والابتعاد عن كل خير.

وفي إثبات قدرة الله وعظمته برز المجاز في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس:٦٧]، ويؤكِّد أنَّه لا شريك له في تصريف الكون، يقلِّب الليل والنهار كيف يشاء، ويقدِّرهما بحكمته وتدبيره ورحمته، وفي ذلك آيات لقوم يسمعون.

وتكمن حِجَاجيَّة المجاز في أنَّه أسند «الإبصار إلى النهار، والنهار زمان يبصر فيه المبصرون، وإسناد الإبصار إليه يجعله قائدًا يقود الناس فيتحركون، ويبصرهم فيبصرون، ويصوِّر شدَّة الضياء الذي عمَّ الكون، فأبصرت الخلائق جميعًا بإبصار النهار»[2]، بخلاف الليل الذي يسكنون فيه بعد العناء والكد في طلب الرزق والمعاش. وفي هاتَيْن الآيتَيْن حجج دامغة ودلائل ساطعة على عظمة الله وقدرته في تدبير الكون وتيسير شؤون الخلق، وأنَّه وحده المستحق لإفراده بالألوهيَّة والعبوديَّة؛ لأنَّ كل شريك له عاجز وهالك، وهذه تذكرة وعظة لقوم يسمعون ويتفكَّرون.

ويكتسب المجاز مفعوله الحِجَاجي من الحياة الواقعيَّة، فالنهار والليل مظهران من المظاهر الكونيَّة المعهودة في كل يوم، ويمثِّل كل واحد منهما مرحلة زمنيَّة تحمل في طيَّاتها خصائص معيَّنة، تصبُّ في مصلحة الإنسان وتنظِّم حياته بكل تفاصيلها، وتوظيفهما في بيان قوَّة الله الكاملة وحكمته البالغة يساعد على تجلية قصديَّة الخطاب القرآني، الذي ينفي قضيَّة الشركاء

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، حقَّقه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: محيي الدين ديب مستو، راجعه: عبدالقادر الأرناؤوط وبشار عواد معروف، دار ابن كثير، دمشق، ط٢، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، ١/١١٣.

[2] من بلاغة النظم القرآني، ص١٤٢.

لله بتاتًا؛ وذلك لانفراده «بخصائص الألهيَّة التي منها الخلق والتقدير، وأنَّ آلهتهم انتفت عنها خصائص الألهيَّة، وقد حصل مع الاستدلال امتنان على الناس بجعل الليل والنهار على هذا النظام»[1] الدقيق، الذي يحتوي على تفاصيل كثيرة تتسم بالحكمة وبديع الصنع، ويعجز عن صنيع مثله الخلق كلهم، مهما بلغوا في مراتب الفكر والعلم والقوَّة، ممَّا يرسِّخ في الأذهان هذه الأطروحة المدعومة بالأدلَّة والبراهين، التي تقودهم إلى الإذعان والتسليم والامتثال لأوامر الله ونواهيه، ونفي الشريك عنه في مُلكه وصفاته وأفعاله، وإخلاص الأعمال والعبادات له وحده دون سواه.

إنَّ إعمال الفكر والتأمُّل في خلق الله سبيل إلى معرفته وإدراك وحدانيَّته وشكر نعمته، فالحجَّة (إثبات وجود الله من خلال خلقه، ونفي الشركاء عنه)، والنتيجة (مَن يتدبَّر خلق الله يدرك أنَّه منفرد فيها لا شريك له)، وهذا يزيد من درجة التأثير والإقناع، التي من شأنها تغيير الأفكار المناهضة من الشرك والعصيان إلى الإيمان والطاعة.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [يوسف:٤٨] جاء المجاز، في خضم تأويل يوسف -عليه السلام- رؤيا الملك، مبيِّنًا تقلُّب أحوال السنين من الخصوبة والنماء إلى الجدب والجفاف، وما ينبغي اتخاذه من التموين والادخار؛ لتجاوز آثار هذه التحوُّلات المؤلمة.

وترتكز محاجَّة المجاز على أنَّه أسند الأكل إلى السنين، وهي «لا تأكل شيئًا، وإنَّما يأكل الناس ما ادَّخروه فيها، فهو من باب (الإسناد إلى الزمان)»[2] الذي وقع فيه الفعل، وهذا يعطيه أهميَّة كبيرة؛ لأنَّه المؤثِّر الأساس في حياة البشر منذ الأزل. وقد رسم لهم يوسف الصدِّيق خطة رصينة بوحي من الله وإلهامه، تساعدهم على تفادي الأزمة الزراعيَّة التي سوف تحلُّ بهم من بعد تنعُّمهم في الخصب والخيرات. وفي هذا دلالة واضحة على صدق نبوَّته، وكمال علمه في حسن تعبير الرؤى، بعد أن أعلن الملأ عجزهم عن تأويلها، ولذا ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:٤٤]، فالحجَّة تظهر في (قدرة يوسف -عليه السلام- على تعبير رؤيا الملك العجيبة التي عجز عن تأويلها الملأ)، والنتيجة تتلخَّص في (صدق نبوَّته وتعبيره، وإرشادهم إلى أسباب النجاة من الشدَّة والهلاك).

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ١١/٢٢٧.

[2] الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص١٤٦.

وفاعليَّة المجاز تعتمد على استدعاء الفضاء الثقافي، إذ وظَّف ما يجري على ألسنة الناس من الإسناد إلى الزمان في سياق بيان مآلات رؤيا الملك، والغرض منه ترسيخ مشهد التحوُّل من الخصوبة إلى الجدب في عقول المتلقِّين؛ للتأثير فيهم وإقناعهم بأن يتخذوا السبل المنجية لهم من الجوع والفناء بطريقة عمليَّة، تقوم على «إبقاء ما فضل عن أقواتهم في سنبله؛ ليكون أسلم له من إصابة السوس، الذي يصيب الحب إذا تراكم بعضه على بعض، فإذا كان في سنبله دفع عنه السوس»[1]، وهذه الطريقة النموذجيَّة المبتكرة تعدُّ خارطة زراعيَّة مفيدة للبشريَّة قاطبة في إدارة شؤونها وأمورها.

والخطاب في الآية الكريمة أتى محمَّلًا بالإرشاد والتوجيه لكيفيَّة التموين والادخار، والحث على الاستكثار منه، بحيث يكون منهج حياة به تستقيم أمورها وتستمر، وتقاوم تقلُّبات الأيام والسنين، ممَّا يزيد من الاقتناع بضرورة إزالة الفكرة الخاطئة القائمة على (عدم الادخار)، وتبديلها بالفكرة الصحيحة المنبثقة من (أهميَّة الادخار والعمل به)، وهذا التوجيه الاقتصادي الحكيم يحمل مقصدًا ساميًا، يكمن في تثبيت قلب النبي محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- وأصحابه، فضلًا عن كونه درسًا عمليًّا يؤكِّد أنَّ الصبر على الابتلاء، والتوكُّل على الله، والأخذ بالأسباب والتخطيط السليم، كفيل بالوصول إلى الفرج والتمكين، كما حدث ليوسف -عليه السلام- بعد محنته.

وفي وصف حال الكافرين المكذبين برز المجاز في قوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾ [إبراهيم:٢٨]، ويبيّن المصير المؤسف الذي ينتهون إليه، من بعد كفرهم وتكذيبهم وعدم امتثالهم لأوامر الله، وتبديلهم دار النعيم والأمان بدار الجحيم والبوار[2].

والحجَّة تنهض على أنَّه أسند الإحلال إلى الذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا، وهذا بسبب سوء أعمالهم وطغيانهم «نتيجة لكفرهم، ومظهر كفرهم إطاعتهم أكابرهم بالكفر، في حين أنَّ الذي أحلَّ هؤلاء وهؤلاء دار البوار -على سبيل العقوبة والمجازاة- هو الله تعالى جلَّ شأنه... والكفر -بحد ذاته- ليس بقادر ولا متصرف ولا متمكن، ومع هذا فهو السبيل إلى دار البوار بالقوَّة والفعل والعيان، وإن كان المحدث للأمر غيره دون ريب، فالمراد اجتنابه، والابتعاد عن دائرته،

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٢٨٧/١٢.

[2] البوار: الهلاك. لسان العرب، مادَّة: (بور)، ١٧٨/٢.

وإحلال الشكر محله»[1]؛ لأنَّ فيه تدوم النعم والخيرات وتزيد، بخلاف الكفر الذي فيه تزول النعم والخيرات وتنعدم، وينعكس أثرهما على مصير أصحابها، فالشاكرون يتنعَّمون في خيرات الدنيا ونعيم الآخرة، أمَّا الكافرون فإنَّ مصيرهم جهنم يصلونها وبئس القرار، حتى لو أمهلهم الله في الدنيا فلن يهملهم ويغفل عنهم، وإنَّما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار؛ ليجزيهم بما كانوا يعتقدون ويفعلون.

ومفعول المجاز الحِجَاجي يأتي من تقرير حقيقتَيْ الشكر والكفر، ورصد العلاقات المتضادَّة بينهما، وتعميق أثر كل واحد منهما في نفوس المخاطَبين؛ للتمييز بين طريق الحق والخير (الشكر) وطريق الباطل والشر (الكفر)، ممَّا يدفعهم إلى الاقتناع والتسليم بأهميَّة الاستزادة من الشكر والحمد، والابتعاد عن الكفر والجحود؛ لأنَّ في الشكر بركة وزيادة وسعادة، وفي الكفر حسرة وندامة وتعاسة.

وأسهم المجاز في الكشف عن مضمرات الخطاب القرآني، الذي ينطوي على التحذير من نكران النعم وعدم شكرها، وأراد من خلال توظيف أحوال الكافرين أن يقدِّم نموذجًا معلومًا لدى المتلقِّين بمثابة الدليل؛ لكي يقوِّي حضور فكرة الشكر في أذهانهم، ويجعلها أكثر تأثيرًا وفعاليَّة من فكرة الكفر، وذلك لترسيخ الأثر الطيِّب، وإبعاد الأثر السيء، وهذا يعينهم على استيعاب جدليَّة الشكر والكفر.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص:٤] جاء المجاز مبيِّنًا ما وصل إليه فرعون في الأرض من طغيان وتكبُّر وعلو، إذ صيَّر أهلها شيعًا وطوائف متفرِّقة، يستضعف طائفة منهم، يذبِّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إنَّه كان من المفسدين المعتدين.

وتظهر الحجيَّة في أنَّه أسند الذبح والاستحياء إلى فرعون؛ «لأنَّه هو الآمر به، ولولاه ما حدث، وما الجند المنفذون سوى آلات مسخَّرة تفعل ما تؤمر به»[2] دون تفكير، وهذا يؤكِّد أنَّ فرعون طغى واستكبر في الأرض، وأتى بما لم يأتِ به أحد من قبله أو بعده، فقال: أنا ربكم

---

[1] مجاز القرآن: خصائصه الفنيَّة وبلاغته العربيَّة، محمد حسين علي الصغير، دار المؤرِّخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ص١٣٥.

[2] من بلاغة القرآن، ص١٧١.

الأعلى الذي لا يستعلي عليه رب، فانتقم الله منه بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ ليجزيه بما كان يقول ويفعل، ويجعله عبرة وموعظة ونكالًا لأمثاله من الكافرين المتمردين؛ حتى يردعهم عن تكبُّرهم وكفرهم وطغيانهم، ويعيدهم إلى جادَّة الصواب والهدى، فالحجَّة تكمن في (استكبار فرعون عن اتباع آيات الله، وطغيانه في الأرض)، والنتيجة تتجلَّى في (عقاب الله الشديد له في دنياه وآخرته).

ويكتسب المجاز فاعليَّته من الصورة الذهنيَّة التي رسمها القرآن الكريم للأمم السابقة، إذ وظَّف (قصَّة فرعون) في الحديث عن أثر التكبُّر عن أوامر الله وعدم الامتثال لها، وأراد أن يقدِّم من خلال هذه القصَّة برهانًا معلومًا لدى المخاطَبين، يثبت فيه قضيَّة التوحيد والإيمان، ويدحض فيه قضيَّة الشرك والكفر، ويفتح لهم آفاقًا من التفكير والتذكير والاعتبار بما جرى للطاغية فرعون من عقوبة وهلاك؛ بسبب ما كان منه من ذبح الأبناء واستحياء النساء، وبذلك يتحقَّق أحد أمرَيْن: إمَّا أن يردع الكافر عن كفره وضلاله، وإمَّا أن يزيد المؤمن إيمانًا ونورًا.

إنَّ معرفة نتيجة الاستكبار عن آيات الله والطغيان في الأرض كفيلة بإقناع الكفَّار المستكبرين والتأثير فيهم، وتغيير أفكارهم ومواقفهم من الكفر والعصيان إلى الإيمان والطاعة، وترسيخ الأطروحة القائمة على أنَّه (لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، ورفض كل ما يتعارض معها شكلًا ومضمونًا.

وفي خضم حديث موسى مع ربِّه ظهر المجاز في قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص:٣٤]، ويبيِّن أنَّه يريد أن يرسل معه أخاه هارون ردءًا[1] له؛ لأنَّه أفصح منه لسانًا، ويستطيع الإبانة عن الحجج والبراهين التي يجادل بها فرعون وملأه.

والمحاجَّة تنهض على أنَّه أسند التصديق إلى هارون، وهذا ينسجم مع ما يصبو إليه موسى، وهو أن يصدِّقه القوم فيما أتى به من البيِّنات، ولا يتأتَّى تصديقهم إيَّاه إلا بعون ومؤازرة من أخيه هارون، الذي بقدرته في الحِجَاج والإقناع يكون سببًا في التصديق، وليس الغرض «بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنَّما هو يلخص بلسانه الحق، ويبسط القول فيه، ويجادل به الكفَّار كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة،

[1] الردء: العون. لسان العرب، مادَّة: (ردأ)، ١٣١/٦.

فذلك جار مجرى التصديق المفيد كما يصدق القول بالبرهان»[1]، ممَّا يساعد على تفنيد دعواهم الباطلة المبنية على تكذيب دعوة الله والاستكبار عنها، ودحض حججهم الواهية بالحجَّة الواضحة والبيِّنة القاطعة، وتأكيد أنَّ دعوة الحق هي ما أرسل الله بها موسى وهارون -عليهما السلام- داعيَيْن إلى سبيل الرشاد والهداية.

ويستقي المجاز مفعوله الحِجَاجي من الاعتماد على الفضاء الأسري المتمثِّل في علاقة الأخ بأخيه، وتجسِّد هذه العلاقة القيم الأصيلة والأخوَّة الصادقة، التي فيها الأخ يشتدُّ ويقوى بأخيه، ويعينه على مواجهة الصعوبات والأعداء، وما توظيف (قصَّة موسى وهارون مع فرعون) في سياق بيان الحق والباطل إلا دليل على ذلك، وترسيخ لمبدأ التعاون والتكاتف، ودعوة إلى التمسُّك بالحق والنور، والابتعاد عن الباطل والظلام.

والخطاب في الآية الكريمة جاء مشحونًا بحمولات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تكشف عن الأساس الفاسد الذي بنى عليه فرعون عقيدته، وأشاعها بين قومه، حتى وصل إلى مستوى عالٍ من الكبر والطغيان والعصيان، وقد أرسل الله إليه النبيَيْن موسى وهارون -عليهما السلام- بالبرهان المبين؛ ليدعواه إلى توحيد الله والإيمان به، ويردعاه عن كفره وعتوه وطغيانه، ولكنَّه استكبر وعاند وافترى عليهما دون مبرِّر مقنع، فأقام الله عليه الحجَّة، وأحلَّ به غضبه وسخطه، ليكون لمن خلفه آية وعبرة. وهذا الصراع صراع أزلي بين الحق والباطل، ومهما جرى بينهما من أحداث فإنَّ الحق منتصر لا محالة، ويتغيَّا مسألة رئيسة تدور حول إثبات وحدانيَّة الله وربوبيَّته، ونفي الشريك عنه، وهذه قضيَّة محوريَّة من قضايا التوحيد والشرك.

وفي وصف حال الكافرين المستهزئين برز المجاز في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الجاثية:٣٥]، ويفصح عن العذاب الأليم الذي حلَّ بهم، من بعد اتخاذهم آيات الله وحججه المبينة هزوًا[2] ولعبًا، فلا يخرجون منه ولا هم يستعتبون[3].

---

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٨٠١/٢٠.

[2] الهزو: السخرية. لسان العرب، مادَّة: (هزأ)، ٥٨/١٥.

[3] ولا هم يستعتبون: لا يطلب منهم أن يرضوا ربهم بالتوبة والطاعة؛ لأنَّها لا تنفع يومئذ. تفسير الجلالين، جلال الدين المحلِّي وجلال الدين السيوطي، راجعه وأعدَّه للنشر: محمد محمد تامر، دار الآفاق العربيَّة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص٥٣٤.

وتكمن حِجَاجيَّة المجاز في أنَّه أسند التغرير إلى الحياة الدنيا؛ لأنَّها جامعة لأسباب الغرور كلها، وقد أدَّت بالكفَّار الجاحدين إلى أنَّهم «قاسوا أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، فظنُّوا أنَّ الله لا يحيي الموتى، وتطرَّقوا من ذلك إلى إنكار الجزاء في الآخرة على ما يعمل في الدنيا، وغرَّهم أيضًا ما كانوا عليه من العزَّة والمنعة، فخالوه منتهى الكمال، فلم يصيخوا إلى داعي الرشد وعظة النصح»[1]، وأعرضوا عن آيات الله البيِّنات سخرية وتهكمًا، وانشغلوا بالحياة الفانية عن الحياة الباقية، وتركوا العمل والاستعداد ليوم الحساب، فكانت نهايتهم الخلود في نار جهنم، فلا مأوى لهم غيرها، ولا منجي لهم من غرامها، ولا خروج لهم منها، ولذا «التفت من الخطاب إلى الغيبة عندما انتهى إلى هذه المثابة التي صاروا إليها، فهم جديرون بإسقاطهم من رتبة الخطاب؛ احتقارًا لهم، واستهانة بهم»[2]، وتوبيخًا لهم على استهزائهم وتكذيبهم، وتحقيقًا لقاعدة (الجزاء من جنس العمل)، حيث نسوا لقاء الله فنسيهم، وكانوا هم الخاسرين.

وفاعليَّة المجاز تعتمد على استحضار الفضاء الديني، الذي يستمدُّ براهينه الدامغة وأدلَّته الساطعة من التشريع الإلهي، إذ وظَّف أحوال الحياة الدنيويَّة وأحوال الحياة الأخرويَّة، وأراد أن يؤكِّد قضيَّة عقديَّة ينكرها الكافرون، وهي (البعث والجزاء يوم القيامة)، وترتكز حججهم الزائفة على قياس باطل بين الحياتَيْن، والركون إلى ملذَّات الدنيا وزخارفها، وهذا قادهم إلى التولِّي والصدود عن اتباع آيات الله والاستهزاء بها، والانصراف عن تدبُّرها، ولو أنَّهم نظروا فيها؛ لعرفوا حقيقة الدنيا الزائلة التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وحقيقة الآخرة الباقية التي فيها الجنَّة والنَّار، وما دار الفناء إلا وسيلة للوصول إلى دار البقاء.

إنَّ الكشف عن نهاية الكفر والإعراض والسخرية دافع إلى التأثير في المتلقِّين وإقناعهم بأن يستجيبوا لداعي الهدى ويؤمنوا به، ويبتعدوا عن الاغترار بالملهيات والملذَّات، ويقدِّموا لحياتهم الأخرويَّة ما ينفعهم من الأعمال الصالحة، ممَّا يسهم في إزالة الفكرة السائدة المنبثقة من (التمسُّك بالدنيا، والافتتان بها، وعدم الإيمان بالآخرة)، وتبديلها بالفكرة الصائبة القائمة على أنَّ (الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء)، وهذا تحوُّل عقدي محمود يجنِّبهم الوقوع في العذاب الأليم، ويقرِّبهم من الفوز بجنَّات النعيم.

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٣٧٦/٢٥.

[2] إعراب القرآن الكريم وبيانه، ١٥٦/٧.

وفي قولـه تعـالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴿٣٣﴾﴾ [ق:٣٣] أتـى المجـاز واصفًا حال مَن خشي الله في سرِّه، وأقبل عليه بالطاعات والعبادات، وابتعد عن المنكرات والمعاصي، فله يوم القيامة الجنَّة يدخلها بسلام خالدًا فيها، ذلك ما يوعد به كل مَن جاء بقلب منيب.

وتتجلَّى المحاجَّة في أنَّه أسند الإنابة[١] إلى القلب[٢]؛ لأنَّه السبب الرئيس فيها والباعث عليها، ويعدُّ المحرِّك الأساس لكل جوارح الإنسان نحو الصلاح أو الفساد، ويرتكز عليه مدار الأعمال، فإن صلحت أنجت أصحابها من النَّار، وإن فسدت أوقعت أصحابها في النَّار؛ «لأنَّهم وإن قصَّرت نفوسهم لم يكن لها صدق القدم، فلهم الأسف بقلوبهم وصدق الندم»[٣]. ويستدعي الحديث عن الجنَّة والنَّار مسألة محوريَّة تدور حول (البعث والحساب)، ممَّا يستوجب الرد على منكريها الجاحدين، وتفنيد دعواهم الباطلة بالحجج المقنعة والأدلَّة القطعيَّة، وإثبات وقوعها في الآخرة بما لا يدع مجالًا للشك والظن، وهذه القضيَّة من قضايا العقيدة الرئيسة الواردة في القرآن الكريم والسنة النبويَّة، وتوظيفها في هذا السياق «تثبيتًا للإيمان بالبعث وتقوية له، وتحذيرًا وتخويفًا من عمل أهل النَّار، وترغيبًا في اقتفاء آثار وأعمال المؤمنين الذين يدخلون الجنَّة»[٤] خالدين فيها.

ويأتي مفعول المجاز الحِجَاجي من الاعتماد على الوسائل الإدراكيَّة لدى الإنسان، وتتمثَّل في القلب، إذ تبيَّن الدور القيادي الذي يضطلع به من بين سائر الجوارح، ولا يقتصر تأثيره ودوره على الأعمال التي تقوم بها الجوارح فحسب، وإنَّما يمتدُّ إلى تحديد مسيرة حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، فإن كان صالحًا منيبًا صلحت الحياة في الدارَيْن، وإن كان فاسدًا آثمًا فسدت الحياة فيهما، وهذه الحقيقة المعنويَّة تتوافق مع الحقيقة الحسيَّة للقلب[٥]؛ لأنَّه إذا توقَّف عن العمل توقَّف الجسد كله، وأصبح هامدًا لا حياة به ولا يستفاد منه، ولذا خصَّ القلبَ بالذكر

---

[١] الإنابة: الرجوع إلى الله بالتوبة. لسان العرب، مادَّة: (نوب)، ٣٧٨/١٤.

[٢] وفي الحديث أنَّ رسول الله قال: «... ألا وإنَّ في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم الحديث: ٥٢، ص٢٠.

[٣] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، خرَّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، ٢٦٢/٧.

[٤] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٦٤١/١٣.

[٥] ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهَّرة، ص١٥١-١٥٣.

دون غيره تأكيدًا لدوره المركزي حسيًّا ومعنويًّا، وإقامة الحجَّة على الإنسان بشهادة عضو منه بعد بلوغه الحق المبين.

إنَّ إطلاق الفكر والتأمُّل في طريقة عمل القلب وتأثيره على سائر الجسد سبيل إلى معرفة وإدراك قدرة الله وعظمته في خلقه، والإنابة إليه في كل حين، وهذا يزيد من الاقتناع والتسليم بأنَّ القلب معقل اليقين الذي تؤول إليه الأعضاء كلها، وسبب في دخول الجنَّة أو النَّار، ممَّا يقتضي وجوبًا الإقرار بالبعث والنشور بعد الموت، وإبطال الخزعبلات الواهية والأوهام الزائفة التي يتبنَّاها المنكرون دون دليل مقنع.

وفي صدد الحديث عن أحداث يوم القيامة ظهر المجاز في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ [الذاريات:٥]، ويؤكِّد أنَّ الوعد الذي كانوا يوعدون به واقع لا ريب فيه، وستجزى كل نفس بما كسبت، فإن عملت خيرًا فلها الثواب وحسن المآب، وإن عملت شرًّا فلها العقاب وبئس المصير.

وترتكز محاجَّة المجاز على أنَّه أسند الصدق إلى ما يوعدون؛ لأنَّ اليوم الآخر ثابت التحقُّق لا جدال فيه. وقد وقعت هذه الآية الكريمة جوابًا للقسم الوارد في الآيات السابقة لها في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾ [الذاريات:١-٤]، وأراد أن يقدِّم برهانًا واضحًا من خلال القسم بهذه «المظاهر الكونيَّة المرئيَّة وغير المرئيَّة العجيبة التأثير على أنَّ ما وُعِد به الناس من الحشر إلى الله تعالى، ووقوع المعاد، لصادق غير كاذب، وأنَّ الجزاء من الثواب والعقاب لكائن حاصل لا محالة»[1] مهما أنكره الكافرون. وفي هذا دلالة قاطعة على حدوث ما يوعدون به في الآخرة، وبطلان حججهم ومزاعمهم الضعيفة المبنية على إنكار أصل من أصول الدين، وهو (البعث)، ويعود ذلك إلى «أنَّهم مشدودون إلى الحسيَّات، ولا يعملون عقولهم فيما خلق الله، ولا فيما وراء الحس من غيب مكنون، ثم إنَّ جهلهم بالله تعالى وبصفاته الحسنى من علم وقدرة وقهر، جعلهم في تحجُّر وجمود في التصوُّر ورفض للغيب؛ لأنَّهم وقفوا أمام أستاره عاجزين، فهم يرون البعث أمرًا عسيرًا بعد الموت، وتفرُّق الأشلاء والذرات، وتحوُّلهم عظامًا نخرة»[2]، ولم يدركوا أنَّه أمر سهل ويسير

---

[1] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٩/١٤.

[2] الأساليب الإنشائيَّة وأسرارها البلاغيَّة في القرآن الكريم، صبَّاح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص١٦٢.

على الله كما أخبر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق:٤٤]؛ لأنَّ الذي خلق كل شيء من العدم، ليس بعاجز عن إعادة الخلق من جديد.

ويستمدُّ المجاز فاعليَّته من الاعتماد على تقرير مسألة البعث والحساب، وترسيخ براهينها العقليَّة الدامغة في أذهان المخاطَبين؛ للتأثير فيهم وإقناعهم بضرورة الإيمان باليوم الآخر والاستعداد له؛ لأنَّه لا يصح الدين إلا باكتمال أصوله التي تتضافر مع بعضها؛ لتحقيق مقاصد الشريعة الإسلاميَّة، وإزالة فكرة (الكفر والإنكار) الخاطئة، وتبديلها بفكرة (الإيمان والطاعة) الصائبة، حيث يترتَّب عليها سلامة المعتقد والقصد، والثبات أمام تقلُّبات الأحوال الدنيويَّة، والإكثار من الأعمال الصالحات؛ بغية الحصول على رضوان الله وغفرانه، والفوز في جنَّة عرضها السماوات والأرض.

ويتأسَّس الإسناد المجازي في الخطاب القرآني عن طريق الإخبار بصدق وقوع البعث والجزاء، والغرض منه تأكيد هذه القضيَّة العقديَّة المهمَّة، وتعميق أثرها في النفوس البشريَّة، والتذكير بوجوب الإيمان بها، والابتعاد عن تكذيبها وجحودها، وهذا يسهم في إقامة الحجَّة على المنكرين المكذِّبين، وحثِّ المؤمنين على العمل الصالح والترغيب فيه، والاستعداد لذلك اليوم العظيم الذي يجعل الولدان شيبًا، ولا ينفع فيه مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم من الشرك والضلال.

وفي وصف أحوال الآخرة برز المجاز في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الواقعة:٣]، ويبيّن المآلات التي ينتهي إليها الناس، بعد انتقالهم من حياتهم المؤقتة إلى حياتهم الأبديَّة، إذ يتحقَّق فيها الوعد الذي كانوا به يوعدون من العقاب والثواب، فيخفض الكفَّار العاصين إلى أسفل سافلين في جهنم، حتى وإن كانوا في الدنيا منعَّمين، ويرفع المؤمنين إلى أعلى عليين في جنَّات النعيم، حتى وإن كانوا في الدنيا بائسين.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه أسند الخفض والرفع إلى الواقعة[1]، وهي «لا تخفض ولا ترفع، وإنَّما الخافض والرافع هو ربُّ العزَّة والجلال»[2]، الذي يبدأ خلق كل شيء من لا شيء على غير مثال سابق، ويعيده بعد الفناء كما بدأه من العدم. وفي هذا أمران: أولهما: بيان قدرة الله وعظمته في

[1] الواقعة: اسم للقيامة كالآزفة والحاقَّة وغيرها، سمّيت بذلك؛ لتحقق كونها ووجودها. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ١٤/٢٥٩.

[2] الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص٣٣٣.

الخلق والإحياء والإعادة، وأنَّه وحده المستحق لإفراده بالألوهيَّة والعبوديَّة. وثانيهما: إثبات حصول البعث والحساب بعد الموت. وكلاهما ينقض دعوى منكري البعث والجزاء، ودعوى منكري وجود الله تعالى، ويرد عليهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع المستمدَّيْن من التشريع الإلهي، الذي يخاطِب كفاية الإنسان المعرفيَّة، وقدراته العقليَّة، ومدركاته الحسيَّة، ويجعل الحق بيِّنًا لا شك فيه البتَّة، ويدعو إلى سبيل الهدى وموجبات دخول الجنَّة، وترك الكفر وموجبات دخول النَّار.

ويكتسب المجاز مفعوله الحِجَاجي من الاعتماد على الفضاء الغيبي، إذ وظَّف أحوال يوم القيامة في سياق الحديث عن مصير الإنسان الأبدي إمَّا أن يكون في الجنَّة مرتفعًا، وإمَّا أن يكون في النَّار مخفوضًا، وأراد أن يرسِّخ في الأذهان مفهومَيْن: أولهما: (مفهوم الرفع) الذي يتحقَّق بالإيمان والتقوى والعمل. وثانيهما: (مفهوم الخفض) الذي يكون بسبب الشرك والمعاصي والتكذيب. وهما نتيجتان متضادَّتان للمعتقدات والمقاصد والأعمال، وتقودان إلى ردع المشرك عن شركه وضلاله، وزيادة إيمان المؤمن ويقينه.

وينطوي الإسناد المجازي في هذه الآية الكريمة على طاقات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تكشف عن النهاية الحتميَّة التي تجتمع فيها البشريَّة جمعاء عند العزيز الجبَّار، الذي يحكم بين عباده بالعدل فيما اختلفوا فيه، ويجزي المحسن بإحسانه وعمله الصالح، والمسيء بإساءته وعمله السيء، وهذا يدفع الإنسان إلى الاقتناع بالتزوُّد من الصالحات المنجيات من العذاب الأليم، والابتعاد عن السيئات الموقعات في العذاب الأليم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة:٢١] جاء المجاز مبيِّنًا حال مَن ثقلت موازينه يوم العرض الأكبر، وأوتي كتاب أعماله بيمينه، وابتهج بذلك الفوز ابتهاجًا شديدًا، ممَّا أدَّى به إلى قراءة كتابه المملوء بالخيرات والحسنات على رؤوس الأشهاد، والعيش عيشة هنيئة يرضى بها في جنَّة عالية بين قطوفها الدانية، من بعد ظنِّه أنَّه ملاقٍ حسابه وعذابه، ولكن هذه رحمة الله ومغفرته لعباده المؤمنين.

والحجَّة تقوم على أنَّه «أسند الرضا إلى العيشة؛ لتلبُّسه بها من حيث وقوعه عليها، ويدل هذا التجوُّز على عظم النعيم الذي أعدَّه الله للمؤمنين في الجنَّة، كما يشعر بكمال الرضا والألفة، وبدوام السعادة وبقائها، فالمؤمن يألف عيشته، وهي تألفه، ويحبُّها وتحبُّه، وما بني على

الألفة والمحبَّة والرضا يدوم ويبقى»[1] أثره خالدًا لا يمحى. ويمثِّل ذكر أحوال الآخرة في القرآن الكريم دليلًا واضحًا على صدق حدوث الإحياء بعد الموت والجزاء يوم الموقف العظيم، فمَن آمن بالله وعمل صالحًا، فليبشر بالنجاة من نار جهنم حاملًا كتابه بيمينه، ومَن كفر بالله وأعرض عن سبيل الهداية، فليحمل كتابه بشماله مستقرًّا في نار جهنم، وهذا يدحض بجلاء دعوى الكافرين المكذِّبين الذين يرون أنَّه لا بعث ولا حساب بعد الرحيل عن الحياة الدنيويَّة، وغرَّهم الحال الذي كانوا عليه من القوَّة والعزَّة والبذخ، ولذا أصبحت مبلغ علمهم، وأكبر همهم، وغاية رغبتهم، ولم يقدِّموا شيئًا من الأقوال والأفعال التي تنفعهم في حياتهم الأخرويَّة، وتنجيهم من العذاب الشديد.

وفاعليَّة المجاز تأتي من تقرير حقيقة الآخرة، وترسيخ الإيمان بها وتعميقه في عقول المتلقِّين؛ للتأثير فيهم وإقناعهم بأنَّ الدنيا زائلة لا محالة مهما ازدانت بزخارفها وملذَّاتها وكثرة متاعها، وأنَّ الذي يبقى للإنسان بعد رحيله عنها ما قدَّمه فيها من أعمال صالحة خالصة لوجه الله تعالى وحده دون سواه، ممَّا يؤدِّي إلى تأسيس مفهوم جديد مقنع، وهو (أنَّ عمل الدنيا متبوع بجزاء الآخرة)، ويستند إلى حجج دامغة وبراهين قاطعة مستوحاة من الخطاب القرآني، الذي يسهم في تحقيق أصول العقيدة الإسلاميَّة.

إنَّ معرفة ما ينتظر المؤمن في اليوم الآخر كفيلة بردع الكفَّار المستكبرين عمَّا يقولون ويفعلون، وتغيير أفكارهم الضالة ومعتقداتهم الباطلة من الكفر والعصيان والاكتفاء بدار الفناء إلى الإيمان والطاعة والاستعداد لدار البقاء، وهذا يساعد على تكثيف حضور هذه الأطروحة التي تتمحور حول بيان (النعيم الذي أعدَّه الله للمؤمنين في الجنَّة)؛ نتيجة (توحيدهم له، وإيمانهم به، وعبادتهم الخالصة).

وفي قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ [المزمل:١٧] ظهر المجاز محذِّرًا المشركين من الاستمرار في الشرك والتكذيب؛ لأنَّهما يمنعان من اتقاء أهوال ذلك اليوم العظيم، الذي من أبرز مظاهره أنَّه يجعل الولدان الصغار شيبًا، ولا ينفع فيه مال ولا بنون إلا مَن أقبل على الله، وآمن به، وامتثل لأوامره، واجتنب نواهيه، وتمسَّك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

---

[1] من بلاغة النظم القرآني، ص١٤٧.

وتكمن حِجَاجيَّة المجاز في أنَّه أسند يجعل الولدان شيبًا إلى اليوم؛ لأنَّه «زمن الأهوال التي تشيب لمثلها الأطفال، والأهوال سبب للشيب عرفًا»[1]، وسر هذه النسبة يتجلَّى في عظمة هذا اليوم، حيث إنَّ المخلوقات كلها مطيعة لله تعالى، وأنَّ قدرة الله التي تقول للشيء: كن فيكون، تجعل امتثال هذا اليوم، وما فيه من تمثُّل في إظهار قدرة الله -جلَّ جلاله- كأنَّه هو الفاعل للأمر. وقد سبق تهديد الكفَّار وتوعُّدهم استحضار قصَّة فرعون مع سيِّدنا موسى -عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المزمل:١٥-١٦]، وأراد من خلال هذه القصَّة أن يقدِّم نموذجًا حيًّا معلومًا لدى المشركين بمثابة البرهان المبين، الذي يحملهم على التذكير والعظة والاعتبار بما جرى للطاغية فرعون عندما عصى أمر الله، وطغى في الأرض واستكبر، فأخذه أخذًا وبيلًا، وهذا يؤكِّد المصير الحتمي لكل مَن كفر بآيات الله وكذَّبها، إذ ليس هناك ما يمنعه من اتقاء الأهوال المخيفة والعذاب الأليم في اليوم الموعود.

ويأتي مفعول المجاز الحِجَاجي من توظيف المألوف (ظهور الشيب على الكبار) في مكان غير المألوف (ظهور الشيب على الصغار)، وهو «مثل في الشدَّة، يقال: في اليوم الشديد يوم يشيب نواصي الأطفال، والأصل فيه أنَّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب»[2]، وكأنَّه متقدِّم عن عمره الطبيعي، وكذلك الحال يوم القيامة يشيب الأطفال من شدَّة الهول والرعب الذي يمرُّ بهم، ويصبح الصغار فيها مثل الكبار، ممَّا يستدعي تقرير قضيَّة (البعث والحساب)، وتفنيد دعوى منكريها العاصين، والرد عليهم بالحجج المقنعة والأدلَّة القطعيَّة، وإثبات وقوعها في الآخرة، وإزالة فكرة الكفر والتكذيب المهلكة من الأذهان، واستبدالها بفكرة الإيمان والتصديق المنجية؛ لأنَّها أكثر تأثيرًا وفعاليَّة من الفكرة السابقة.

والخطاب في الآية الكريمة مشحون بحمولة إقناعيَّة وحِجَاجيَّة، تقود إلى تجلية نتيجة الشرك والنكران في يوم الجزاء، حيث تهوي بصاحبها في الدرك الأسفل من النَّار، وتحرمه من دخول الجنَّة التي عرضها السماوات والأرض، وهذا يدفع إلى تحريك كوامن النفوس وإيقاظها من الغفلة والتمادي في العصيان، وتنفير المنكرين الجاحدين من شركهم وتكذيبهم وإنكارهم، وتغيير مواقفهم غير المبرَّرة من الصدود عن الله إلى الإقبال عليه، وتعزيز مكانة المؤمنين المخلصين

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ١٥/٢٧٥.

[2] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٢٩/١١٥٢.

الذين امتثلوا لأوامر الله ونواهيه، وأكثروا من الأعمال الصالحة والعبادات الخالصة؛ بغية نيل رضوانه ورحمته ومغفرته، والفوز يوم لقائه بالنعيم الذي أعدَّه لهم في الجنَّة، فالحجَّة تتمثَّل في (أنَّ الكافرين إذا استمرَّوا في كفرهم بآيات الله واستكبارهم عنها، ولم يعودوا إلى الحق بعد بلوغهم إياه)، تكون النتيجة (عدم اتقاء أهوال ذلك اليوم العظيم الذي يجعل الولدان شيبًا، ولهم العذاب الشديد).

وفي خضم الحديث عن قدرة الله وعظمته ورد المجاز في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾ [النبأ:١٦]، ويبيّن عجائب مخلوقاته وبديع صنعه الذي أتقن كل شيء، ويؤكِّد أنَّه لا شريك له في الخلق والتدبير والتسخير، يصرِّف الأمور كيف يشاء، بيده مقاليد السماوات والأرض، ولا يعجزه شيء في الكون مهما كان، يبدأ خلق كل شيء من العدم، ثم يعيده بعد الفناء كما بدأه، وفي ذلك آيات لقوم يتفكَّرون.

والمحاجَّة تنهض على أنَّه أسند الألفاف[1] إلى الجنَّات، وبينهما ملابسة مكانيَّة؛ لأنَّ «الأشجار لا يلتفُّ بعضها على بعض في الغالب إلا إذا جمعتها جنَّة»[2]، وهذا مظهر من مظاهر النعم في الحياة الدنيويَّة التي أنعم الله بها على الناس، والموجبة لشكره وحمده والثناء عليه، ويلمح من خلالها إلى التذكير بجنَّات الآخرة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأعدت للصالحين[3]. وهذه الخلائق العجيبة قد أبدع الخالق في خلقها وصنعها، وتدل على كمال قدرته وقوَّته، ونفاذ إرادته ومشيئته، وتمام علمه وحكمته ورحمته، وتؤدِّي إلى تأكيد حدوث الغيبيَّات المخبر بها الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- التي من شأنها ردع المكذِّبين الضالين عن كفرهم وجحودهم، وتغيير قناعاتهم ومبادئهم من الضلالة والشرك والتكذيب إلى الهدى والإيمان والتصديق، وإعادتهم إلى جادَّة الصواب والاستقامة، وجعلهم أكثر قربًا إلى مواطن الخير.

ويكتسب المجاز فاعليَّته من الاعتماد على مشاهَدات الحياة الواقعيَّة، إذ وظَّف مثالًا حيًّا حسيًّا من نعيم الدنيا الذي لا يضاهي شيئًا من نعيم الآخرة، والغرض منه الرد على المشركين

---

[1] الألفاف: الأشجار يلتف بعضها ببعض. لسان العرب، مادَّة: (لفف)، ٢١٧/١٣.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٢٧/٣٠.

[3] ينظر: صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب قوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة:١٧]، رقم الحديث: ٤٧٧٩، ص٧٨٦.

المنكرين، وإثبات قدرة الله «على البعث والمعاد والحشر والنشر من خلال الإتيان بما هو مشاهَد معاين لهم، وهو إيجاد عجائب المخلوقات، والقدرة على إيجاد هذه الأمور أعظم من القدرة على الإعادة»[1]، وهذا يسهم بجلاء في دحض دعواهم الباطلة بالبراهين الساطعة والدلائل القاطعة بما لا يدع مجالًا للشك والتوهُّم، وإقامة الحجَّة عليهم بعد وضوح الحق الحقيق بالاتباع، والهادي إلى سواء السبيل.

ويتأسَّس الإسناد المجازي في هذه الآية الكريمة عن طريق تقريب صورة جنَّات الآخرة إلى أذهان البشر بتوظيف صورة جنَّات الدنيا؛ للتأثير فيهم وإقناعهم بأنَّ توحيد الله والإيمان به من الطرق الموصلة إلى دخول هذه الجنَّات، وأنَّ الكفر بالله والشرك من الطرق المبعدة عن دخول هذه الجنَّات، وبينهما فرق شاسع وبون واسع في المعتقد والقول والعمل، فالإيمان إقرار وتصديق، أمَّا الكفر فهو جحود وتكذيب.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النازعات:١٢] أتى المجاز واصفًا حال الكافرين الخاسرين، الذين لم يؤمنوا بما أنزل الله العظيم من آيات الكتاب المبين، فكانوا إلى الخذلان والحرمان أقرب، وعن الفوز والفلاح أبعد؛ لأنَّهم كذَّبوا الدعوة الإلهيَّة، وأنكروها أشد الإنكار، ولم يقدِّموا شيئًا من الأعمال الصالحات التي تنفعهم يوم البعث والنشور، وتنجيهم من العذاب الأليم.

وترتكز محاجَّة المجاز على أنَّه أسند الخسران إلى الكرَّة[2]، والخاسرون في الحقيقة هم أصحابها؛ لأنَّهم «استبعدوا أن يبعثهم الله، ويعيدهم بعد ما كانوا عظامًا نخرة، جهلًا منهم بقدرة الله، وتجرؤا عليه»[3]، واستهزاء بأصل من أصول العقيدة الإسلاميَّة، وهو الإيمان باليوم الآخر، وهذا كفر آخر امتداد لكفرهم السابق الذي يدور حول إنكار البعث، ويؤكِّد أنَّهم قد وصلوا إلى أعلى درجات العصيان والنكران، وأوغلوا في أوحال الظنون والأوهام، ولذا ردَّ الله عليهم، وأفحمهم، وأبطل حججهم الضعيفة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات:١٣-١٤]، وبيَّن لهم أنَّ الأمر يسير، وليست تلك الكرَّة صعبة عليه، وما

---

[1] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ١٥/٣٧٥.

[2] الكرَّة: الكَرُّ: الرجوع... والكَرَّةُ: البعث وتجديد الخلق بعد الفناء. لسان العرب، مادَّة: (كرر)، ١٣/٤٦.

[3] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به وأعدَّه للنشر: محمد محمد تامر، دار الآفاق العربيَّة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص١٠٢١.

هي إلا صيحة واحدة يبعث الله بها الموتى من قبورهم، فإذا هم أحياء يساقون إلى الحساب، فيكون المؤمنون في ظفر وسرور وفلاح؛ لأنَّهم آمنوا بالله إيمانًا خالصًا، وعملوا أعمالًا صالحة، أمَّا الكافرون فيصبحون في حسرة وندم ويأس لـمَّا رأوا ما كانوا به يكذِّبون ويستهزئون يقينًا صادقًا وواقعًا مشهودًا.

ويستقي المجاز مفعوله الحِجَاجي من الاعتماد على تقرير ما يحدث في يوم القيامة من بعث ونشور وحشر، وترسيخ دلائلها العقليَّة الدامغة في العقول، وتعميق أثرها البالغ في النفوس، وهذا يزيد من درجة التأثير والإقناع التي تعزِّز حضور الأفكار الصائبة القائمة على (الإيمان والطاعة)، وتزيل الأفكار الخاطئة المنبثقة من (الكفر والإنكار)، وتدفع إلى بذل الأسباب والاستعداد للآخرة، ممَّا يجعل الخطاب القرآني أكثر إقناعًا وفعاليَّة في العمليَّة التواصليَّة الحِجَاجيَّة.

إنَّ تحوُّل مستوى الخطاب من الهزل والاستهزاء إلى الجدِّ والجزم، يكشف بجلاء عن صدق حصول الحياة الأخرويَّة بعد الانتقال من الحياة الدنيويَّة، حيث يكون فيها المنتهى الحتمي الذي يؤول إليه البشر قاطبة، وينالون فيه حسابهم، فمَن أحسن قوله وعمله أحسن الله إليه، وأدخله الجنَّة، ومَن أساء قوله وعمله أساء إلى نفسه، وسخط الله عليه، وأدخله النَّار، وشتَّان بين المحسن والمسيء.

وفي وصف حال المكذِّب المتولِّي جاء المجاز في قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العلق:١٦]، ويبيِّن أنَّه إذا لم ينتهِ عمَّا هو عليه، ولم ينزجر عن عناده وشقاقه، فإنَّ نهايته تكون نهاية مؤسفة؛ بسبب كفره، وتكذيبه، وتولِّيه عن أمر الله، وطغيانه في الأرض، ولا ينفعه يوم القيامة إلا ما كان عليه من الإيمان الصادق، وما قدَّمه من الأعمال الصالحة الخالصة لوجهه الكريم.

وتظهر الحجيَّة في أنَّه أسند الكذب والخطأ إلى الناصية[1]، وهي لا تكذب ولا تخطئ، وإنَّما «المراد: كاذب صاحبها، خاطئ صاحبها، أي آثم. ومُحَسِّن هذا المجاز أنَّ فيه تخييلًا بأنَّ الكذب والخِطْءَ باديان من ناصيته، فكانت الناصية جديرة بالسفع»[2] والجرِّ إلى النَّار، وهذا فيه

[1] الناصية: منبت الشعر في مقدَّم الرأس. لسان العرب، مادَّة: (نصا)، ٢٧٦/١٤.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٤٥٠/٣٠.

«مع ملحظ التمكُّن والتسلُّط والاقتدار دلالة الهوان والإذلال والعقاب... وذلك أقصى الترهيب والوعيد لذلك المغتر المفتون الذي ينهى عبدًا إذا صلَّى»[1]، ويريد أن يصدَّه عن العبادة والدعوة إلى الهدى والتقوى، ويجعله أسيرًا لأهوائه الضالة والشيطان الرجيم، ولكن أمر الله نافذ لا محالة، ودينه قوي متين لا يضعف، ومهما حاول الكافر المرجف أن يقف في طريق الحق ويمنعه، فإنَّ دعواه الزائفة مبنية على معتقد باطل وأساس فاسد، وحججه الواهية مدحوضة بالبيِّنة الواضحة والمحجَّة البيضاء، ولا يفلح مَن كذَّب دعوة الله واستكبر عنها أينما يمَّم وجهه وذهب إلا إذا تاب عن التمادي في غيِّه وجبروته وكبريائه، وآمن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- رسولًا ونبيًّا.

وفاعليَّة المجاز تعتمد على وسائل الإدراك لدى الإنسان، وتتمثَّل في الناصية، إذ تقوم بدور قيادي ومركزي من بين سائر أجزاء الجسد، وتتموضع في أعلى الرأس، ولا يقتصر تأثيرها ودورها على الأعمال الظاهرة التي تؤدِّيها فحسب، وإنَّما يتجاوزها إلى ما هو أعمق من توجيه وضبط السلوك الإنساني، مثل: الصدق، والكذب، والخطأ، والصواب...إلخ[2]، ولذا خصَّ الناصيةَ بالذكر دون غيرها تأكيدًا لدورها الفاعل والمحوري في تحديد مصير الإنسان الدنيوي والأخروي.

ويتضمَّن الإسناد المجازي في هذه الآية الكريمة طاقة حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تفصح عن النتيجة الوخيمة التي ينطوي عليها الكذب والخطأ، بحيث يتركان بصمة جليَّة على صاحبها، ويقودانه إلى مهاوي الردى والفناء، والانحراف عن جادَّة الرشاد والهداية، وهذا ما يزيد من التسليم والاقتناع بالابتعاد عنهما؛ لأنَّهما يؤدِّيان إلى الهلاك، والتمسُّك بالصدق والصواب؛ لأنَّهما يؤدِّيان إلى النجاة، وهيهات بين الصادق والكاذب.

---

[1] التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٩٠م، ٣١/٢.

[2] ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهَّرة، ص١٥٧-١٦٤.

المبحث الثاني

حِجَاجيَّة المجاز المرسل

المجاز المرسل هو ما كانت فيه «العلاقة بين الكلمة المستعمَلَة في غير معناها الحقيقي ومعناها الحقيقي الأصيل قائمة على غير المشابهة، ولا بد من وجود قرينة ملفوظة أو ملحوظة تدل على عدم إرادة المعنى الحقيقي»[1]، ويشتمل على غايات إقناعيَّة وتأثيريَّة، تساعد على التعبير عن الأطروحات والأفكار بما يدفع المتلقِّي إلى الإذعان والتسليم.

ويتجلَّى هذا الشكل في السور المكِّيَّة، ومنه ما ظهر في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام:٣٥]، وبرز المجاز في هذه الآية الكريمة مبيِّنًا الحالة التي وصل إليها الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- من بعد إعراض قومه عنه، وتكذيبهم بما جاء به من الآيات والبيِّنات.

ومحاجَّة المجاز تنهض على أنَّ كلمة (كَبُر) تحمل علاقة اللزوميَّة؛ لأنَّ الشيء العظيم الشاق يلزم منه أن يكون كبيرًا وثقيلًا، وهكذا وقعَ على رسول الله كفرهم وإعراضهم عن الحق، وهذا يكشف بجلاء عن «حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنَّه لو استطاع أن يأتيهم آية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم»[2] بالدعوة الإلهيَّة الخالدة؛ وذلك رحمة وشفقة منه عليهم من دوام ضلالهم وشركهم بعد بلوغهم الرسالة؛ لأنَّ نهايتهم تكون نهاية مؤسفة في آخر المطاف، بخلاف الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات، فإنَّ لهم المنزلة العالية في جنَّات النعيم، ولذا أتى الخطاب القرآني مشحونًا بحمولات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، وفيها «إلزام الحجَّة للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وتقسيم الأحوال عليه؛ حتى يبين أن لا وجه إلا الصبر والمضي لأمر الله تعالى... واحتمال المشقَّة ومعارضتهم بالآيات التي نصبها الله تعالى للناظرين المتأملين، إذ هو لا إله إلا هو لم يرد أن يجمعهم على الهدى، وإنَّما أراد أن ينصب من الآيات ما يهتدي بالنظر فيه قوم ويضل آخرون»[3]، فلا حزن ولا أسف ولا اعتراض على أمر أراده

---

[1] البلاغة العربيَّة في ثوبها الجديد: علم البيان، بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص٩٣.

[2] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٣٢٥/٧.

[3] المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٢٨٧/٢.

الخالق، وأمضى فيه حكمته البالغة، وقدَّره بمقدار، وعلمَ المصلحة فيه، والخير كله يكمن في تقديره وتدبيره وتسخيره.

ويكتسب المجاز مفعوله الحِجَاجي من الفضاء التربوي، وليس فيه شيء من اللوم، ولا من التوبيخ، ولا من النهي عن شيء تلبَّس به رسول الله كما توهَّمه كثير من المفسِّرين[1]، وإنَّما فيه تربية إلهيَّة «لرسوله، وإرشاده لما يشد من عزمه، ويزيد في ثباته على دعوة الحق التي أناط به بلاغها وبيانها»[2] للناس قاطبة؛ سعيًا إلى تقرير العقيدة الإسلاميَّة السمحة، والرد على ضلالات المشركين ومزاعمهم الزائفة بالبراهين الساطعة والأدلَّة القاطعة المستمدَّة من التشريع الإلهي، الذي يخاطِب عقل الإنسان ووجدانه.

وتتأسَّس العلاقة المجازيَّة في الآية الكريمة عن طريق تثبيت الله لرسوله الكريم في مواجهة الكفرة المعرضين، وتأكيد دوره الأساس في إبلاغ الرسالة السماويَّة، وهذا يسهم في تعزيز مكانة المؤمنين المخلصين، وإقامة الحجَّة على المنكرين المكذِّبين، وعند تأمُّل المصير الحتمي لهذَيْن النقيضَيْن (الإيمان والكفر)، فإنَّه يتحقَّق التأثير في المتلقِّين وإقناعهم بأنَّ المؤمنين خالدون في الجنَّة، وأنَّ المنكرين مستقرّون في النَّار.

وفي بيان طريقة التعامل مع المسلمين ورد المجاز في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ [الأنعام:٥٢]، ويؤكِّد أنَّ أولى الناس بمجالسة رسول الله هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي[3]، ويرجون مغفرته، ورحمته، ودخول جنَّة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

وتظهر الحجيَّة في أنَّ كلمة (وجهه) تتضمَّن العلاقة الجزئيَّة، حيث أطلق الجزء وأراد به الكل (ذاته وحقيقته)، وتسعى إلى تجلية جانب العناية والاهتمام بعباد الله الصالحين الذين آمنوا بوحدانيَّته وربوبيَّته، ولم يشركوا به شيئًا، ومهما كانت أحوالهم في الحياة الدنيويَّة، فإنَّهم مقدَّمون ومفضَّلون في كل الأمور على الكفَّار الضالين الذين يشركون بالله، ويعبدون الأوثان، حتى لو

---

[1] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ٧/٢٠٥-٢٠٧.

[2] أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، ٢/٥٣.

[3] الغداة: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. والعشي: آخر النهار، أو من المغرب إلى العشاء. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٤/٢١٧.

حرص رسول الله على دخولهم الإسلام[1]؛ لأنَّ الله مطلع على السرائر، وعالم بأنَّ هؤلاء لن يؤمنوا به أبدًا، وأراد «أن يظهر استغناء دينه ورسوله عن الاعتزاز بأولئك الطغاة القساة، وليظهر لهم أنَّ أولئك الضعفاء خير منهم، وأنَّ الحرص على قربهم من الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- أولى من الحرص على قرب المشركين، وأنَّ الدين يرغب الناس فيه، وليس هو يرغب في الناس»[2]؛ ولهذا جاء التوجيه الإلهي لنبيه الكريم، وينطوي على حكمة عالية تبعد الطمع والأمل في إيمان أولئك الكافرين، إذ يعدُّ المنهج الربَّاني حجَّة ودليلًا على كيفيَّة التعامل مع المسلمين وأحوالهم المختلفة وغير المسلمين.

ويكمن مناط التقدير والتوقير للمؤمنين فيما يقومون به من الأعمال الصالحة والخالصة لوجه الله الكريم، ولا يريدون بها عرضًا من الدنيا، ولا يراءون بها، ولا يقدِّمونها لغيره البتَّة، ولا يرون مستحقًّا لها إلا هو وحده دون سواه، فهم ينطلقون من عقيدة صحيحة نقيَّة من كل شائبة وعائبة، ويرجون الثواب، والمغفرة، والعتق من نار جهنم، والخلود في جنَّات النعيم.

ويستمدُّ المجاز فاعليَّته من الاعتماد على مسألة تفضيل المؤمن على الكافر، وترسيخها في إطار تربية الله لرسوله، وتوجيهه التوجيه الصحيح في حفظ مودَّة المسلمين جميعًا وملاطفتهم، وإنذار المشركين المعرضين، ودعوتهم إلى الدين القويم من غير تفضيل لهم، ويبدو أنَّ مصدر علم نبي الله محصور في الوحي، ويضطلع بوظيفة محدَّدة، وهي (إبلاغ الرسالة البلاغ المبين)، ممَّا يثبت بوضوح أنَّه بشر، ولا يعلم الغيب بتاتًا، ولا يستطيع أن يتصرَّف في شيء من الكون، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨]، فالحجَّة تقوم على (أحقيَّة المؤمن حتى لو كان ضعيفًا بمجالسة رسول الله)، والنتيجة (أنَّ المؤمن بكل أحواله خير عند الله من الكافر)، وهذا ملمح من ملامح إقناع الكفرة العاصين بدعوة الحق.

---

[1] روي أنَّ رؤوسًا من المشركين قالوا لرسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-: لو طردت عنَّا هؤلاء الأعبد يعنون: فقراء المسلمين، وهم: عمار، وصهيب، وبلال، وخباب، وسلمان، وأضرابهم رضوان الله عليهم، وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب من صوف، جلسنا إليك وحادثناك، فقال -عليه الصلاة والسلام-: ما أنا بطارد المؤمنين، فقالوا: فأقمهم عنَّا إذا جئنا، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت، فقال: نعم؛ طمعًا في إيمانهم. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٣٢٩/٧.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٢٤٧/٧.

وفي قولــه تعــالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢] أتــى المجاز مفصحًا عن المنزلة الرفيعة التي يتبوأها القرآن الكريم، وهو كتاب مبارك مصدِّق لما قبله من الكتب السماويَّة، ومهيمن عليها، ومشتمل على عظائم الأمور وجليلها، ومبشِّر المؤمنين بالجنَّة، ومنذر المشركين من النَّار.

وتتجلَّى المحاجَّة في أنَّ (ولتنذر أم القرى) العلاقة المحليَّة، فقد أطلق المحل (أم القرى) وأراد به الحال فيه، وهم (أهلها)؛ لأنَّ القرى نفسها لا تُنذر، وإنَّما الذين يُنذرون هم أهل القرى ومن حولها، وبخاصَّة الكفَّار الذين في معرض عنادهم وافترائهم يقولون: إنَّ الله لم يرسل رسولًا من البشر، ولم ينزل كتابًا يوحي به إليه[1]، فأنزل الله الآيات البيِّنات تفنيدًا لدعواهم الباطلة، ودحضًا لحججهم الواهية، وإنذارًا لهم من كفرهم واستكبارهم، وامتنانًا منه على رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- والمسلمين؛ «لبيان أصول الاعتقاد مع الدليل، وإتمام مكارم الأخلاق، وتشريع العبادات لتزكية النفوس وتطهيرها، والمعاملات لنفع الأفراد والجماعات، وتقرير أصول الحياة كالحريَّة والكرامة الإنسانيَّة، والمساواة بين الناس، فلا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى»[2] والعمل الصالح، ممَّا يؤدِّي إلى تأسيس مفهوم إسلامي جديد عادل، وهو (أنَّ معيار الأفضليَّة عند الله ليس الحسب والنسب، بل التقوى)، ويدعمه الكثير من الشواهد القرآنيَّة[3].

وفاعليَّة المجاز تأتي من تقرير قضيَّة التوحيد وإبطال الشرك، وتثبيت أدلَّتها العقليَّة الدامغة في الأذهان، وتعميق أثرها البالغ في النفوس، ويدل توجيه الخطاب إلى أم القرى[4] دون ذكر أهلها على عظم الأمر وعمومه، فالمراد إيصال الإنذار الإلهي إلى أقصى حد، حيث يشمل كل ما في القرى من المخلوقات والجمادات؛ وذلك ليقيم الحجَّة، ويزيل الشبهة، ويجعلها جميعًا شاهد عيان على الكافرين المستكبرين المعرضين عن دعوة الله، الذي يحكم بالعدل بين الناس،

---

[1] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ٣٦٩/٧-٣٧٦. وأيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، ٨٩/٢-٩١.

[2] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٣٠٦/٤.

[3] ومنها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات:١٣].

[4] يقصد بأم القرى مكَّة، سُميت بهذا الاسم تشريفًا لها، وبيانًا لمكانتها من بين سائر الأماكن والبقاع فهي أعظم القرى شأنًا، كما أنَّ في تسميتها بهذا الاسم إشارة إلى أنَّ بها أول بيت وضع للناس، ولأنَّها منشأ الدين، ومنطلق الرسالة، ومهبط الوحي، ولأنَّها قبلة أهل القرى جميعًا، ومحط أنظارهم، ومهوى أفئدتهم، فهي كالأم لسائر الأوطان والبقاع التي يلتف حولها الأولاد، ويرجعون إليها. التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، ص٦٢.

فلا يحاسب أحدًا؛ حتى يرسل الرسل، وينزل الكتب، ويميّز الحق من الباطل بأوامره ونواهيه، وهذا يزيد في المخاطَبين درجة الإذعان والتسليم والامتثال.

إنَّ إنزال القرآن الكريم من عند الله دليل قاطع على صدق نبوَّة محمَّد -عليه الصلاة والسلام- وصحَّة الدين الإسلامي القويم الذي جاء به؛ لكي ينذر المشركين من تماديهم في غيّهم وإنكارهم للدلائل الإلهيَّة، حتى لا يكون مصيرهم نار جهنم وبئس المصير، ويبشِّر المؤمنين الذين يؤمنون بالآخرة ويعملون الصالحات أنَّ لهم أجرًا عظيمًا وحسن المآب، فالإقرار إيمان وقبول، أمَّا الإنكار فهو جحود ورفض.

وفي صدد حِجَاج الكفرة المنكرين ظهر المجاز في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس:٢]، ويؤكِّد لهم ثبوت النبوَّة ونزول الوحي على رجل منهم، وهو محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والمرسلين؛ ليدعو الناس إلى الدين الحنيف، وينذر الضالين من ضلالتهم، ويبشِّر الذين آمنوا.

وتكمن حِجَاجيَّة المجاز في جانبَيْن: أولهما: يظهر في أنَّ (للناس) العلاقة الكليَّة، حيث أطلق الكل وأراد به الجزء، وهم (المشركون من أهل مكَّة)؛ لأنَّهم مصدر التعجُّب والعناد. وثانيهما: يأتي في (أنَّ لهم قدم صدق عند ربهم) العلاقة السببيَّة، فقد أطلق السبب (القدم) وأراد به المسبَّب (السبق والمنزلة الرفيعة). وكلاهما يكشف عن مضمرات الخطاب القرآني، الذي يؤسِّس لبزوغ فجر الإسلام، وانطلاق الرسالة الإلهيَّة الخالدة في أرض توغَّل فيها الشرك والأوثان، ولذا استنكر الكفَّار وتعجَّبوا من نزول الوحي على بشر مثلهم ورجل منهم[1]، ممَّا أدَّى بهم إلى الكفر بالرسالة، وتكذيب مَن أتى بها، وهذا يدل على جهلهم و«سفههم وعنادهم، فإنَّهم تعجَّبوا من أمر، ليس ممَّا يتعجب منه ويستغرب، وإنَّما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم، كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم، الذي بعثه الله من أنفسهم، يعرفونه حق المعرفة، فردَّوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه، والله متم نوره، ولو كره الكافرون»[2] أن ينتصر

---

[1] الذي تعجَّبوا منه أن يوحي إلى بشر، وأن يكون رجلًا من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أنَّ الله لم يجد رسولًا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنَّار ويبشِّر بالجنَّة. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١١/٤٥٥-٤٥٦.

[2] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، ص٣٥٨.

الحق على الباطل، ويكون للذين آمنوا وعموا الصالحات قدم صدق عند ربهم لا تزول، ودرجات عالية في جنَّات النعيم.

ومفعول المجاز الحِجَاجي يعتمد على تقرير مسألة النبوَّة ونزول الوحي وعموم الرسالة، ورصد افتراءات المشركين ومزاعمهم الباطلة، والرد عليها بالحجَّة الداحضة والبيِّنة القاطعة، وإنذارهم من الاستمرار في الضلال والعصيان؛ لأنَّهم لـمَّا وجدوا في القرآن الكريم من التأثير القوِّي في النفوس، واستمالتها إلى الإيمان به، وصفوه بأنَّه سحر، ورسول الله ساحر، و«قد كان من عقائدهم الضالة أنَّ من طرائق السحر أن يقول الساحر أقوالًا تستنزل عقول المسحورين»[1]، وهذه فرية عظيمة على كتاب الله ورسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- لا تخرج إلا من قلوب قد سيطر عليها الكفر والنكران والحقد والجهل، ولا يخفى فساد قولهم وبطلانه، فالقرآن منزَّه عن كل الشوائب والنواقص، وبعيد عن السحر كل البعد جملة وتفصيلًا؛ لأنَّه وحي من الله تعالى لنبيه -عليه الصلاة والسلام- ومشتمل على أحكام سامية في التشريع، والقضاء، والسياسة، والاجتماع، والعلوم، والأخلاق، والآداب، ومعجز في أسلوبه ونظمه ومعانيه، ويفوق قدرة البشر على مجاراته ومحاكاته، والإتيان بشيء من مثله، ويكون في جانب الخير والبركة سواء أكان منذِّرًا للكفَّار أم مبشِّرًا للمؤمنين، ويعدُّ منهج حياة به تستقيم أمورها وتدوم، أمَّا السحر فيقوم على الاستعانة بالجن والشياطين، والحيل والشعوذة، وخواص الأشياء الطبيعيَّة، وعلم النجوم...إلخ[2]، ولا يكون إلا في جانب الشر والأذى، وشتَّان بين رسول النور وشيطان الظلام.

وتتضمَّن العلاقتان المجازيتان في الآية الكريمة طاقات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تسهم في قمع الأفكار الكفريَّة الخاطئة التي ترسَّخت في أذهان الكفرة، وتبديلها بالأفكار الإيمانيَّة الصائبة التي تنبثق من الشريعة الإسلاميَّة، وتزيد من الإقبال على الله والامتثال لأوامره ونواهيه، وتجعل لهم قدم صدق عند ربهم يوم يلقونه؛ وذلك لصدق إيمانهم، وسلامة اعتقادهم، وإكثارهم من الأعمال الصالحة، وقوَّة ثباتهم أمام ملذَّات الدنيا وتقلُّباتها، وهذا تحوُّل عقدي محمود من الهلاك والفناء إلى النجاة والبقاء.

وفي خضم تأويل يوسف -عليه السلام- رؤيا أحد الفتيَيْن في السجن برز المجاز في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٨٦/١١.

[2] ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ١٠٤/٦-١٠٥.

أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف:٣٦]، ويبيّن المآلات الحتميَّة التي ينتهي إليها، من بعد اتهامه في محاولة تسميم الملك وقتله[1].

والحجَّة تنهض على أنَّ جملة (إنِّي أراني أعصر خمرًا) فيها علاقة اعتبار ما سيكون، حيث أطلق (الخمر) وأراد به (العنب)؛ لأنَّ الخمر سائل لا يعصر، وإنَّما الذي يعصر العنب، فيؤول بعد عصره إلى الخمر، وهذا من باب الاستبدال، إذ يقوم على «تعويض لفظ فيه بلفظ تعويضًا تنشأ بواسطته في كثير من الأحيان صورة تظهر المعنى شيئًا ملموسًا مصوَّرًا»[2]، يساعد على تحقيق الغرض الرئيس من الرؤيا، ويتمثَّل في معرفة مستقبل الفتى؛ لأنَّه متهم بالشروع في قتل الملك عن طريق تسميم الشراب، وليست هذه القضيَّة من السهولة بمكان، ولكن الله أراد بفضله وكرمه أن يسخِّر له نبيه يوسف؛ ليؤوِّل رؤياه المبشِّرة، ويسوق إليه البراءة من الاتهام، والبشرى بالنجاة من العقاب والهلكة، وقد حظي هذا التأويل بقبول المتلقِّي وتصديقه؛ لأنَّه مبني على الثقة بالمؤوِّل، وحسن درايته وعميق فهمه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف:٣٦]. وتنسجم هذه الرؤيا شكلًا ومضمونًا مع المهنة التي كان يمتهنها الفتى عند الملك، وهي مهنة (الساقي)، ولذا أتت التبرئة من الجرم الشنيع بالأداة نفسها التي عليها مدار الاتهام والادعاء.

ويستقي المجاز مفعوله الحِجَاجي من الاعتماد على الفضاء الغيبي، إذ وظَّف ما يكون في مستقبل الأيام من أحداث وتغيُّرات ومجريات في سياق تعبير الرؤيا، ممَّا يؤكد بجلاء صدق نبوَّة سيِّدنا يوسف -عليه الصلاة والسلام- وكمال علمه في حسن تأويل الرؤى، واستشراف المستقبل بما أوحى الله إليه، وألهمه من العلم، والمعرفة، واليقين، واصطفاه من بين سائر الناس، وفضَّله عليهم تفضيلًا.

وينطوي خطاب الرؤيا في الآية الكريمة على حمولة إقناعيَّة ودلاليَّة مكثَّفة، أسهم في تشكليها المجاز المرسل إسهامًا كبيرًا؛ للكشف عمَّا سيكون عليه الفتى مستقبلًا، وتدعيمه بالبرهان الواضح الذي في قوله تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف:٤١]، ويدل

---

[1] ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١٢/٥١٥-٥١٦. وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٣/٣٩٠-٤٠٣.

[2] الحِجَاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة، ص٤٨٦.

على استمراره في عمله السابق، وعدم ثبوت التهمة عليه، وكأنَّه لم يحدث شيء، فالحجَّة تدور حول (قدرة يوسف -عليه السلام- على تأويل الرؤيا، واستجلاء أمورها الغيبيَّة)، والنتيجة تتلخَّص في (صدق نبوَّته وتعبيره).

وفي أثناء تبرير إخوة يوسف لما حصل لأخيهم بنيامين[1] ظهر المجاز في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف:٨٢]، ويحاول أن يثبت نزاهتهم وبراءتهم وصدقهم أمام أبيهم يعقوب -عليه السلام- وأنَّهم لا يعلمون البتَّة عمَّا كان في رحل أخيهم، وهو صواع الملك، الذي بسببه اتهم بالسرقة، واستحق الجزاء والعقوبة، وليس بمقدرتهم تبرئته من هذه الجناية، وما كانوا للغيب حافظين.

ومحاجَّة المجاز تأتي من زاويتَيْن: أولهما: يكون في أنَّ (اسأل القرية) العلاقة المحليَّة، فقد أطلق المحل (القرية) وأراد به الحال فيه، وهم (أهلها)؛ لأنَّ القرية جماد لا تسأل ولا تجيب، وإنَّما الذي يسأل ويجيب أهل القرية. وثانيهما: يظهر في أنَّ (العير التي أقبلنا فيها) علاقة المجاورة، حيث أطلق (العير) وأراد بها ما يجاورها، وهم (أصحابها)؛ لأنَّ العير لا تدرك السؤال، وإنَّما الذين يدركون السؤال أصحاب العير. وكلاهما يؤكِّد «انتشار خبر السرقة وذيوعه بين الناس جميعًا، فقد بلغ في الشهرة مبلغًا لو سئلت عنه الجمادات والحيوانات لأجابت عنه ونطقت به»[2]، وأصبحت شاهد عيان على وقوعه. وفي هذا مبالغة من الإخوة «في إزالة التهمة عن أنفسهم؛ لأنَّهم مشكوك فيهم، وكانوا متهمين بسبب واقعة يوسف -عليه السلام-»[3] قبل حدوث واقعة بنيامين، وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف:١٧-١٨]، ممَّا قادهم إلى حشد كل ما في وسعهم من الدلائل والبراهين، وإظهار رغبتهم الشديدة في إقناع أبيهم بصدق ما أتوا به، وإبعاد أدنى شك فيهم، وتأكيد أنَّ ما حدث لأخيهم لا يد لهم فيه ولا حيلة.

---

[1] ينظر: مقابلات قصَّة يوسف عليه السلام، عبدالله بن عبده العواضي، غافق للدراسات والنشر، ط٢، ١٤٤٤هـ-٢٠٢٢م، ١/٣٢٥-٣٣٧.

[2] من بلاغة النظم القرآني، ص٣٨٧.

[3] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٧/٤٩.

وتعدُّ الصورة الذهنيَّة السابقة لهم عند أبيهم عائقًا كبيرًا أمام تصديق الخبر، وهذا ما دفعهم إلى الاستعانة بوسائل مختلفة، تساعدهم على تحقيق المقصود بما لا يدع مجالًا للأخذ والرد، وتنزل المتلقِّي منزلة خالي الذهن، وتجعله أكثر استجابة لما يطرح عليه.

ويكتسب المجاز فاعليَّته من تقرير مسألة صدق الإخوة وبراءتهم، وترسيخ حضورها في ذهن أبيهم، وإقصاء كل ما يتضاد معها، وما سؤال القرية والعير عن الحادثة إلا بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، وتفتح آفاقًا متعدِّدة تسهم في تكثيف الأدلَّة، التي من شأنها الوصول إلى أعلى الدرجات في التبيُّن والتثبُّت من جهة، والاقتناع والتسليم من جهة ثانية، وتتمثَّل حجَّة الإخوة في (سؤال القرية والعير عن الأمر الذي وقع)، وتفضي إلى نتيجة مفادها (صدقهم فيما أخبروا به، وبراءتهم من تدبير السرقة لأخيهم)، وهذه الأحداث القصصيَّة تساعد على تسلية فؤاد الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- وتثبيته، وتكشف له عن أحوال الأمم السابقة، وما تنطوي عليه من عِبَر ومواعظ.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [يوسف:٩٩] برز المجاز مبيِّنًا المكانة الرفيعة التي تبوأها يوسف -عليه السلام- في مصر، إذ خرج برفقة «الملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم»[1]؛ وذلك لاستقبال أبوَيْه وإخوته إبَّان وصولهم بحفاوة بالغة، ولمَّا وصلوا ضمَّ إليه أبوَيْه مبديًا لهما من البر والإحسان والتبجيل شيئًا عظيمًا، وقال لهم: ادخلوها -إن شاء الله- آمنين مطمئنين من كل المخاوف والمكاره.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّ (ادخلوا مصر) العلاقة الكليَّة، حيث أطلق الكل (مصر) وأراد به الجزء (البعض منها)؛ لأنَّهم لن يحيطوا بدخول مصر كلها، وإنَّما يدخلون جزءًا منها، وهذا يدل على سعة نفوذ يوسف -عليه السلام- و«ماله في مصر من سلطان يتيح لهم دخول أية ناحية منها»[2] يريدون، من غير أن يكدِّر صفو عيشهم شيء، وليس الأمر محصورًا على دخولهم إيَّاها والمرور فيها فحسب، وإنَّما بالإمكان أن يتخذوا منها سكنًا ومستقرًّا لهم. وقد جسَّد يوسف أسمى معاني الوفاء والإكرام والتوقير في استقباله المهيب والحافل لهم، واهتمامه الشديد بهم،

---

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٥٣٠/١٣.

[2] من أسرار العدول إلى المجاز المرسل في القرآن الكريم، صديق مصطفى الريح، مجلَّة آداب، ع٢٩، ديسمبر ٢٠١٢م، ص٩.

وفرحته الغامرة التي ملأت الآفاق بمقدمهم، وحرصه على الاجتماع والأنس بعد الافتراق والكدر.

وتأتي فاعليَّة المجاز من تقرير محبَّة يوسف لأبوَيْه وإخوته، إذ جعل تمكينه في الأرض تمكينًا لهم، وقابل إساءة إخوته وأذاهم له بعفوه عنهم وإحسانه إليهم، وأعاد سبب التفرقة والشتات إلى نزغ الشيطان بينهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف:١٠٠]، دون أن يذكر تفاصيل ما حدث؛ لأنَّ المقام ليس مقام لوم وعتاب ومحاسبة، بل هو مقام اجتماع واحتفاء وألفة، فالحجَّة تظهر في (دخول أبوَيْ يوسف وإخوته مصر)، والنتيجة (يكونون -إن شاء الله- آمنين من كل خوف ومكروه).

وتتأسَّس العلاقة المجازيَّة في الآية الكريمة عن طريق ترسيخ منهج قويم في التعامل مع حسد الإخوة ومكايدهم، ويمثِّل يوسف -عليه السلام- نموذجًا حيًّا مشرقًا رسمَ خارطة النجاة من الفتن العاصفة، وأراد الله أن يجعله بمثابة الحجَّة والدليل؛ لكي يقوِّي في أذهان المخاطَبين حضور فكرة التسامح والعفو بين الإخوة، وإبعاد فكرة الانتقام والعداوة، واستجلاء الأثر المترتِّب على كل واحدة منهما، ممَّا يساعد على استيعاب جدليَّة الإحسان والإساءة، وهذا السرد القصصي يسهم في تثبيت قلب الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- من خلال ترسيخ الثقة بحكمة الله وتدبيره، وحصول الفرج بعد الشدَّة، والتمكين بعد البلاء، والاجتماع بعد الفراق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم:٤] ورد المجاز مفصحًا عن مظهر من مظاهر العدالة والانصاف عند العزيز الحكيم، الذي لا يرسل الرسول إلى القوم إلا من أنفسهم وبلسانهم؛ وذلك ليبيّن لهم الحق من الباطل، ويدعوهم إلى الهداية والرشاد، ويحذِّرهم من الضلالة والكفر.

وتنهض المحاجَّة على أنَّ (بلسان قومه) تحمل العلاقة الآليَّة، فقد أطلق الآلة (اللسان) وأراد (اللُّغة التي تُؤدَّى به)؛ لأنَّ المقصود ليس العضو العضلي الموجود في الفم بعينه، وإنَّما المقصود ما يؤدِّيه من دور بارز في البيان والإبلاغ، والكشف عن «دراية الرسول المرسل بكل دقائق وحيثيات وخبايا لغة القوم المرسل فيهم، فكان لفظ اللسان المتسم بدلالته على الإلمام

والإحاطة أبلغ وأكثر حجيَّة من استعمال»[1] لفظ اللُّغة، وهذا يدل على شموليَّة الخطاب الإلهي في دعوة الناس قاطبة إلى الدين القويم، و«ينبئ بوضوح الرسالات وجلائها، إذ الرسول ينطق بلسان قومه، وأرسل بهذا اللسان، فلا غموض ولا لبس فيما يقول، ولا حجَّة عندئذ لمن أعرض ونأى؛ لأنَّه يعرض عنادًا وينأى تكبُّرًا، بعد أن أدرك ما جاءت به الرسل، ووضَّح له الأمر»[2]، وتبيَّن الحق المأمور باتباعه والتمسُّك به، والباطل الذي يجب تركه والابتعاد عنه، فيضل الله مَن يشاء، ويهدي مَن يشاء، وهو العزيز الحكيم.

ويعتمد مفعول المجاز الحِجَاجي على استدعاء الفضاء اللغوي بوصفه منطلقًا رئيسًا في عمليَّتَيْ التبيين والتبليغ اللتَيْن ما أرسل الله رسوله إلا من أجلهما؛ لكي يقرِّر في عقول المتلقِّين مسائل عقديَّة مهمَّة، وهي (توحيد الله والإيمان به، ونفي الشركاء عنه، وإفراده بالألوهيَّة والعبوديَّة وحده دون سواه)، وإبطال كل ما يتعارض معها جملة وتفصيلًا من الشرك والكفر وعبادة الأوثان ونحوها.

إنَّ مخاطبة الرسول لقومه بلسانهم تتضمَّن طاقات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تسهم في تحقيق مقاصد الدعوة الإلهيَّة الخالدة، التي من شأنها إزالة الأفكار الشركيَّة الخاطئة التي يتبنَّاها المشركون دون مبرِّر واضح ومقنع، واستبدالها بالأفكار الإيمانيَّة الصائبة التي تنبثق من أوامر الله ونواهيه، وتؤكِّد تفرُّده بالوحدانيَّة والربوبيَّة والعبادة، وتقود إلى الإذعان والامتثال والتسليم بهذه الدعوة الصحيحة قولًا وعملًا.

وفي سياق بيان افتراءات الكافرين ومزاعمهم الباطلة جاء المجاز في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل:١٠٣]، ويبيّن بجلاء ما يحملونه في صدورهم من حقد دفين وعداوة متجذِّرة للرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- ولم يكتفوا بالإعراض عن القرآن الكريم، بل شكَّكوا فيه قائلين: إنَّما يعلِّمه بشر[3]، فنسبوا كلام الخالق إلى الخلق كذبًا وبهتانًا وطغيانًا.

---

[1] حِجَاجيَّة المجاز المرسل في القرآن الكريم: نماذج تطبيقيَّة، سالمة الراجي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمَّان، ط١، ١٤٤٢هـ- ٢٠٢١م، ص١١٨.

[2] من بلاغة النظم القرآني، ص٣٨٩.

[3] ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: محمد إبراهيم البنَّا، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، ٢٠١٦/٥-٢٠١٧.

وتكمن حِجَاجيَّة المجاز في أنَّ كلمة (لسان) العلاقة الآليَّة، حيث أطلق (اللسان) وأراد به (اللُّغة)، ويعرض في وروده المرَّة الأولى أطروحة متضادَّة مع وروده المرَّة الثانية، على الرغم من اتصالهما حِجَاجيًّا؛ لأنَّ «لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أعجمي غير بيِّن، وهذا القرآن لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة»[1]، ولا يمكن أن يأتي به أعجمي معدوم العربيَّة، وهذا يكشف عن البون الواسع والفرق الشاسع بين اللسانَيْن، ويثبت التناقض الفظيع الذي أوقع المشركون فيه أنفسهم، وأصبحوا في الظلمات سائرين، وعن الحق معرضين، وفي كتاب الله مشكِّكين، ممَّا يستدعي الرد عليهم بالحجج المفحمة والبراهين المخرسة، وتفنيد دعواهم المبنية على الطعن في القرآن الكريم وعربيَّته، ودحض أباطيلهم الزائفة وعقيدتهم الفاسدة، وتنزيه كتاب الله عن كل شائبة وعائبة، وتعظيم مكانته في النفوس البشريَّة، وتأكيد أنَّه كلام الله المعجز المنزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين سيِّدنا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- وأنَّه عربي اللسان مبين لا اعوجاج فيه ولا لبس، وفي غاية الوضوح والحجَّة والبرهان.

ويستمدُّ المجاز مفعوله الحِجَاجي من الاعتماد على الوسائل الإدراكيَّة لدى الإنسان، وتتمثَّل في اللسان، إذ تبيَّن الدور المركزي الذي يضطلع به من بين سائر الجوارح، ولا يقتصر دوره وتأثيره على مسألة محدَّدة بعينها فحسب، وإنَّما يمتدُّ إلى تحديد مصير الإنسان الدنيوي والأخروي، والإسهام في تحقيق مقاصد الشريعة الإسلاميَّة، وقمع الشركيَّات والأكاذيب التي يصنعها الكفرة الضالون، ونفي الأعجميَّة عن كتاب الله، وإقامة الحجَّة على المتمسِّكين بضلالاتهم بعد بلوغهم الحق المبين.

والعلاقة المجازيَّة في الآية الكريمة تتأسَّس عن طريق تقرير عربيَّة القرآن الكريم وبيانه، وترسيخ ملامحهما في الأذهان، وتعميق أثرهما في النفوس، ويدل اختيار اللسان دون غيره على أهميَّته الكبيرة في إيصال الرسالة الإلهيَّة إلى الناس جميعًا، فهو مفتاح البيان والفصاحة، ومركز الحِجَاج والإقناع، وموطن الإحاطة والشمول، وموئل مخازن العقول ومخالج القلوب، والقاسم المشترك بين الرسول الداعي والقوم المدعوين.

وفي صدد الحديث عن الذين أتوا العلم من قبل بعثة الرسول وإنزال القرآن الكريم عليه ظهر المجاز في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٥٨٤/١٤.

يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ [الإسراء:١٠٧]، ويفصح عن حالهم عندما تتلى عليهم الآيات البيّنات الهاديات إلى سواء السبيل، فإنَّهم يخرُّون للأذقان[1] سجَّدًا يبكون، ويزيد خشوعهم خشوعًا، وإيمانهم إيمانًا، وتسبيحهم تعظيمًا لله وتصديقًا لما وعد به.

والحجَّة تقوم على أنَّ كلمة (الأذقان) فيها العلاقة الجزئيَّة، فقد أطلق الجزء وأراد به الكل (الوجوه)؛ لأنَّ المقصود ليس ذكر الأذقان بمعناها المجرَّد، وإنَّما المقصود توظيف ما تحمله من دلالة على تمكين أولي العلم وجوههم «من الأرض من قوَّة الرغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع لله تعالى»[2]، والتذلُّل والافتقار إليه، والانكسار بين يدَيْه، فضلًا عن أنَّ استعمال (اللام) دون (إلى) أو (على) يدل على «أنَّهم من شدَّة ما يحصل لهم من الخشوع يسقطون سقوط مَن ليس له اختيار، وأول ما يلاقي الأرض ممَّن يسقط كذلك ذقنه... فإنَّ الإنسان مجبول بالطبع على صيانة وجهه، فهو يرفع رأسه فتصير ذقنه وفمه أقرب ما في وجهه إلى الأرض حال السقوط»[3]، بخلاف الذين كفروا واستكبروا وطغوا في الأرض، فجزاهم الله «بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه، وأنَّهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدِّقوا بالقرآن وهم أهل جاهليَّة وشرك، فإنَّ خيرًا منهم وأفضل، وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع، قد آمنوا به وصدَّقوه، وثبت عندهم أنَّه النبي العربي الموعود في كتبهم، فإذا تلي عليهم خرُّوا سجَّدًا، وسبَّحوا الله تعظيمًا لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشَّر به من بعثة محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد»[4] في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٨]، وهذا يؤكِّد صدق النبوَّة والرسالة، ويفحم الكافرين المعرضين المستكبرين، ويزعزع مواقفهم الكفريَّة الضالة في محاربة دعوة الله، والامتناع عن الامتثال للأوامر والنواهي، وتكذيب الآيات البيّنات والدلائل الدامغة، والاستهزاء بها.

ويستمدُّ المجاز فاعليَّته من إثبات صحَّة الدعوة الإسلاميَّة، وترسيخ مبادئها وقواعدها في العقول، وإعمال أثرها البالغ في النفوس، وأراد الله أن يصحِّح مسار عقيدتهم وعبادتهم

---

[1] الذقن: مجتمع اللَّحْيَيْن من أسفلهما. لسان العرب، مادَّة: (ذقن)، ٣٥/٦.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٢٣٤/١٥.

[3] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٤٣٦/٤.

[4] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٦١٠/١٥-٦١١.

تصحيحًا عمليًّا من خلال ما يقومون به من الانحناء والخضوع، فيجعلها من عبادة الأصنام وتقديس الخلق إلى عبادة الخالق وحده دون سواه، وإخلاصها له بما يتوافق مع تعاليم الدين الإسلامي القويم.

إنَّ بعثة الرسول وإنزال القرآن الكريم عليه دليل قاطع على تحقيق ذلك الوعد المنتظر، وانبلاج نور الحق، وزهوق ظلام الباطل، وتغيير المفاهيم العقديَّة السائدة قبل الإسلام القائمة على أنَّ (الخضوع للأوثان يقرِّبهم إلى الله زلفى)، واستبدالها بإرساء مفهوم إسلامي جديد، وهو (أنَّه لا يكون الخضوع إلا لله وحده لا شريك له)، ولذا خصَّ السجود بالذكر دون غيره؛ لأنَّه يدل على تمكُّن الإيمان من القلوب، ممَّا يجعلها أكثر قبولًا وتسليمًا بما يعرض عليها من أطروحات وقضايا تتصل بالشريعة الإسلامية، وتتطلَّب نبذ الشرك والكفر، وتعديل السلوك المترتِّب عليهما، وتبديل الفكر المدبِّر لهما.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤﴾ [طه:٧٤] برز المجاز مبيِّنًا المصير الأبدي لمن لم يمتثل لأوامر ربِّه ونواهيه عنادًا وطغيانًا وكفرًا، وانتقل من الحياة الدنيويَّة إلى الحياة الأخرويَّة على تلك الحال، فإنَّه يأتي ربَّه مجرمًا[1]، وله نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، ويبقى خالدًا مخلَّدًا فيها إلى ما لا نهاية؛ جزاء بما كان يعتقده في قلبه، ويعبِّر عنه بجوارحه.

ومحاجَّة المجاز تنهض على أنَّ كلمة (مجرمًا) تحمل علاقة اعتبار ما كان؛ لأنَّ الوصف بالإجرام يمثِّل حاله الذي كان عليه في الدنيا، وحتى لو انقطع عمله بالموت، فإنَّ أثر إجرامه بقي ملازمًا له، وهذا يبيِّن «أنَّ المجرم يوم القيامة تبدو عليه آثار الذلَّة والمهانة والندم والتحسُّر، حيث يستشعر الإجرام الذي ظلَّ عليه طوال حياته، وكان سببًا في هذا المصير الذي صار إليه»[2] وخلد فيه، فالجزاء من جنس العمل، حيث أعرض عن الله في دار الفناء، فأعرض الله عنه في دار البقاء، فأصبح من الخاسرين المحرومين. وهذه دعوة إلى الذين يسيرون على طريقة المجرم أن يعتبروا ممَّا آل إليه أشد الاعتبار، ويحذروا من التوغُّل في ميادين الشرك والمعاصي، ويقلعوا عن إجرامهم وإنكارهم، ويقبلوا على الله بكل ما أتوا من قوَّة وعزيمة؛ لأنَّ مفتاح النجاة

---

[1] المجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطففين:٢٩]. تفسير التحرير والتنوير، ٢٦٨/١٦.

[2] من بلاغة النظم القرآني، ص٣٨٣.

والفلاح لا يكون إلا في رضاه وطاعته وعبادته، والبُعد عن مسبِّبات سخطه وغضبه، فالحجَّة تتمثَّل في أنَّ (المعرض عن الله في الدنيا هو الذي يأتي إليه مجرمًا في الآخرة)، والنتيجة تتلخَّص في أنَّ (له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، وبئس المآب).

وفاعليَّة المجاز تأتي من تقرير النهاية الحتميَّة لكل مجرم، التي من شأنها تأكيد مسألة جوهريَّة ينكرها، وهي أنَّ الحياة الدنيويَّة دار عمل، والحياة الأخرويَّة دار جزاء، وفيها المسلم والكافر لا يتساويان في الحساب، وهذا من عدل الله بينهما؛ لأنَّه شتَّان بين مَن اتبع الهدى، وتمسَّك بالعروة الوثقى، فنجى من العذاب الأليم ودخل الجنَّة، وبين مَن امتنع عن الهداية، واتبع هواه والشيطان، فضلَّ عن طريق الحق ودخل النَّار.

ويمثِّل حضور المجرم في الآية الكريمة نموذجًا حيًّا دالًّا على أعلى درجات العصيان والطغيان، ويساعد على تحقيق الإقناع والتأثير في المخاطَبين، وترسيخ قضيَّة التوحيد والإيمان، ودحض قضيَّة الشرك والكفر، وفتح آفاق التأمُّل والتفكُّر في مصير أصحاب القضيتَيْن يوم القيامة؛ وذلك للوقوف على حقيقة الدنيا الزائلة التي يتشبَّث بها الكافرون، وحقيقة الآخرة الباقية التي يتطلَّع إليها المؤمنون.

وفي قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾ [الأنبياء:٧٨] جاء المجاز مجلِّيًا ما أفاء الله على النبيَّيْن داود وسليمان -عليهما السلام- من العلم الواسع والحكم بين الناس، إذ تحاكم إليهما المختصمون في القضيَّة التي مفادها أنَّ غنم القوم قد نفشت[1] في الحرث واعتدت عليه، فأفسدت ما فيه وأهلكته، فقضيا فيها بالحق لصاحب الحرث[2].

وتظهر الحجيَّة في أنَّ كلمة (الحرث) تتضمَّن إمَّا علاقة اعتبار ما كان، وإمَّا العلاقة السببيَّة إطلاق السبب (الحرث) على المسبَّب (الزرع والثمر)، ومهما كانت العلاقة المجازيَّة فإنَّ المقصود بيان الأثر الفظيع والدمار الشامل الذي فعلته الغنم في المحاصيل، حيث أعادتها إلى صورتها الأوليَّة، وجعلتها حرثًا كما كانت قبل أن تنمو وتزدهر، وهذا يسهم في الكشف عن

---

[1] نفشت: انتشرت ليلًا فرعت. لسان العرب، مادَّة: (نفش)، ١٤/٣٢٣.

[2] ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١٧/٦٨٣-٦٨٤. والتسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، تحقيق: محمد بن سيدي محمد مولاي، دار الضياء للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، ٢/٩٦٨-٩٧٠.

حجم الخسائر التي خلَّفتها، وإقامة الحجَّة على أصحاب الغنم بالبرهان القطعي، وإلزامهم بقبول الحكم الصادر عليهم. وفي هذه «القضيَّة التي تضمَّنتها الآية مظهر من مظاهر العدل ومبالغ تدقيق فقه القضاء، والجمع بين المصالح والتفاضل بين مراتب الاجتهاد، واختلاف طرق القضاء بالحق مع كون الحق حاصلًا للمحق. فمضمونها أنَّها الفقه في الدين الذي جاء به المرسلون من قبل»[1]، وينسجم مع المقاصد الإلهيَّة في رجحان ميزان العدالة، وحفظ حقوق الناس من الضياع والظلم، ودوام الأمن والأمان في الأرض.

ومفعول المجاز الحِجَاجي يعتمد على توظيف الحرث في معرض الاستدلال والحِجَاج، وهو عنصر من العناصر الواقعيَّة الشاهَدة على وقوع الحادثة، إذ يحمل دلائل واضحة على إهمال أصحاب الغنم لها، ممَّا جعلها تنفش في الزروع والثمار دون وجود راعٍ يرعاها، ويمنعها من التخريب والتحطيم، ولذا انتقلت دعوى صاحب الحرث من الغنم إلى أصحابها بوصفهم المسؤولين عنها والقائمين عليها؛ لأنَّ كل خطأ ترتكبه فهم شركاء فيه، ويتحمَّلون تبعاته بصورة كليَّة، ويحاسبون عليه.

إنَّ التحاكم إلى أهل المعرفة والقضاء كفيل بتحقيق العدل والإنصاف بين البشر، ودحر الظلم والجور عنهم، وإرساء الأسس المتينة التي تعزِّز المنظومة الإنسانيَّة وفق التشريع الإلهي، وتزيد من درجة الإقناع والتأثير في المتلقِّين، وتدعم ما ينتج عن عمليَّة التقاضي من أحكام وتوجيهات بالالتزام بتنفيذها على أكمل وجه؛ لكي يعود الحق المنشود إلى صاحبه، ويدحض الخصم بالأدلَّة والبراهين، وهذه القصَّة فيها مقاصد سامية، تكمن في تثبيت الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- والمؤمنين على منهج الحق المبين، وتؤكِّد أنَّ إقامة العدل سنَّة راسخة في مسيرة جميع الأنبياء.

وفي سياق نفي الشركاء عن الله برز المجاز في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾ [القصص:٨٨]، ويبيِّن أنَّ كل شيء هالك وفانٍ إلا وجهه، له الحكم والملك والجبروت، ولا معبود يستحق الطاعة والعبادة بحق سواه، وإليه ترجع الخلائق جميعها يوم القيامة، فيجزي المحسنين بإحسانهم وأعمالهم الصالحة، والمسيئين بإساءتهم وأعمالهم السيئة.

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ١٧/١١٥-١١٦.

وتتجلَّى المحاجَّة في أنَّ كلمة (وجهه) تحمل العلاقة الجزئيَّة، حيث أطلق الجزء وأراد به الكل (ذاته وحقيقته)، واختيار الوجه دون غيره لم يكن اعتباطًا، بل يدل على التجلِّي والظهور والعظمة، والمقصود منه «إبطال الشرك وإظهار ضلال أهله، إذ يزعمون أنَّهم معترفون بإلهيَّة الله تعالى، وأنَّهم إنَّما اتخذوا له شركاء وشفعاء، فبيَّن لهم أنَّ الله لا إله غيره، وأنَّ انفراده بالإلهيَّة في نفس الأمر يقضي ببطلان الإشراك في الاعتقاد ولو أضعف إشراك...؛ لأنَّ هلاك الأشياء التي منها الأصنام وكل ما عبد مع الله وأشرك به دليل على انتفاء الإلهيَّة عنها؛ لأنَّ الإلهيَّة تنافي الهلاك، وهو العدم»[1]، وهذا ينقض ما يدعيه المشركون من جواز الشريك في الإلهيَّة، ويقرع حججهم الواهية ومزاعمهم الباطلة بالحجَّة المخرسة والبيِّنة الساطعة المستمدَّتَيْن من الشريعة الربَّانيَّة، التي تؤكِّد مسألة عقديَّة رئيسة لا جدال فيها ولا مناص منها، وهي أنَّه لا إله إلا الله وحده لا شريك له في وحدانيَّته وملكوته وربوبيَّته، وهو خالق كل شيء من لا شيء، بيده مقاليد السماوات والأرض، يصرِّف الأمور كيف يشاء، ولا يعجزه شيء في الكون، وليس له كفء من الخلق ولا نظير، وقدرته تفوق كل القدرات، وشأنه يعلو على كل شأن، وسلطانه يقهر كل سلطان.

ويكتسب المجاز مفعوله الحِجَاجي من تقرير الألوهيَّة والعبوديَّة لله وحده دون سواه، وبطلان اتخاذ الشفعاء والشركاء له؛ لأنَّ الله ليس بينه وبين عباده واسطة، من بعد أن أدَّى رسوله الأمانة، وبلَّغ الرسالة، ونصح الأمَّة، وتركها على المحجَّة البيضاء، التي لا يزيغ عنها إلا خاسر وهالك، ومصيره نار جهنم، وهذا يقوِّي في الأذهان حضور فكرة التوحيد والإيمان، وإبعاد فكرة الشرك والكفر.

وتتأسَّس العلاقة المجازيَّة في الآية الكريمة عن طريق عقد المقارنة بين الله -جلَّ جلاله- والإله الآخر الذي يدعونه من دونه، وتصل إلى نتيجة قطعيَّة تكشف عن زاويتَيْن: أولها: عظمة الله وقوَّته، واضمحلال الإله الآخر وشدَّة ضعفه. وثانيها: يرتبط بالمآل، فالله حي لا يموت ولا يهلك، وإليه المعاد، بخلاف الإله الآخر، فإنَّه هالك وزائل لا محالة. وكلتا الزاويتَيْن تسهم في إقناع المشركين بضلالة معتقداتهم وأفكارهم، ودعوتهم إلى الإقبال على الله، والامتثال لأوامره ونواهيه.

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٢٠/١٩٦-١٩٧.

وفي خضم الرد على الكافرين الضالين برز المجاز في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر:٣٠]، ويفصح عن المنتهى الحتمي الذي تؤول إليه البشريَّة قاطبة، وهو الانتقال من الدنيا إلى الآخرة بواسطة الموت، وقد كتبه الله عليهم من دون أن يستثني أحدًا منهم، فكل نفس ذائقة الموت لا مفرَّ لها منه، وإلى الله معادها وحسابها، فتكون النفس المؤمنة راضية مرضيَّة، أمَّا النفس الكافرة فتكون في شقاء وعذاب.

وحِجَاجيَّة المجاز تقوم على أنَّ جملة (إنَّك ميِّت وإنَّهم ميِّتون) فيها علاقة اعتبار ما سيكون، حيث أطلق حالة (الموت) على (الأحياء)، ولا يقصد منها ذكر الموت بمعناه المجرَّد فحسب، وإنَّما يقصد منها تأكيد قضيَّة جوهريَّة كبرى، وهي أنَّ الناس جميعهم صائرون إلى الموت مهما كانت أعمارهم وطبقاتهم، ومبعوثون ليوم عظيم يجعل الولدان شيبًا، ولا ينفع فيه مال ولا بنون إلا مَن أتى الله مؤمنًا مخلصًا. وجاء هذا المجاز المرسل مجلِّيًا قصديَّة الخطاب القرآني، إذ تمخَّضت عنه معانٍ عديدة وفوائد جمَّة، منها: التمهيد لذكر يوم القيامة وأهوالها، والتذكير بزوال الحياة الدنيويَّة، وحث المؤمنين على المبادرة للعمل الصالح، وإشعارهم بأنَّ الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- يموت كما مات النبيئون من قبله؛ ليغتنموا الانتفاع به في حياته، ويحرصوا على ملازمة مجلسه، وأن لا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره، وتعليم المسلمين أنَّ الله قد سوَّى في الموت بين الخلق كلهم مع تفاضلهم في غيره؛ لتكثر فيه السلوة، وتقل فيه الحسرة[1]، ويهون عليهم الأمر.

ويستمدُّ المجاز فاعليَّته من توظيف غير الكائن إبَّان الخطاب في مكان الكائن؛ لأنَّه يريد أن ينقلهم من حال الحياة إلى حال الموت، ويجعلهم يعيشون تفاصيل هذا الانتقال الذي يسعد به المؤمنون، ويشقى به الكافرون، ممَّا يستدعي الرد على منكري البعث والجزاء بالدليل الدامغ، وتفكيك حججهم المبنية على التمسُّك بالدنيا، والانقياد إليها، وترك الاستعداد للآخرة بالأعمال النافعة، ولذا اقتضى وعيدهم وتهديدهم وإنذارهم من الكفر والعصيان المؤدِّيَيْن إلى سوء العاقبة؛ بسبب عدم استجابتهم لداعي الله.

---

[1] ينظر: الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمَّنه من السنة وآي الفرقان، القرطبي، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي وكامل محمد الخرَّاط وغياث الحاج أحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، ١٨/٢٧٥-٢٧٦. وتفسير التحرير والتنوير، ٢٣/٤٠٤.

إنَّ الإخبار عن وقوع الموت لا محالة يتضمَّن حمولات حِجَاجيَّة، تدفع إلى التأثير في المخاطَبين وإقناعهم بأن يعيدوا النظر في مسار حياتهم الزائلة، ويبتعدوا عن الافتنان بالملهيات والملذَّات، ويستعدوا لحياتهم الباقية، حيث يترتَّب عليها إقصاء المعتقدات الكفريَّة المهلكة، وترسيخ المعتقدات الإيمانيَّة المنجية، التي تفتح آفاقًا متعدِّدة من التأمُّل والتفكُّر والاعتبار، وتعزِّز سلامة القول والعمل.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر:٥٦] ورد المجاز واصفًا الذين يجادلون في آيات الله بغير علم وسلطان بأنَّهم في أوحال الكِبْر ساقطون، وعن الحق معرضون، وفي البيِّنات الهاديات مشكِّكون، فما لهم من ولي ولا نصير.

والحجَّة في هذا المجاز تنهض على جانبَيْن: أولهما: يظهر أنَّ (في صدورهم) العلاقة المحليَّة، فقد أطلق المحل (الصدور) وأراد به الحال فيه (القلوب)؛ لأنَّ المقصود منه ليس الإشارة إلى تموضع الكِبْر المعهود في القلوب، وإنَّما المقصود منه بيان تمكُّن الكِبْر من الكفَّار وانقيادهم إليه، حيث أصبح منتشرًا ومتوغِّلًا في صدورهم متجاوزًا بذلك الجزء (الحال فيه) إلى الكل (المحل). وثانيهما: يكون في (إلا كبر ما هم ببالغيه) العلاقة السببيَّة، وهي إطلاق السبب (الكِبْر) على المسبَّب (دفع الآيات والإعراض عنها). وكلاهما ينعكس على الضالين بجلاء، وهم «يناقشون ويجادلون في آي القرآن، ويدفعون الحق بالباطل، بغير برهان ولا حجَّة أتتهم من الله، ما في قلوبهم إلا تكبُّر وتعاظم عن قبول الحق والتفكُّر فيه، وطمع أن يغلبوا محمدًا -صلَّى الله عليه وسلَّم- وتكون لهم الرياسة والنبوَّة بعده، ولكن ما هم ببالغي ذلك، ولا بحاصل لهم، ولا محقِّقي المراد، بل إنَّ راية الحق ستظلُّ مرفوعة، وقول المبطلين وفعلهم موضوع ذليل»[1]، ولذا جاء التوجيه بالاستعاذة بالله من الكِبْر[2]، ممَّا يؤكِّد شدَّة بشاعته وفظاعته، وأنَّه سبب مجادلة المشركين في آيات الله، وإثارة الشبهات حولها قصدًا، ومحاولة إبطال ما فيها من هداية ونور من دون مبرِّر وبيِّنة.

---

[1] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٤٦٥/١٢.

[2] وقد ورد في الحديث أنَّ الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- قال: «لا يدخل الجنَّة مَن كان في قلبه مثقال ذرَّة من كِبْر». صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكِبْر وبيانه، رقم الحديث: ٩١، ٩٣/١.

وتأتي فاعليَّة المجاز من تقرير مسألة مهمَّة، وهي أنَّ الله قد تكفَّل بنصرة أنبيائه المرسلين وعباده المؤمنين الصالحين على أعدائهم الكفرة المجادلين، ومهما حاولوا أن يمنعوهم من تبليغ الرسالة، ونشرها بين الناس، فإنَّ الله متم نوره لا محالة ولو كرهوا، وهذا يزيد من درجة التسليم والاقتناع والقبول بتلك الآيات البيّنات، ويكشف عن مقاصد الدعوة الإلهيَّة التي من شأنها تقريع المتكبِّرين، وردعهم عن كِبْرهم وضلالتهم، والتحذير من سلوك مسلكهم المهلك، ودعوتهم إلى الإيمان بالله، والتمسُّك بأوامره، واجتناب نواهيه.

إنَّ إدراك عواقب الكِبْر[1] الوخيمة كفيل بإظهار دقَّة اختيار الصدور في محل القلوب؛ لأنَّ الكِبْر لم يعد شعورًا يختلج في القلوب فحسب، بل صار متجذِّرًا في أعماق الصدور، ويسهم ذلك في تأسيس مفهوم إسلامي جديد، وهو (أنَّ الكبرياء لا يكون إلا لله وحده دون سواه)، ممَّا يؤدِّي إلى قمع أفكار المتكبِّرين الضالة التي تدور حول التعالي والإنكار والكفر، واستبدالها بأفكار المؤمنين القويمة التي تنبع من التشريع الإلهي، وهذا يساعد على تكثيف حضور هذه الأطروحة الحِجَاجيَّة المتمثِّلة في أنَّه لا يليق بالمخلوق البتَّة أن يتصف بصفة الخالق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥﴾ [الجاثية:٥] برز المجاز مبيِّنًا قدرة الله وعظمته في الكون، إذ تجلَّت في اختلاف الليل والنهار، وإنزال الرزق من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح، وهذه آيات جعلها الله لقوم يعقلون دلائله وبراهينه، ويتفكَّرون في ملكوته وخلقه.

وتكمن محاجَّة المجاز في أنَّ كلمة (رزق) العلاقة المسببيَّة، فقد أطلق المسبَّب (الرزق) على السبب (المطر)؛ لأنَّ الرزق الذي عليه معاش الناس لا ينزل من السماء مباشرة، وإنَّما الذي ينزل منها هو المطر، وينشأ عنه الرزق وسائر الخيرات، وهذا فيه «تبئير للقيمة الماديَّة أو المعنويَّة التي تتسبَّب عن المطر»[2]، وتأكيد لقضيَّة عقديَّة محوريَّة، تتمثَّل في وحدانيَّة الله وعظمته وقدرته،

---

[1] ينطوي الكِبْر على نتائج سيئة ناشئة عنه، منها: صرف المتكبِّر عن فهم آيات الله والاهتداء بها، والثواء في نار جهنم، وعدم محبَّة الله له، والاستعاذة منه. ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، إشراف: بكر عبدالله أبو زيد، دار عطاءات العلم للنشر، ط٥، ١٤٤١هـ- ٢٠١٩م، ٣٤٧/٢-٣٤٨.

[2] الحِجَاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظريَّة وتطبيقيَّة في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، ٤٥/١.

وأنَّه وحده دون سواه مدبِّر كل شيء في الفضاء الكوني، وبيده مقاليد السماوات والأرض، وما ذكر هذه الآيات الإلهيَّة، مثل: نزول الرزق من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها...إلخ، إلا دليل قاطع على تفرُّده تعالى بتلك القدرة العجيبة التي تفوق كل القدرات، وتعجز عن مجاراتها ومحاكاتها، والإتيان بشيء من مثلها. وتحمل هذه الآية الكريمة شحنة إقناعيَّة مؤثِّرة، تقتضي الرد على المنكرين لوجود الخالق، والمنكرين للبعث والنشور يوم القيامة، ومقارعة حججهم الباطلة بالحجَّة المفحمة والمسكتة، التي تستلزم رجاحة العقل ورصانته؛ لكي يدرك ويتأمَّل في مخلوقات الله، ويصل من خلالها إلى طريق الهداية والرشاد.

ويعتمد مفعول المجاز الحِجَاجي على استحضار المشاهَد في الحياة الواقعيَّة (نزول المطر من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها)، في سياق الإشارة إلى أمر غيبي (إحياء الله الموتى، وإخراجهم من قبورهم يوم القيامة)، وينطوي على معنيَيْن: ظاهر حسي قريب، ومضمر غيبي بعيد، وبينهما قواسم مشتركة في الموت والإحياء والإعادة، ولهذا توسَّل بـ«حسيَّات مدركة لا تحتمل أن تكون موضع جدل ومماراة، توطئة إيضاحيَّة لبيان معنويات يُمارَى فيها، أو تقرير غيبيَّات ليست من الحسيَّات والمدركات»[1]؛ وذلك لتقريب المشهد الأخروي من أفهام المتلقِّين، وتقوية حضوره في أذهانهم، وتعميق أثره في نفوسهم، ممَّا يزيد المؤمنين إيمانًا وثباتًا ويقينًا في معتقدهم الصحيح، ويجعل الكافرين أكثر قبولًا وإذعانًا لما يعرض عليهم من مسائل وقضايا تنبثق من الشريعة الإسلاميَّة، وتسهم في إقامة الحجَّة على المعاندين العاصين منهم، بعد أن تبيَّن لهم سبيل الحق والهدى.

ويوحي حشد هذه الأدلَّة الكونيَّة أنَّ العمليَّة الحِجَاجيَّة تسير في اتجاه واحد، يخدم نتيجة محدَّدة، وهي (توحيد الله، والإيمان به، وإفراده بالألوهيَّة والعبوديَّة والربوبيَّة)، وتفنيد كل ما يتعارض معها من معتقدات شركيَّة بالية، وتحطيم الأصنام والخزعبلات، سواء أكانت ماديَّة ملموسة أم معنويَّة تتصل بالعقل والعاطفة، وهذا يحقِّق مقاصد القرآن الكريم وغاياته، التي تنطلق من النتيجة نفسها وتعود.

وفي وصف حال قوم نوح -عليه السلام- عند دعوته لهم ظهر المجاز في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ

[1] الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنيَّة لغويَّة وبيانيَّة، عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، ص٢٤٨.

وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧﴾ [نوح:٧]، ويبيّن حجم إعراضهم واستكبارهم، إذ جعلوا أصابعهم في آذانهم امتناعًا عن سماعه، واستغشوا ثيابهم بُعدًا عن رؤيته، وأصرُّوا على كفرهم وإنكارهم إصرارًا شديدًا، فعاقبهم الله بالعذاب الأليم والهلاك.

والحجيَّة في هذا المجاز تأتي من ناحيتَيْن: أولها: يبرز في أنَّ (كلَّما دعوتهم لتغفر لهم) العلاقة المسببيَّة، وهي إطلاق المسبَّب (المغفرة) على السبب (الطاعة). وثانيها: يكون في أنَّ (جعلوا أصابعهم في آذانهم) العلاقة الكليَّة، فقد أطلق الكل (الأصابع) وأراد به الجزء (الأنامل)[1]؛ لأنَّ الأذن لا تتسع إلى دخول الأصبع كله، وإنَّما الذي تتسع إلى دخوله هو الأنملة، وهذه مبالغة صريحة في تعطيل حاسَّة السمع؛ وذلك لضمان عدم تسرُّب أي صوت إليها بتاتًا. وكلاهما يصوِّر «شدَّة إعراض الكفَّار، وفرارهم عن دعوة نوح -عليه السلام- ورفضهم السماع والنظر إليه كراهة وبغضًا»[2] وخوفًا من ولوج الإيمان إلى قلوبهم من دون إرادة منهم، فيرجعون عن غيِّهم وعصيانهم، ويستجيبون لداعي الله، ولذا اتخذوا كل السبل والحِيَل والوسائل؛ حتى يعبِّروا عن قوَّة عنادهم وإصرارهم على عدم التسليم والامتثال لتلك الدعوة المتواصلة، التي تسعى إلى تقويم حياتهم بما أمر الله من توحيد وعبادة وطاعة، بعد تماديهم في الكفر والفسوق والطغيان. وتتضمَّن العمليَّة التواصليَّة بين الرسول الداعي والقوم المدعوين طاقات حِجَاجيَّة مكثَّفة، تكشف عن الأساس المتين الذي يرتكز عليه الداعي في دعوته، والأساس الفاسد الذي بنى عليه المدعوون عقيدتهم الكفريَّة الواهية، فأصبحوا لا يرون غيرها عقيدة، ولا يعبدون غير الأوثان إلهًا، فانكفؤوا على أنفسهم لا يسمعون نداء الحق، ولا يعون ما يدعوهم إليه من الهداية والنور.

ويستقي المجاز مفعوله الحِجَاجي من توظيف المعتاد (دخول الأنملة في الأذن) في محل غير المعتاد (دخول الأصبع في الأذن)، ويريد من خلالها إبراز المرحلة الصعبة التي وصل إليها المعرضون الضالون في معرض دعوتهم وحِجَاجهم، إذ بالغوا في الإعراض والاستكبار، فأغلقوا آذانهم بعنف شديد حرصًا منهم على الابتعاد عن سماع مضامين الدعوة، والبقاء على ماضيهم الشركي المظلم، الذي هو سبب حرمانهم من الفوز بجنَّة عرضها السماوات والأرض، وسوقهم إلى نار جهنم.

---

[1] الأنامل: رؤوس الأصابع. لسان العرب، مادَّة: (نمل)، ١٤/٣٦٢.

[2] من بلاغة النظم القرآني، ص٣٧٣.

وللمجاز المرسل دور فاعل في إيقاظ عقول المخاطَبين، وتوجيهها إلى التمسُّك بالمنهج الربَّاني القويم، الذي يقودها إلى طريق الخير والرشاد، ويجرِّدها من الأفكار السابقة الخاطئة، ويجعلها أكثر موضوعيَّة واقتناعًا بما تحمله تلك الدعوة من إيمان وتوحيد، وهذا يدعم حضور الأطروحة المتمثِّلة في أنَّ القوَّة والمنعة لا تتأتَّى إلا بالامتثال لها والانقياد إليها، أمَّا الامتناع عنها والفرار منها فإنَّهما برهان ساطع على الضعف والهوان وقلَّة الحيلة.

المبحث الثالث

حِجَاجيَّة الاستعارة

الاستعارة هي «اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي»[1]، وتتضمَّن حمولات حِجَاجيَّة واستدلاليَّة، تسهم في تجلية قصديَّة الخطاب، وتقريبه من أذهان المخاطَبين؛ لكي يتحقَّق التأثير فيهم وإقناعهم بما يعرض عليهم من أطروحات وقضايا.

ويظهر هذا النوع في السور المكِّيَّة، ومنه ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨]، وجاءت الاستعارة في هذه الآية الكريمة مفصحة عن المحاذير المهلكة، التي يجب على كل مؤمن الابتعاد عنها وعدم الخوض فيها؛ لأنَّها تؤدِّي إلى الإعراض عن آيات الله والاستهزاء بها.

ومحاجَّة الاستعارة تنهض على أنَّه استعار (الخوض) للأخذ «في الحديث والشروع فيه على أفانين متنوِّعة، وأساليب متعدِّدة، على وجه العبث واللهو»[2] واللعب، إذ يقدِّم في وروده المرَّة الأولى أطروحة متنافية مع وروده المرَّة الثانية؛ لأنَّه أتى المرَّة الأولى في إطار المنع والإعراض عن الكافرين المكذِّبين الخائضين في الآيات البيِّنات، بخلاف المرَّة الثانية، فقد أتى في إطار السماح والإقبال عليهم إذا خاضوا في حديث آخر، وكلاهما يكشف عن خطورة الاستهزاء بآيات الله والتكذيب بها؛ لأنَّها منبع الهداية والنور، ومركز الحجَّة والدليل، وموطن الإحاطة والشمول، ولذا، فإنَّه لا يجب على الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- والمؤمنين أن يلازموا أولئك المنكرين الضالين، وأن يكونوا حافظين عليهم، بل يجب الاحتراز عن مقارنتهم، وترك مجالستهم[3]؛ لكي يقطعوا الجدال معهم، ويزجروهم عن كفرهم وضلالاتهم، لعلَّهم يرجعون إلى الحق المبين.

---

[1] علم البيان: دراسة تحليليَّة لمسائل البيان، بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، ص١٣٩.

[2] إعراب القرآن الكريم وبيانه، ٣٩٠/٢.

[3] ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، ٢١/١٣.

وتكتسب الاستعارة مفعولها الحِجَاجي من توظيف مفهوم الخوض، حيث البلل في الثياب والأجساد مع صعوبة التحرُّز منه، كما هو الحال مع مَن يخوضون في الآيات ويلغون فيها، وما يعتريهم من الوقوع في المحاذير الشرعيَّة، ويترتَّب على ذلك نقل المحسوس (الخوض في الشيء)[1] إلى المعقول (الخوض في الكلام)؛ حتى يعطي الصورة كثافة دلاليَّة وقوَّة تعبيريَّة، تسهم في ترسيخ مسألة رئيسة، وهي أنَّ آيات الله نزلت لهداية الناس قاطبة، وإخراجهم من ظلمات الكفر والعصيان إلى نور التوحيد والإيمان، وهذا يؤكِّد أنَّه لا يتناسب معها أبدًا أن تكون ميدانًا للخوض والعبث، ومسرحًا لأضغان الكافرين.

وتتأسَّس الصورة الاستعاريَّة في الآية الكريمة عن طريق إرساء منهج قويم يكفل التعامل الصحيح مع الكفرة الخائضين في الآيات، بحيث يتخذ من البُعد والهجران وسيلة لقطع الطريق عليهم، ومنعهم من التلبيس على المسلمين والتوغِّل في الباطل، فالحجَّة تتمثَّل في أنَّ (كل مَن يخوض في الآيات الهاديات عبثًا واستهزاء)، تكون النتيجة (الابتعاد عن مجالسته، ونبذ مصاحبته؛ لأنَّه مذكور في عداد القوم الظالمين).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف:١٥٤] برزت الاستعارة مبيِّنة الحالة الغاضبة التي وصل إليها موسى -عليه السلام- من بعد أن وجد قومه قد أطاعوا السامري في عبادة العجل[2]، وأعرضوا عن الهداية والنور، واستبدلوها بالكفر والضلال، ولم يمتثلوا لأخيه هارون عندما أمرهم بتوحيد الله، ونهاهم عن الشرك.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه استعار (السكوت) لذهاب الغضب، وكأنَّ الغضب «مغرٍ يثير موسى -عليه السلام- ويوغر صدره، ولذا ألقى الألواح وصنع ما صنع، فلمَّا سكت وكفَّ عن إغرائه، عاد موسى إلى حلمه وأخذ الألواح؛ ليبلِّغ رسالة ربِّه»[3] على أكمل وجه، ولا يأخذه في الحق لومة لائم، وهذا يبيِّن أنَّه اتخذ من الغضب وسيلة حِجَاجيَّة مؤثِّرة؛ لكي يعترض على ما فعله قومه في غيابه عنهم، ويردعهم عن طريق التيه والهلاك المتمثِّل في (عبادة العجل)، ويعيدهم إلى طريق الهدى والرشاد المتمثِّل في (توحيد الله وعبادته). وما سكوت الغضب إلا بؤرة مركزيَّة

---

[1] الخوض: حقيقته الدخول في الماء مشيًا بالرجلَيْن دون سباحة. تفسير التحرير والتنوير، ٢٨٩/٧.

[2] ينظر: قصص الأنبياء، ص٣٧٩-٣٨٩.

[3] من بلاغة النظم القرآني، ص٣٥٢.

في الخطاب القرآني، تعبِّر عن موقف موسى الحاسم من المشركين بطريقة مقنعة، وتكشف عن الأخطاء العقديَّة الفادحة التي ارتكبوها، وتقوِّض أركان دعواهم الواهية، وتدحض مزاعمهم الزائفة بالبيِّنة المسكتة والحجَّة المفحمة المستمدَّة من الشريعة الإلهيَّة، بحيث لا تدع مجالًا لهم للأخذ والرد، ممَّا يرسي دعائم العقيدة الصحيحة المتمثِّلة في أنَّه لا يستحق أحد أن يعبد إلا الله وحده لا شريك له.

وتستمدُّ الاستعارة فاعليَّتها من تجسيد المعاني المعقولة في صورة حسيَّة مشاهَدة، تسهم في بيان حجم الغضب الذي انتاب موسى -عليه السلام- من بعد أن وجد قومه على خلاف ما تركهم عليه من الإيمان والعبادة، ولذا جاء «تنزيل الغضب الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول منزلة الآمر بذلك المغري عليه بالتحكُّم والتشديد، والتعبير عن سكونه بالسكوت»[1] من باب إضفاء الحركة والحيويَّة على المشهد، وتقوية حضوره في الأذهان، وتعميق أثره في النفوس.

وللاستعارة دور فاعل في تنبيه القوم المشركين إلى ضلالاتهم وشركهم، وحملهم على الإذعان والتسليم، ودعوتهم إلى تصحيح مسارهم العقدي الخاطئ، وما يترتَّب عليه من أفكار ضالة ومواقف متطرِّفة، بما يتفق مع التوجيه الإلهي، الذي يراعي مستويات إدراك المخاطَبين، وكفايتهم المعرفيَّة والثقافيَّة، ويجعلهم أكثر إقبالًا واستجابة لما يطرح عليهم من مسائل مفصليَّة تتصل بالعقيدة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس:٤٢-٤٣] ظهرت الاستعارة موضِّحة حال الكافرين الضالين الذين يستمعون إلى الآيات البيِّنات، وينظرون إلى رسول الله، ولكنَّهم في منزلتَيْ الصم والعمي؛ لأنَّهم لشدَّة عنادهم وجحودهم لا ينتفعون بالحق المبين ولا يتبعونه.

وتقوم المحاجَّة على أنَّه استعار (الصم- العمي) لأولئك الكفَّار المنكرين الذين أوغلوا في إعراضهم عن الدعوة، وتعاميهم عن النور الساطع، ولم يمتثلوا لأوامر الله ونواهيه أبدًا، وقد

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٣/٣٥.

«ضـمُّوا إلى صَـممهم عـدم العقـل، وضـمُّوا إلى عَمـاهم عـدم التبصُّـر»[1]، فـلا جـرم أن كـان استمرارهم «على كفرهم مع سماعهم كلام النبيء أو رؤية هديه مؤذنًا ببلوغهم الغاية في الضلالة، ميئوسًا من نفوذ الحق إليهم، وليس ذلك لقصور كلامه عن قوَّة الإبلاغ إلى الاهتداء... فما عُدم انتفاع الكفَّار الذين يعاينون ذاته الشريفة بمعاينتها إلا لشدَّة بغضهم إيَّاه وحسدهم»[2] له، وإنكارهم الذي انطوت عليه قلوبهم، وأضمرته أنفسهم، ونطقت به ألسنتهم، وهذا لا يعني أنَّ الحجَّة لا تقام عليهم؛ لعدم التمكُّن من إسماعهم وهدايتهم، بل إنَّ طريق الهدى والرشاد واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، ولا يزيغ عنه إلا مَن خسر نفسه وأهلكها، ويكون مصيره الخلود الأبدي في النَّار.

وفاعليَّة الاستعارة تأتي من الاعتماد على المدركات الحسيَّة لدى الإنسان، وتتمثَّل في (السمع- البصر)، إذ يسعيان إلى تحقيق هدفَيْن رئيسَيْن: أولهما: هدف سطحي، وهو سماع المسموعات ورؤية المبصرات. وثانيهما: هدف عميق، ويقوم على تدبُّر المسموع وفهمه وتعقُّله، وإنعام النظر في الكون، وإدراك ما فيه من الشواهد والدلائل على عظمة الله وكمال قدرته؛ للتوصُّل إلى نعمة الهداية والإيمان، والتخلُّص من ظلمة الكفر والضلال[3]، وتحرير العقول من التبعيَّة العمياء والطاعة لغير الله.

إنَّ توظيف الثنائيَّة الضديَّة (السمع- الصم) و(البصر- العمي) في سياق دعوة الكافرين، يعدُّ دليلًا قاطعًا على وصول الرسالة إليهم بما لا يدع مجالًا للشك والتوهُّم، إذ أتى ذكرهم في الآيتَيْن الكريمتَيْن بأنَّهم يستمعون إلى الرسول وينظرون، ولكنَّهم امتنعوا عن الإقبال عليه، والانتفاع بما جاء به من الحق والرشد، ولذا انتقلوا من حالتَيْ السمع والبصر إلى حالتَيْ الصم والعمي، وعند تأمُّل هذه النهاية المؤسفة، فإنَّه يتحقَّق التأثير في المتلقِّين وإقناعهم بأنَّ الكفرة معطَّلو الإدراك والمعرفة والوعي، فمثلهم مثل البهائم.

وفي خضم الحديث عن قصَّة يوسف -عليه السلام- وردت الاستعارة في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ [يوسف:٤٤]، وتبيّن النتيجة النهائيَّة التي وصل إليها المعبّرون الذين سألهم الملك عن تعبير رؤياه، إذ عجزوا عن تأويلها جهلًا منهم

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ١٧٨/١١.

[2] المرجع السابق، ١٧٧/١١.

[3] ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ١٩٧/٦.

بمضمونها ودلائلها؛ بحجَّة أنَّها أضغاث أحلام[1] لا تُعبَّر أبدًا، ممَّا دفع الملك إلى البحث عمَّن يعبِّر رؤياه حتى وصل إلى يوسف الصدِّيق.

وحِجَاجيَّة الاستعارة تنهض على أنَّ المعبِّرين استعاروا (الأضغاث) للأحلام في أثناء حديثهم عن الرؤيا، التي أثارت هول الملك ودهشته، وتعجَّب من أمرها، وكيفيَّة تفسيرها. وقد أتت هذه الآية الكريمة جوابًا عن السؤال الوارد في الآية السابقة لها في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَايَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف:٤٣]، وتبريرًا لما يراه المعبِّرون من جهتهم بأنَّ الرؤيا مختلطة وباطلة وملتبسة، أمَّا من جهة الملك، فإنَّه يرى في ذلك قصور علمهم وعجزهم عن تعبيرها، إذ ينطلق من يقين تام بصدق ما تحمله رؤياه من دلائل وعلامات، وهذا ما جعله لا يكتفي بأعذارهم الواهية وتبريراتهم غير المنطقيَّة، فكانت حجَّتهم المقدَّمة حجَّة عليهم وباعثًا رئيسًا حدا به إلى الاتصال بيوسف -عليه السلام-؛ لكي يعبِّر تلك الرؤيا المحيِّرة، التي جعل الله في حسن تأويله لها سببًا لبراءته من اتهام امرأة العزيز، وإخراجه من السجن[2]، وتمكينه في الأرض، وإنقاذ الناس من سنوات القحط والهلاك، فإذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وما حضور هذه الرؤيا في قصَّة يوسف إلا برهان عملي على صدق نبوَّته، وكمال علمه في تأويل الرؤى، وسعة رحمة الله ولطفه بعباده الصالحين.

ومفعول الاستعارة الحِجَاجي يعتمد على توظيف ما كان من نهج كلام العرب في استعمال (أضغاث أحلام) بوصفها مثلًا يُضرب «للرؤيا الكاذبة، التي يكون فيها أنواع من المرائي العجيبة الغريبة»[3]، ولا يتمكَّن معظم المعبِّرين من تأويلها؛ لعدم وضوح القرائن والأحوال لهم، وتحتاج إلى عالِم ضليع متبحِّر في تعبير الرؤى، مثل: يوسف الصدِّيق، يستطيع أن يضع الرؤيا في إطارها الصحيح بما أوحى الله إليه، وألهمه من العلم النافع، واليقين المطلق، فتصبح حقيقة مشاهَدة.

وينطوي الخطاب القرآني على طاقة تأثيريَّة وإقناعيَّة، تظهر أنَّ المعبِّرين الأوائل الذين لجأ إليهم الملك قد جانبوا الصواب في تأويل رؤياه، ولم يرتكزوا على أسس واضحة وقويَّة، ولذا، فإنَّ

---

[1] أضغاث أحلام: أي أخلاط أحلام كاذبة لا تعبير لها إلا ذاك. أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، ٦١٦/٢.

[2] ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١١٨/١٨.

[3] الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص١٤٦.

الله أنقذهم بالنبي يوسف، حيث اضطلع بدور ريادي ومحوري في تصحيح مسار حياتهم المعيشيَّة والاقتصاديَّة، وأخذ الحيطة والحذر من تقلُّبات السنين، وإعداد العدَّة لأي طارئ، وهذا يسهم في تقريب المشهد من أذهان المخاطَبين، وترسيخ أثره في نفوسهم.

وفي صدد الحديث عن الكتاب العظيم جاءت الاستعارة في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم:١]، وتظهر الغاية الكبرى التي من أجلها أنزله الله إلى رسوله الكريم، وهي إخراج الناس قاطبة من الظلمات والشرك إلى النور والهداية؛ لكي يكونوا على صراط العزيز الحميد.

والحجَّة تقوم على أنَّه استعار (الظلمات) للضلالة والكفر والشك، و(النور) للإيمان والهدى واليقين؛ حتى يكشف بجلاء عن حقيقة الكافرين غير المهتدين وحقيقة المؤمنين المهتدين، وبين هاتَيْن الحقيقتَيْن المتضادَّتَيْن بون شاسع، ويكمن جوهر الفرق فيما بين سواد الظلمة وبياض النور، ممَّا يؤكِّد مسألة رئيسة تبيِّن العلاقة التكامليَّة ما بين الدنيا والآخرة، وهي أنَّ الظلمات الدنيويَّة تقود إلى الظلمات الأخرويَّة المنتهية بدخول النَّار، في حين أنَّ النور الدنيوي يؤدِّي إلى النور الأخروي المنتهي بدخول الجنَّة، وقد «جمعت الظلمات إشارة إلى أنَّ طرق الضلال كثيرة، وأفرد النور تنبيهًا إلى أنَّ طريق الإيمان واحد»[1] مستقيم. وفي إحالة الإخراج إلى الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- دلالة على أنَّه المكلَّف بتبليغ «هذا الكتاب المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان وإظهار فساد الشرك والكفر، وهو مع التبليغ يبيِّن للناس، ويقرِّب إليهم معاني الكتاب بتفسيره وتبيينه، ثم بما يبنيه عليه من المواعظ والنُّذر والبشارة... وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات دلَّ على أنَّ الهداية هي مراد الله تعالى من الناس»[2]، والهدف الأسمى الذي أنزل الكتاب العظيم من أجل تحقيقه.

وتستقي الاستعارة مفعولها الحِجَاجي من الحياة الواقعيَّة، فظلمة الليل ونور النهار مظهران من المظاهر الكونيَّة المعهودة في كل يوم، ولا يخفى أثرهما البالغ في حياة الإنسان، وتوظيفهما في سياق دعوة الناس إلى الحق المبين، يساعد على تجلية الصورة بما يجعلها أكثر فعاليَّة وجدوى؛ لأنَّ «حكم القيمة الذي تحمله الاستعارة يكون أنجع في الحِجَاج وأقطع للَّجاج من حكم القيمة

---

[1] البيان في ضوء أساليب القرآن، عبدالفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، ص١٦٢.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ١٣/١٨٠.

الذي يحمله اللفظ على الحقيقة... فإنَّ كلمة (الظلمات) مطلقة على الكفر أشد وقعًا في نفس المتلقِّي من لفظ الكفر مجرَّدًا، وكذلك لفظ (النور) مطلقًا على الإيمان»[1]، وهذا يسهم في الانتقال من دائرة المعقول المجرَّد إلى دائرة المحسوس المشاهَد، بحيث تراها العيون، وتدركها العقول، وتكون بذلك أقوى في التأثير، وأبلغ في البيان.

ويتضمَّن المعنى الاستعاري في الآية الكريمة حمولة حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، ترسِّخ بالدليل القاطع والبيِّنة المفحمة ثلاثة قضايا مفصليَّة: الأولى: أنَّ الكتاب العظيم منزَّل من عند الله تعالى، وقد اشتمل على المحامد كلها، وجاء ذكره هنا في مقام الامتنان على الناس، والتفضُّل عليهم. والثانية: أنَّ محمدًا رسول الله، والمكلَّف بمهمَّة تبليغ الرسالة إلى العالمين. والثالثة: أنَّ إنزال الكتاب وإرسال الرسول لم يأتيا إلا لإنقاذ الناس من الهلاك، وإخراجهم من عمياء الكفر والجهل إلى بصائر الإيمان والعلم. وكل هذه القضايا مجتمعة تمثِّل دعائم العقيدة الصحيحة التي يجب على كل إنسان أن يؤمن بها ويتمسَّك.

وفي قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحجر:٩٤] وردت الاستعارة مفصحة عن الطريقة التي يعتمد عليها الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- وفق التوجيه الإلهي في إيصال الرسالة، إذ يصدع[2] بما يؤمر من دون أن يبالي بأولئك المشركين المنكرين، الذين وقفوا بكل جبروت وشراسة في وجه الدعوة الإسلاميَّة، وضلُّوا عن طريق الهدى والحق، ولم يرعووا أبدًا عن تلك الضلالات والأوهام، فكانت مواجهتهم بالقوَّة والحجَّة السبيل الأنجع إلى ردعهم وإلجامهم.

ومحاجَّة الاستعارة تأتي من أنَّه استعار (الصدع) لإبلاغ الدعوة والجهر بها؛ لأنَّ «الصدع بالأمر لابد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة، والتبليغ قد يصعب حتى لا يكون له تأثير، فيصير بمنزلة ما لم يقع. والمعنى الذي يجمعهما الإيصال، إلا أنَّ الإيصال الذي له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ»[3] في التعبير، وأعمق في النفس، وهذا يبيِّن الدور المحوري المنوط برسول الله في إطار توجيهه إلى نشر الرسالة الربَّانيَّة الخالدة في أوسع نطاق، حيث أظهر المشركون الاعتراض على الآيات البيِّنات، والتصدِّي لها بالإنكار والتكذيب، والوقوف بكل ما أوتوا من قوَّة ومكر

---

[1] الحِجَاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة، ص٥٩٠.

[2] الصدع: الجهر والإعلان. تفسير التحرير والتنوير، ١٤/٨٨.

[3] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّمَّاني والخطَّابي وعبدالقاهر الجرجاني في الدراسات القرآنيَّة والنقد الأدبي، ص٨٧.

ضد بيانها وانتشارها، ممَّا يوحي بأنَّ اختيار فعل الأمر (اصدع) دون غيره من الأفعال لم يكن محض صدفة، بل أتى في مكانه الصحيح؛ لكي يعبِّر بوضوح عن موقف الإسلام الحاسم من الكفرة المناهضين، الذين تبنَّوا معتقدات كفريَّة ضالة وأفكار فوضويَّة باطلة، وكأنَّ الصدع (الجهر) بالحق المبين سبَّب صدعًا (شرخًا) في نفوس الكفَّار، وقوَّض أركان مزاعمهم الواهية، ودحض حججهم الزائفة، ومهما قالوا وفعلوا، فإنَّ الله متم نوره لا محالة ولو كرهوا.

وتستمدُّ الاستعارة فاعليَّتها من تشكيل الأمور المعنويَّة (الجهر بالدعوة) في صورة حسيَّة مرئيَّة (الصدع بالشيء)، وتكشف عن جانبَيْن رئيسَيْن: الأول: الطريقة العمليَّة الفعَّالة في تقرير العقيدة الإسلاميَّة الصحيحة، وإقصاء العقيدة الشركيَّة الخاطئة. والثاني: القوَّة الإبلاغيَّة والحِجَاجيَّة التي ينطوي عليها الخطاب الدعوي الإسلامي في مواجهة براثن المشركين ومواربتهم. وكلا الجانبَيْن يدعم القضيَّة المصيريَّة الكبرى، التي تقوم على أنَّه لا إله إلا الله وحده لا شريك له في الألوهيَّة والعبوديَّة.

وتتأسَّس الصورة الاستعاريَّة في الآية الكريمة عن طريق ترسيخ المنهج القويم، الذي يعزِّز فعاليَّة الدعوة إلى الإسلام، ويضمن التعامل السليم مع الكافرين الجاحدين، بما يحقِّق التأثير فيهم وإقناعهم بأنَّ القلوب الكافرة تنصدع من بيان الحق، ويكون فيها التقبُّض والإنكار والاستبشاع، أمَّا القلوب المؤمنة فإنَّها تنصدع من بيان الحق أيضًا، ولكنَّها تستبشر به[1] وتتبعه، وشتَّان بين هذه القلوب وتلك.

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل:٢٦] برزت الاستعارة مبيِّنة المصير الحتمي الذي ينتهي إليه المشركون، من بعد تماديهم في الفسوق والطغيان، ومخالفتهم أوامر الله ونواهيه، وتكذيبهم رسله، فكان الدمار والهلاك الجزاء الأوفى لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون.

والحجيَّة تتجلَّى في أنَّه استعار (حال القوم الذين بنوا البنيان، وأرسوا قواعده، ثم خرَّ[2] عليهم سقف بنيانهم من فوقهم، وأهلكهم جميعًا) لحال القوم الذين مكروا بالرسول والمؤمنين

---

[1] ينظر: من بلاغة النظم القرآني، ص٣٦٤.

[2] الخرور: السقوط والهوي. تفسير التحرير والتنوير، ١٣٤/١٤.

المكر السيء، وألبسوا الحق بالباطل، ولم يكفُّوا أبدًا عن غيِّهم وضلالهم، والجامع بين الحالَيْن يظهر فيما ظنُّوا أنَّه مصدر أمانهم وقوَّتهم، صار سببًا لفنائهم وإبادتهم[1]، وهذا فيه وعيد وتهديد للكفرة الماكرين «برجوع غائلة مكرهم إلى أنفسهم كدأب مَنْ قبلهم من الأمم الخالية، الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل»[2]. وتعدُّ هذه الاستعارة نتيجة نهائيَّة لمقدِّمة حِجَاجيَّة مهمَّة جاءت في بداية الآية الكريمة نفسها، وتتمثَّل في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ممَّا يبرهن على عدل الله تعالى، فهو لا يحاسب أحدًا من العالمين إلا بعد أن يرسل إليهم رسولًا منهم، ويدعوهم إلى الدين القيِّم؛ حتى يصبح مستقرًّا ثابتًا واضحًا في أذهانهم وضوح الشمس، فإن هم أطاعوا الله ورسوله فقد فازوا فوزًا عظيمًا، وإن هم عصوا الله ورسوله فقد خسروا خسرانًا مبينًا.

وفاعليَّة الاستعارة منتزعة من واقع الحياة المعيشة، إذ وظَّفت مظهرًا محسوسًا مرئيًّا (البنيان وما يعتريه) في سياق تبيان أمر معنوي، يتمحور حول (أثر الكفر والعصيان على أصحابه)، وهذا يبيِّن أنَّهم أسَّسوا بنيان معتقدهم الواهي على شفا جرف هارٍ، ولذا أراد الله أن يجعل من حال القوم السابقين نموذجًا معلومًا في العناد والشرك لدى المتلقِّين، ودليلًا قاطعًا على العاقبة الوخيمة التي يصل إليها كل مَن مكر واستكبر، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، ولن تجد لسنَّة الله تبديلًا.

وللاستعارة دور بارز في الكشف عن ضلالات الكفَّار الماكرين، وتنبيههم إلى خطورة الاستمرار فيها، وتحذيرهم من سوء المنقلب وبئس المآب، وحملهم على التسليم والإقناع من خلال توجيههم إلى المسلك الصحيح، الذي يخرجهم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الهداية والعلم، ويكونون بذلك أكثر قبولًا واستجابة لما يعرض عليهم من قضايا ومسائل تميِّز الحق الأبلج من الباطل اللجلج.

وفي بيان حال القرية التي ضرب الله بها المثل ظهرت الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢]،

---

[1] ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٣٦٦/٧.

[2] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٥٥/٤.

وتوضِّح النهاية المأساويَّة التي آلت إليها من بعد أن كفرت بالنعم، فعاقبها الله بالمجاعة والهلع جزاء بما كانوا يصنعون.

وتنهض المحاجَّة على أنَّه استعار (الإذاقة) للباس، و(اللباس) للجوع والخوف؛ لكي يصوِّر حجم العقوبة التي نزلت بالقرية عندما جحد أهلها أنعم الله عليهم، ولم يكونوا من الشاكرين الحامدين، فصار هذا التحوُّل الفظيع من كونها آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل حدب وصوب إلى كونها جائعة خائفة غير مستقرَّة، وكأنَّ هذه العقوبة امتدَّ أثرها إلى كل ما في القرية من نباتات وجمادات وحيوانات، حيث يرمز (الذوق- اللباس) إلى مرحلة النماء والرخاء، وسعة الرزق، واستتباب الأمن، في حين أنَّ (الجوع- الخوف) يرمز إلى مرحلة الجدب والشدَّة، وضيق الرزق، وزوال الأمن، وأسهمت الاستعارة إسهامًا كبيرًا من خلال استحضار هاتَيْن المرحلتَيْن معًا في «تأسيس نسق من التضايف جديد، يحمل الواقع على اللاواقع، ويرسي ماهيَّة اللاماهيَّة»[1]، ويحقِّق معنيَيْن أساسَيْن، وهما: قوَّة الإصابة، والشمول والإحاطة[2]. وقد عُرف في لسان المخاطَبين أن يقولوا عمَّا عوقب على جريمة أو أُخذ بجريرة: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه العذاب، وإن كانت عقوبته ليست ممَّا يُحسُّ بالطعم، ويُدرك بالذوق، فجرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها، وكذلك اللباس يبيِّن ما غشيهم من الجوع والخوف، والتبس بهم، واشتمل عليهم كاشتمال الملابس على الجلود[3]. فاستعارة الإذاقة واللباس تعبِّر عن الحالة المؤسفة التي وصلت إليها القرية، وتؤكِّد بجلاء الأثر السيء الذي يتركه الكفر على الإنسان والمكان من محق الخيرات والنعم، وذهاب البركات والراحة، والشقاء في الدنيا والآخرة.

ويعتمد مفعول الاستعارة الحِجَاجي على تجسيد المعاني المعقولة في صورة حسيَّة مشاهَدة، تسهم في تقديم النموذج العملي (إهلاك القرية) بمثابة البرهان الساطع على وقوع الدمار والفناء لمن يكفر بالله، ويعصي أوامره، ويجحد فضائله، وهذا يرسِّخ الموقف الإلهي الثابت الذي يدعم

---

[1] الخيال: مفهوماته ووظائفه، عاطف جودة نصر، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٢٦٢.

[2] ينظر: من بلاغة النظم القرآني، ص٣٦١.

[3] ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، حقَّقه وقدَّم له وصنع فهارسه: محمد عبدالغني حسن، دار إحياء الكتب العربيَّة، القاهرة، ط١، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م، ص١٩٦-١٩٧. وتفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٥٨٦/١٤.

حضور مسألة رئيسة، وهي أنَّ النجاة من الهلاك والسلامة من العذاب مقرونتان بتوحيد الله وعبادته، والابتعاد عن كل ما يتعارض معهما.

إنَّ معرفة نتيجة جحود النعم والصدود عن دعوة الحق كفيلة بإقناع الكفرة المنكرين والتأثير فيهم، وتغيير ما كانوا عليه من الأفكار الضالة والمواقف الخاطئة، المنطلقة من أساس فاسد ومعتقد باطل، واستبدالها بالأفكار القويمة والمواقف الصائبة، المنبثقة من الشريعة الإسلاميَّة، وتكمن البؤرة المركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة في تأمُّل حيثيات الانتقال من مشهد الأمان والطمأنينة إلى مشهد الجوع والخوف، وما يصحبهما من أحداث ودلائل تثبت قدرة الله وعظمته في تدبير الكون.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء:١٣] جاءت الاستعارة مؤكِّدة أنَّ أعمال العبد دقيقها وجليلها مدوَّنة ومحفوظة، بحيث تخرج له يوم القيامة في كتاب منشور، ويجد فيه كل ما عمل في حياته الدنيويَّة من خير أو سوء محضرًا، ويجزى به، والله لا يظلم أحدًا من العالمين شيئًا، وإن كان مثقال حبة من خردل.

وحِجَاجيَّة الاستعارة تقوم على أنَّه استعار (الطائر)[1] لعمل الإنسان سواء أكان خيرًا أم شرًّا، وهو «مأخوذ من زجر الطير على مذاهب العرب [في الجاهليَّة]؛ لأنَّهم يتبركون بالطائر المتعرض من ذات اليمين، ويتشاءمون بالطائر المتعرض من ذات الشمال... وجعل سبحانه الطائر مكان الدليل الذي يستدل به على استحقاق الثواب والعقاب»[2]، إذ يكون ملازمًا للإنسان أينما ذهب، ويرصد كل صغيرة وكبيرة رصدًا دقيقًا، ولا يترك شاردة ولا واردة إلا يأتي بها، فهو شاهد عيان يرى ويسمع ويكتب، وهذا يؤسِّس لمفهوم إسلامي جديد، يقوم على تغيير الصورة الذهنيَّة السائدة عن رمزيَّة الطير، التي كانت تستعمل بوصفها مقياسًا للتفاؤل والتشاؤم في الحياة اليوميَّة، ممَّا أدَّى إلى ترك التوكُّل على الله، والاعتماد على غيره، والبُعد عن

---

[1] هناك وجهان معروفان من التفسير: الأول: أنَّ المراد بالطائر العمل. الثاني: أنَّ المراد بالطائر ما سبق له في علم الله من شقاوة أو سعادة. والقولان متلازمان؛ لأنَّ ما يطير له من العمل هو سبب ما يؤول إليه من الشقاوة أو السعادة. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٣/٥٥٠.

[2] تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص١٩٩.

الحقيقة، والتمسُّك بالأوهام، فهذه عادة جاهليَّة شركيَّة[1] تتنافى مع أصول التوحيد والعقيدة، التي ترتكز على إفراد الله وحده دون سواه بالعبادة والطاعة والتوكُّل. وهذا التحوُّل الدلالي من الحالة الدنيويَّة (اليمين/التفاؤل- الشمال/التشاؤم) إلى الحالة الأخرويَّة (اليمين/الثواب ودخول الجنَّة- الشمال/العقاب ودخول النَّار)[2] يمثِّل مركزًا للحِجَاج والاستدلال، ويؤكِّد قضيَّة عقديَّة محوريَّة ينكرها الكافرون، وهي (البعث والحساب يوم القيامة)، ويفنِّد دعواهم الواهية بالحجَّة المفحمة والأدلَّة القطعيَّة المستمدَّة من القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة، بما يثبت وقوعها في اليوم الآخر، فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

وتكتسب الاستعارة مفعولها الحِجَاجي من توظيف الموروث الثقافي في سياق الإخبار عن المصير الحتمي الذي يؤول إليه الإنسان، ويدل توجيه الخطاب إلى العنق دون غيره من الأعضاء على «شدَّة اللزوم وكمال الارتباط بين الإنسان وعمله... ولأنَّه العضو الذي تارة يكون عليه ما يزينه كالقلادة وما يشبهها، وتارة يكون فيه ما يشينه كالغل والقيد وما يشبههما»[3]، وكذلك أعمال العبد إمَّا أن تزينه فيعلو، وإمَّا أن تشينه فيدنو.

ويتضمَّن المعنى الاستعاري في الآية الكريمة طاقات تأثيريَّة وإقناعيَّة، تسهم في تقريب المشهدَيْن الدنيوي والأخروي من أفهام المتلقِّين، وتقوية حضورهما في أذهانهم، وتعميق أثرهما في نفوسهم؛ لأنَّهما يجسِّدان واقع البشريَّة في صورة محسوسة موحية، تبيِّن لهم طريق الحق والهداية وطريق الباطل والضلالة، وشتَّان بينهما، ويتحمَّل كل واحد مسؤوليَّة اختياره وأعماله، فالحجَّة تنهض على أنَّ (كل إنسان يلزمه طائره في عنقه)، وتفضي إلى نتيجة مفادها أنَّه (يلقى يوم القيامة كتابًا منشورًا، فلا يحاسب إلا بعمله).

وفي خضم الحديث عن برِّ الوالدَيْن وردت الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء:٢٤]، وتكشف عن الطريقة المثلى في التعامل معهما، وتتمثَّل في خفض جناح الذل من الرحمة، ولين الجانب

---

[1] وقد ورد في الحديث أنَّ رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- قال: «الطيرة من الشرك وما منَّا إلا، ولكنَّ الله يذهبه بالتوكُّل». الجامع الكبير، أبواب السير، رقم الحديث: ١٦١٤، ٣/٢٥٨-٢٥٩.

[2] ينظر: سورة الواقعة: ٢٧-٥٦. وفيها ذكر حال أصحاب اليمين وحال أصحاب الشمال يوم القيامة.

[3] التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار المعارف، القاهرة، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، ٨/٣١٠.

والتواضع، والدعاء لهما، والإحسان إليهما، وتعظيم مكانتهما، والبُعد عن التقليل من شأنهما والتعالي عليهما.

ومحاجَّة الاستعارة تأتي من أنَّه استعار (الجناح) للذل؛ لكي يظهر الدور المحوري المطلوب من الابن تجاه والدَيْه، ويحقِّق مقاصد الشريعة الإسلاميَّة التي تعزِّز دعائم بناء المجتمع الأسري المتمركز حول جانبَيْن: أولها: جانب نفساني، وهو تربية نفوس الأبناء على الاعتراف بالجميل لوالديهم، وإسداء الشكر الجزيل لهم كما أمر الله بذلك تنويهًا بفضائلهم ومعروفهم. وثانيها: جانب عمراني، وهو أن تكون أواصر العائلة قويَّة العُرى مشدودة الوثوق من خلال حسن المعاشرة والتوادد والتحابب[1]. وكلا الجانبَيْن يؤكِّد وجود علاقتَيْن تلازميَّة وتبادليَّة، فالعلاقة التلازميَّة تتجلَّى في الإحسان إلى الوالدَيْن، والرفق بهما، والتلطُّف معهما؛ لنيل رحمة الله ورضوانه، أمَّا العلاقة التبادليَّة فإنَّها تكمن في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾، وكما رحم الوالدان أبناءهم في صغرهم وضعفهم، فإنَّه يجب على الأبناء رعاية والديهم ورحمتهم في كبرهم وضعفهم. وما خفض جناح الذل إلا بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، تبرز عظم مكانة الوالدَيْن، ودور الأبناء تجاههما في ضوء التوجيه الإلهي، الذي يزيد البار بهما برًّا وإحسانًا وامتنانًا، ويردع العاق لهما عن عقوقه ونكرانه الجميل، وهناك فرق كبير وشاسع بين البار والعاق.

وتنتزع الاستعارة فاعليَّتها من الاعتماد على واقع الحياة اليوميَّة، إذ جسَّدت المعاني المعنويَّة (التواضع والتذلُّل للأبوَيْن) في صورة حسيَّة ملموسة (خفض جناح الطائر)، تساعد على تقديم موضوع (برِّ الوالدَيْن) بأسلوب حِجَاجي مقنع، وتقريبه من عقول المخاطَبين، وترسيخ المنهج القويم في معاملتهما، بحيث تكون فكرة البرِّ والإحسان أكثر تأثيرًا وقبولًا من فكرة العقوق والعصيان.

وينطوي الخطاب القرآني على طاقة استدلاليَّة وقوَّة تعبيريَّة، تفصح عن الغاية الكبرى التي عليها مدار الآية الكريمة، وهي أنَّ رضا الله لا يتأتَّى إلا برضا الوالدَيْن، وكأنَّ جناح الذل هو الذي يؤدِّي بالابن البار إلى جنَّات النعيم، وهذا يسهم في إحداث هزَّت في النفوس، وتحريك

[1] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ٧٣/١٥.

كوامنها، وزيادة مقبوليَّة الذل الناشئ عن الرحمة والشفقة، ممَّا يجعل الحياة في طاعة الوالدَيْن حياة طيِّبة محاطة بالتوفيق والرضوان.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم:٤] برزت الاستعارة مبيّنة الحالة التي وصل إليها زكريا -عليه السلام- من بعد أن كبر عمره، ووهن عظمه، وانتشر الشيب في رأسه، ولم يكن له ولد يرثه ويرث من آل يعقوب، وكانت امرأته عاقرًا، ولذا دعا ربَّه أن يهب له من لدنه وليًّا، فبشَّره بغلام اسمه يحيى[1].

والحجَّة تقوم على أنَّ زكريا استعار (اشتعال النَّار) لانتشار الشيب؛ لكي يعبّر بجلاء عن المرحلة العمريَّة المتقدِّمة التي بلغها، ومن أبرز ملامحها: الكبر في السن، والعجز عن العمل، والوهن في العظام. وهناك أربعة أمور متقاربة تجمع بين النَّار والشيب: أولًا: السرعة، وتبرز في النَّار حين تشتعل وتندلع ألسنتها، فإنَّها تسرع في التهام ما تمتدُّ إليه، وهكذا الشيب لا يكاد يخط الرأس حتى يمتدَّ بسرعة عجيبة. ثانيًا: تعذُّر التلافي: ويظهر في النَّار إذا شبَّت وتطاير لهيبها اجتاحت كل ما تصادفه، وقد يتعذَّر إخمادها، وكذلك الشيب ينتشر انتشارًا سريعًا في أجزاء الرأس، بحيث يتعذَّر تلافيه. ثالثًا: الألم: ويتجلَّى في النَّار بوصفها لذَّاعة كوَّاءة تؤلم مَن تلامسه، وهكذا الشيب يؤلم الأشيب عند تذكُّره عنفوان شبابه وقوَّته. رابعًا: المصير: ويبدو في مصير النَّار بعد أن تفعل أفاعيلها وتبلغ غايتها تتحوَّل إلى الخمود والانطفاء، وكذلك مصير الإنسان من بعد الفتوَّة والنضارة ينتهي إلى الشيخوخة والذبول[2]. وكل هذه الأمور مجتمعة تعدُّ مقدِّمات حِجَاجيَّة مهمَّة، تمهِّد إلى استدرار رحمة الله ولطفه، واستجابة الدعاء، وتحقيق العجائب والمعجزات.

وتأتي فاعليَّة الاستعارة من استحضار مظهر حسي مشاهَد من مظاهر الحياة الواقعيَّة، وهو (اشتعال النَّار في الحطب)، وتوظيفه في سياق الإخبار عن حال زكريا -عليه السلام- الذي بلغ من الكبر عتيًّا، وأوغل فيه الضعف والعجز، وليس له ولد يحمل من بعده الميراث العظيم، وامرأته كانت عاقرًا لا تلد، ولكنَّه مع ذلك لم يفقد الأمل بالله أبدًا، إذ دعاه أن يهب له من لدنه وليًّا رضيًّا، فاستجاب الله لدعائه، ورزقه بغلام لم يجعل له من قبل سميًّا، فتعجَّب

---

[1] ينظر: قصص الأنبياء، ص٥٤٣-٥٥٤.

[2] ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه، ٤/٥٦٩-٥٧١.

زكريا من تحقُّق أمنيته المستحيلة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم:٨]، ولم يكن معترضًا على حكم ربّه البتَّة، وإنَّما كان منبهرًا من حصول هذا الأمر؛ لأنَّه خارق للعادة، وفوق الطاقة البشريَّة، فذكَّره الله تعالى بعظيم قدرته وكمال قوَّته في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم:٩]، وأثبت أنَّه -جلَّ جلاله- إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وهو عليه هيِّن ويسير، ممَّا يبيِّن أنَّ الحِجَاج في القرآن الكريم ليس «استدلالًا محضًّا، بقدر ما هو خطاب ينشط في إطار وضعيَّة تخاطبيَّة معيَّنة تضمُّ طرفًا محاوِرًا وطرفًا محاوَرًا، كما تتأسَّس على الصورة التي تصنع إطارها الأطراف المتحاورة كل من جهته، ضمن عمليَّة التبادل الخطابي»[1]، التي يتحقَّق من خلالها المقاصد الربَّانيَّة بطريقة مقنعة مؤثِّرة، وبما لا يدع مجالًا للشك والتوهُّم.

وللاستعارة دور فاعل في تقديم النموذج العملي المتمثِّل في (قصَّة دعاء زكريا وبشارته بيحيى) بمثابة الدليل القاطع، الذي يؤكِّد أنَّ الانكسار بين يدي الله، والتضرُّع إليه بصدق وإخلاص، وإبداء الحال والحاجة، وسيلة فعَّالة لتفريج الكربات وتحقيق المستحيلات، وتقوية صلة العبد بربِّه، وهذا يدعم حضور الأطروحة الحِجَاجيَّة التي ترتكز على أنَّ المحال عند البشر يكون عند الله ممكنًا وهيِّنًا، فلا يعجزه شيء في الكون.

وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [الأنبياء:١٨] ظهرت الاستعارة موضِّحة النهاية الحتميَّة التي يصل إليها الباطل، من بعد أن جاء الحق منطلقًا من أساس قوي ومتين، وكل ما يتعارض معه لا يلبث طويلًا حتى تتهدَّم أركانه، وينحسر دوره، ويمحى من الوجود، ويصبح لا شيء يذكر، وهكذا ينتصر الحق الدامغ على الباطل الزاهق.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه استعار (القذف- الدمغ)[2] لإيراد الحق على الباطل ودحضه، وهذا يكشف بجلاء عن الصراع الأزلي بينهما، الذي ينتهي دائمًا بانتصار «الحق الربَّاني على الباطل، بصورة قذيفة صلدة، وهي تمثِّل حجج الحق وبراهينه وقوى الربَّانيين المناصرين له،

---

[1] الحِجَاج بين المنوال والمثال: نظرات في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري، علي الشعبان، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٧.

[2] القذف: رمي جسم على جسم. والدمغ: كسر الجسم الصلب الأجوف. تفسير التحرير والتنوير، ٣٤/١٧.

فتصيب رأس هدفها فتكسره، وتنفذ إلى دماغه، وترديه صريعًا قتيلًا متلاشيًّا، وهذا الهدف يمثِّل الباطل وحججه الزائفة وهياكله المزخرفة المبهرجة، والقوى الماديَّة التي تدعمه وتنصره»[1]. وأسهمت الاستعارة إسهامًا كبيرًا من خلال ثنائيَّة الحركة والسكون في تجلية جانبَيْن متضادَّيْن: جانب القذف: ويبرز في الأداء الحركي، إذ يوحي بالقوَّة والمنعة والصلابة في وقوف الحق في وجه الباطل، والاعتراض على ما أتى به من ضلالات وترهات وخزعبلات. وجانب الدمغ: ويظهر في الإصابة المتمكِّنة، التي يصبح الباطل بعدها ساكنًا لا يُبدئ في أمر ولا يُعيد، ولا يُقدِّم من شأن ولا يُؤخِّر، وليس له في الوجود لا أثر ولا تأثير. وكلا الجانبَيْن يثبت مسألة مصيريَّة محسومة من عند الله تعالى، وهي أنَّ الحق منتصر وثابت مهما صغر وانزوى، وأنَّ الباطل مهزوم وزائل مهما كبر وانتفش.

ومفعول الاستعارة الحِجَاجي يعتمد على تشكيل المعاني المعقولة (الحق- الباطل) في صورة محسوسة مرئيَّة (القذف- الدمغ)، تساعد على عرض الموضوع المراد بأسلوب معبِّر ومقنع، وتقريبه من أفهام المتلقِّين، وتقوية حضوره في أذهانهم، وتعميق أثره في نفوسهم، وترسيخ المنهج الربَّاني القويم الذي يجعل فكرة انتصار الحق على الباطل أكثر فعاليَّة وكفاءة من فكرة انتصار الباطل على الحق.

وتتأسَّس الصورة الاستعاريَّة في الآية الكريمة عن طريق تقرير القدرة الإلهيَّة في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وتقديم الشواهد الدامغة والدلائل المسكتة، التي تسهم في تنزيه الله تعالى ورسوله الكريم عن كل شائبة وعائبة، وتقويض مزاعم الكافرين وافتراءاتهم، ونبذ العقيدة الشركيَّة الخاطئة، وتعزيز وجود العقيدة الصحيحة، وهذا ما يؤدِّي إلى استجلاء ماهيَّة هاتَيْن العقيدتَيْن، واستيعاب جدليَّة الحق والباطل.

وفي خضم وصيَّة لقمان الحكيم لابنه جاءت الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان:١٩]، وتكشف عن القيم الأخلاقيَّة المثلى التي تعين على بناء شخصيَّة إنسانيَّة متزنة، تتسم بالتوسُّط والاعتدال من غير إفراط ولا تفريط، وتبتعد عن كل ما يشوبها من نقص وعيب، وتقود زمام الحياة إلى مواطن الخير والسلام.

---

[1] أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، ص١٦٨.

وتنهض المحاجَّة على أنَّه استعار (صوت الحمير) للرافعين أصواتهم، وفيه «مبالغة شديدة في الذم والتهجين، وإفراط في التشبيط عن رفع الصوت، والترغيب عنه»[1]؛ لأنَّه يتصل اتصالًا وثيقًا بحياة الإنسان من جوانب عدَّة، أهمها: الأول: ما يرتبط بالمعتقد، وهو أنَّ الصوت المرتفع من عمل الشيطان[2]، وأخلاق الجاهليَّة، وصفات المشركين، في حين أنَّ غض الصوت من علامات الإيمان، وأخلاق المؤمنين وصفاتهم. الثاني: ما يرتبط بالصحَّة، وهو أنَّ الصوت العالي «يؤذي السامع، ويقرع الصماخ بقوَّة، وربما يخرق الغشاء الذي داخل الأذن»[3]، ممَّا يعطِّل آلة السمع عن العمل، ويحدث الارتباك والقلق، بخلاف الغض من الصوت، فإنَّه يورث الهدوء النفسي والتفاعل الإيجابي، والابتعاد عن الاضطرابات العصبيَّة والاكتئاب والتوتر. الثالث: ما يرتبط بالسلوك، وهو أنَّ الصوت المرتفع يدل دائمًا «على الغرور والاعتداد بالنفس وعدم الاكتراث بالغير، واعتدال الصوت أوقر للمتكلِّم، وأقرب لاستيعاب الكلام ووعيه وفهمه»[4]، واحترام الآخرين وتقديرهم. وكل هذه الجوانب مجتمعة تعدُّ حجَّة مقنعة، تدعم تقويم المسار الإنساني وفق التعاليم الإلهيَّة.

وتستقي الاستعارة مفعولها الحِجَاجي من الاعتماد على بيئة المخاطَبين الواقعيَّة، إذ استدعت منها صوتًا نشازًا (صوت الحمير) بوصفه أنكر الأصوات وأقبحها على الإطلاق؛ لأنَّ «أوله زفير، وآخره شهيق، ولذلك ضرب الله المثل به؛ لقباحته وشناعته»[5]، وجعله في صورة مستهجنة بشعة؛ لكي يظهر حجم الخطأ الذي يقع فيه رافعو أصواتهم من دون حاجة، ويحذِّر النفوس البشريَّة من مغبَّة هذه الصفات المشينة، وينفِّرها عن الاقتراب من أولئك؛ لأنَّهم أصبحوا في منزلة الحمير.

إنَّ معرفة ما تخلص إليه وصيَّة لقمان الحكيم لابنه كفيلة بترسيخ مفهوم الوسطيَّة والاعتدال، الذي يعكس ظاهر الإنسان ومكنونه، إذ تجسَّد من خلال محورَيْن: محور الأقوال:

---

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٨٣٨/٢١.

[2] وفي الحديث أنَّ النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- قال: «... إذا سمعتم نهيق الحمار فتعوَّذوا بالله من الشيطان، فإنَّه رأى شيطانًا». صحيح البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، رقم الحديث: ٣٣٠٣، ص٥٣٧-٥٣٨.

[3] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١٣٢/٢٥.

[4] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ١٦٦/١١.

[5] الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص٢٥١.

ويمثِّله (الصوت)؛ لأنَّه يحمل في طيَّاته اللفظ والمعنى، وأصل التعبير والإفصاح. ومحور الأفعال: ويمثِّله (المشي)؛ لأنَّه يعبِّر حركيًّا عن المعاني، مثل: الكبر والغرور، أو التواضع والتؤدة. وبين الغض من الصوت والقصد في المشي مناسبة دلاليَّة تحرِّك مدارك النظر والتفكير، وتحقِّق التأثير والإقناع.

وفي صدد الحديث عن المؤمنين المخلصين وردت الاستعارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر:٢٩]، وتبيِّن النتيجة النهائيَّة التي ينتهون إليها في تجارتهم الرابحة مع الله، ويكمن سر الربح والفلاح في أنَّهم بذلوا الأسباب من تلاوة القرآن الكريم، وإقامة الصلاة، والإنفاق ممَّا رزقهم سرًّا وعلانيَّة.

وتقوم حِجَاجيَّة الاستعارة على أنَّه استعار (التجارة) للعمل الصالح، وبينهما علاقة وثيقة تتمثَّل في «طلب النفع من ذلك العمل ومزاولته والكد فيه»[1]، ويتمركز حول ثلاثة عناصر رئيسة: العنصر الأول: (يتلون كتاب الله)، حيث تلهج به الألسن، وتعيه القلوب، وتمتثل لما فيه من الهداية والنور. العنصر الثاني: (وأقاموا الصلاة)، إذ تشترك في هذه العبادة العظيمة كل الجوارح، وتكون في هيئة أقوال وأفعال مقصودة. العنصر الثالث: (وأنفقوا ممَّا رزقناهم سرًّا وعلانيَّة)، فهو يختصُّ بالناحية الماليَّة التي تدل على السماحة بالإنفاق، وحب البذل والعطاء في السرِّ والعلانيَّة. وتكتمل بهذه العناصر الثلاثة الصفات الحميدة، التي يجب على كل مؤمن أن يتخلَّق بها ويتمسَّك؛ لأنَّها تجمع له ما بين عمل القلب وعمل الجوارح في عبادة الله وطاعته[2]، وتساعده على الوصول إلى الغاية الكبرى، وهي عدم بوار تلك التجارة يوم القيامة، وهذا يؤكِّد أنَّ التجارة مع الله «ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران»[3] من المنظور الدنيوي؛ لأنَّها اشتراء باقٍ بفانٍ، ومضمونة الربح، وتراعي كل الإمكانات البشريَّة، وتتماهى معها بكل يسر وسهولة.

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ١٩٤/٢٨.

[2] ينظر: تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم: قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، القاهرة، ١٩٩١م، ١٢٥٠٠/٢٠.

[3] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٢٨٢/٥.

وتستمدُّ الاستعارة فاعليَّتها من الاعتماد على الفضاء التجاري، إذ وظَّفت الجانب الإيجابي فيه (الربح) في سياق بيان أثر الأعمال الصالحة على العبد في الدنيا والآخرة، وأراد أن يقدِّم نموذجًا حيًّا معلومًا لدى المتلقِّين بمثابة الدليل؛ لكي يزيد من ترغيبهم في دخول هذه التجارة الرابحة، ويدعم أهميَّة القرآن الكريم، والصلاة، والإنفاق، وضرورة تفعيلها في الحياة اليوميَّة وفق التوجيهات الإلهيَّة، حتى يتحقَّق الظفر والفوز بدخول جنَّة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

ويتضمَّن المعنى الاستعاري في الآية الكريمة حمولات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تسهم في تأسيس مفهوم إسلامي عظيم، ينهض على التجارة مع الله، ويغيِّر الأفكار الدنيويَّة الفانية القائمة على الثنائيَّة الضديَّة (الربح- الخسارة)، وتبديلها بالأفكار الأخرويَّة الباقية القائمة على الأحاديَّة (الربح)؛ لأنَّ الخسارة في هذه التجارة غير واردة ولا محتملة، والقاسم المشترك بين المؤمن الصالح والتاجر الناجح هو العمل بصدق وإخلاص، والتحلِّي بالصبر والأمانة، واغتنام الفرص، وروح المبادرة والالتزام، ولذا، فإنَّ توظيف المجال التجاري أقوى في التأثير، وأعمق في النفس، وأبلغ في التعبير عن العلاقة الوطيدة بين العبد وربِّه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس:٣٧] برزت الاستعارة مبيِّنة عظمة الله في الكون، إذ خلق السماوات والأرض، وما فيها من الليل والنهار، وقدَّرها بقدر معلوم، وجعلها آية من الآيات البيِّنات الدالَّة على قدرته العجيبة التي تفوق كل قدرات المخلوقين، وشأنه الذي يعلو على كل شأن، وسلطانه الذي يقهر كل سلطان.

والحجَّة تتجلَّى في أنَّه استعار (السلخ)[1] لظهور النهار من ظلمة الليل؛ لكي يبيِّن القدرة الإلهيَّة الباهرة في تدبير الزمان وتسخيره لتحقيق المصالح البشريَّة، والجامع بين سلخ الجلد وسلخ النهار هو «ما يعقل من ترتُّب أمر على آخر، فإنَّه يترتَّب ظهور اللحم على كشط الجلد، وظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل»[2]. وأسهمت الاستعارة إسهامًا كبيرًا في تجلية أمرَيْن جوهريَيْن: أولهما: ما يحمله الفعل المضارع (نسلخ) من دلالة إسناديَّة، تثبت أنَّ الذي يحصل ليس من تلقاء نفسه أبدًا، بل هو بفعل الله ورحمته وحكمته. وثانيهما: ما في الليل

[1] السلخ: إخراج الشيء ممَّا لابسه والتحم به. تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص٢٧٤.

[2] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٠/١٢.

والنهار من علامة بارزة تدل على الموت والنشور، فإنَّ الليل ساكن كالموت، والنهار متحرّك كالحياة، والناس في الليل أموات ينشرهم ربُّهم في النهار[1]. وكلا الأمرَيْن ينقض دعوى منكري وجود الله تعالى، الذين من مزاعمهم أنَّ الكون خلق نفسه بنفسه من دون خالق، ودعوى منكري البعث بعد الموت، ويرد عليهم بالبيِّنة المفحمة والبراهين المسكتة المستمدَّة من التشريع الربَّاني، الذي يؤسِّس في هذا المقام لأصلَيْن عظيمَيْن من أصول العقيدة الإسلاميَّة، وهما: الأصل الأول: الإيمان بالله، وإفراده بالألوهيَّة والعبوديَّة وحده دون سواه. والأصل الثاني: الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحساب.

وفاعليَّة الاستعارة تأتي من استدعاء صورة من صور الحياة الواقعيَّة، وتتمثَّل في (فصل الجلد عن الدابة)، وتوظيفها في سياق بيان قدرة الله وعظمته في تعاقب الليل والنهار بطريقة منتظمة، وهذا يكشف عن ملمح آخر، وهو أنَّ العرب في الأعراف الاجتماعيَّة تستعمل سلخ الجلد عن الذبيحة وإعداد الوليمة إكرامًا للضيف ونحوه، وكذلك الله تعالى يستعمل سلخ النهار عن الليل إسباغًا للنعم على الناس، وهم ضيوف في أرضه، إذ تستوجب هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى شكر الله بعبادته، والامتثال لأوامره ونواهيه، وشتَّان بين كرم المخلوق المحدود وكرم الخالق المطلق.

وينطوي الخطاب القرآني على طاقة تأثيريَّة وإقناعيَّة، ترسِّخ بالحجَّة الدامغة والأدلَّة الحسيَّة القدرة الربَّانيَّة في خلق الكون وتدبيره، والغرض منها تقريب طريقة عمل الليل والنهار من أفهام المخاطَبين، وتعميق أثرها في نفوسهم، وتقوية حضورها في أذهانهم، ممَّا يزيد المؤمنين المهتدين إيمانًا ويقينًا وتثبيتًا، ويردع الكافرين الضالين عن كفرهم وعصيانهم وتكذيبهم، ويهديهم إلى سبيل الحق والرشاد.

ويظهر ممَّا سبق أنَّ المجاز بأقسامه الثلاثة: المجاز العقلي، والمجاز المرسل، والاستعارة، قد تجلَّى في السور المكِّيَّة تجلِّيًا حِجَاجيًّا مؤثِّرًا، وأسهم في تجسيد المعاني المعقولة المجرَّدة في صور حسيَّة معبِّرة، تدفع المتلقِّي إلى الإذعان والتسليم بما تطرحه عليه من مسائل مصيريَّة كبرى، مثل: توحيد الله وطاعته، والبعث والجزاء بعد الموت...إلخ.

---

[1] ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ٦٢/٢٦. وعلى طريق التفسير البياني، فاضل صالح السامرائي، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م، ١٧٨/٢-١٨٠.

الفصل الثالث:

حجاجيَّة الكناية والتعريض

الفصل الثالث

حِجَاجيَّة الكناية والتعريض

حظيت الكناية والتعريض باهتمام من النقَّاد والبلاغيين قديمًا وحديثًا؛ لأنَّهما وسيلتان من الوسائل الحِجَاجيَّة التي تسهم بجلاء في إثارة المتلقِّي وتحفيز عقله ووجدانه، بما يخدم أطروحة معيَّنة أو قضيَّة معروضة، تقوده إلى الإذعان لها والقبول بها.

والكناية في اللُّغة «أن تتكلَّم بشيء وتريد غيره. وكَنَى عن الأمر بغيره يَكني كِناية: يعني إذا تكلَّم بغيره ممَّا يستدل عليه»[1]، و«يقال: كنَنْتُ الشيء في كِنِّه، إذا جعلته فيه وصُنته. وأكننتُ الشيء: أخفيته»[2]. في حين أنَّ التعريض في اللُّغة «عرَّضَ لفلان وبه إذا قال فيه قولًا وهو يعيبه... يقال: عرَّضَ لي فلان تعريضًا إذا رَحْرَح بالشيء ولم يبيِّن. والمعاريض من الكلام: ما عُرِّض به ولم يصرَّح... والتعريض: خلاف التصريح. والمعاريض: التورية بالشيء عن الشيء»[3]. وكلاهما يتمحور حول معاني التستر والإخفاء والإضمار ونحوها.

أمَّا في الاصطلاح فقد تعدَّدت تعريفات الكناية والتعريض، ومن أهمِّها:

- في الكناية:

– ذهب "عبدالقاهر الجرجاني" (ت٤٧١هـ) إلى أنَّ الكناية هي «أن يريد المتكلِّم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلًا عليه»[4]. فـ"الجرجاني" يقصد بالكناية اللفظ المستعمل في معناه الرديف، الذي يلمح إلى معناه الأصلي، ويجعل الأول دليلًا على الثاني.

– عرَّف "السكاكي" (ت٦٢٦هـ) الكناية بأنَّها «ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك»[5]. ويشير "السكاكي" إلى أنَّ الكناية تتحقَّق في الانتقال من اللازم إلى الملزوم، بحيث يذكر الجانب المتروك، ويترك الجانب المذكور.

---

[1] لسان العرب، مادَّة: (كني)، ١٢٤/١٣.

[2] معجم مقاييس اللُّغة، مادَّة: (كن)، ١٢٣/٥.

[3] لسان العرب، مادَّة: (عرض)، ١٠٨/١٠.

[4] كتاب دلائل الإعجاز، ص٦٦.

[5] مفتاح العلوم، ص٤٠٢.

– ذكر "القزويني" (ت٧٣٩هـ) أنَّ الكناية هي «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ»[١]. ويبيّن هنا أنَّه يجوز في الكناية إرادة المعنى الأصلي مع إرادة لازمه احترازًا من المجاز.

● في التعريض:

– أشار "الثعالبي" (ت٤٢٩هـ) إلى أنَّ التعريض هو «أن تذكر شيئًا لتدل به على شيء لم تذكره، فاللفظ في التعريض مستعمل في معناه للتلويح به إلى غيره»[٢]. فـ"الثعالبي" يقصد أنَّ التعريض يشتغل ضمنيًّا غير مصرَّح به في سياق الكلام، وهناك قرائن يمكن الاستدلال بها على الشيء المقصود.

– تحدَّث "الطيبي" (ت٧٤٣هـ) عن التعريض بأنَّه «الكلام المشار به إلى جانب، وإيهام أنَّ الغرض جانب آخر»[٣]. ويقوم التعريض عند "الطيبي" على جانبَيْن: جانب سطحي غير مقصود، وجانب عميق مقصود.

– رأى "الشريف الجرجاني" (ت٨١٦هـ) أنَّ التعريض هو «ما يفهم به السامع مراده من غير تصريح»[٤]. ويركّز هنا على ما يفهمه السامع من مضمون الكلام، ويصل به إلى الشيء الذي يريده.

وبهذا يتضح أنَّ الكناية والتعريض لم يذهبا بعيدًا في الاصطلاح عن المعنى اللُّغوي، فقد تضافرت الرؤى والمفاهيم واتفقت على مسألتَيْن: أولها: عدم التصريح بالشيء. وثانيها: الاستناد إلى السياق والقرائن؛ لاستكناه المعنى المراد غير المعلن.

والفرق الجوهري يكمن في أنَّ «التعريض أخفى من الكناية؛ لأنَّ دلالة الكناية لفظيَّة وضعيَّة من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي... لأنَّ المعنى فيه يفهم من عُرْضه أي من جانبه... واعلم أنَّ الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركَّب معًا،

---

[١] الإيضاح في علوم البلاغة، ص٣١٣.

[٢] الكناية والتعريض، الثعالبي، دراسة وشرح وتحقيق: عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٥٦.

[٣] التبيان في البيان، شرف الدين الطيبي، قرأه وعلَّق عليه: يحيى مراد، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ص١٢٧.

[٤] التعريفات، الشريف الجرجاني، وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، ص٦٦.

فتأتي على هذا تارة، وعلى هذا أخرى، وأمَّا التعريض فإنَّه يختص باللفظ المركَّب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتَّة. والدليل على ذلك أنَّه لا يُفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وإنَّما يُفهم من جهة التلويح والإشارة»[1]. فالكناية تُعنى باللفظ والسياق معًا، أمَّا التعريض فيُعنى بالسياق وحده.

وللكناية والتعريض مكانة رفيعة في الكلام، و«قد أجمع الجميع على أنَّ الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح»[2]، وهما واديان من أودية البلاغة، ومقتلان من مقاتل البيان العربي، وغايتان لا يصل إليهما إلا مَن لطف طبعه، وصفت قريحته، وطريقان جميلان من طرق التعبير الفنِّي، ووسيلتان قويَّتان من وسائل التأثير والإقناع[3]، التي تجسِّد المعاني المعقولة في صور محسوسة مؤثِّرة، فتسترعي الانتباه، وتسترق القلوب، وتدهش الألباب.

وقيمة الكناية والتعريض الحِجَاجيَّة تتمثَّل في تقديم المعاني بطريقة إيحائيَّة غير مباشرة، ومصحوبة بالدليل والبرهان؛ لأنَّ حضور الشيء ومعه دليله وبرهانه يكون أكثر تثبيتًا في الأذهان وتأكيدًا، وأشد وقعًا في النفوس وتأثيرًا[4]، وهذا يسهم في تكثيف الاستدلال في معرض الحِجَاج؛ لكي يؤدِّي بالمتلقِّي إلى الإذعان والتسليم.

أمَّا الكناية والتعريض في القرآن الكريم فإنَّهما فوق طاقة بني الإنسان؛ لما فيهما من روعة التعبير، وجمال التصوير، وألوان الأدب والتهذيب ما لا يستقل به بيان، ولا يدركهما إلا مَن تذوَّق حلاوة القرآن، وينطوي تحتهما لطائف وأسرار[5]، وحجج وبراهين، وطاقات إقناعيَّة وتأثيريَّة، تدعم تجلية قصديَّة الخطاب القرآني؛ وذلك لإرساء مفهوم أو تغيير موقف أو تعديل سلوك أو تقويم فكرة أو تبيان أمر، بما يراعي مستويات إدراك المخاطَبين وكفايتهم المعرفيَّة والثقافيَّة، وهذا يقودهم إلى القبول والاقتناع بالقضايا والأطروحات المعروضة من خلال الكناية والتعريض.

---

[1] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٣/٥٧.

[2] كتاب دلائل الإعجاز، ص٧٠.

[3] ينظر: الأسلوب الكنائي: نشأته- تطوُّره- بلاغته، محمود السيِّد شيخون، مكتبة الكليَّات الأزهريَّة، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م، ص٨٧.

[4] ينظر: الكناية والتعريض، ص٤٤.

[5] ينظر: الأسلوب الكنائي: نشأته- تطوُّره- بلاغته، ص١٠١.

وقد استقرَّت الكناية عند البلاغيين على ثلاثة أقسام: كناية عن صفة، وكناية عن موصوف، وكناية عن نسبة[1]. في حين أنَّ التعريض منهم مَن أدخلَه ضمن الكناية[2]، ومنهم مَن فرَّق بينهما، وجعل التعريض مستقلًّا بذاته[3]، ويأتي على قسمَيْن: «قسم يراد به معناه الحقيقي، ويشار به إلى المعنى الآخر المقصود. وقسم لا يراد معناه الحقيقي... فيكون من مجاز التمثيل»[4]. ويرى الباحث أنَّ التعريض تختلف طريقة اشتغاله عن الكناية، حتى لو كان بينهما تقارب، ويضطلع كلاهما بدور كبير في إظهار الجوانب الحِجَاجيَّة التي تحتوي عليها السور المكِّيَّة.

وتكون دراسة هذا الفصل في مبحثَيْن على النحو الآتي:

المبحث الأول: **حِجَاجيَّة الكناية**.

المبحث الثاني: **حِجَاجيَّة التعريض**.

---

[1] ينظر: الكناية والتعريض، ص٢٢. والتصوير البياني: دراسة تحليليَّة لمسائل البيان، ص٤١٩.

[2] ينظر: مفتاح العلوم، ص٤٠٣. والإيضاح في علوم البلاغة، ص٣٢١.

[3] الحق أنَّ الكناية العرضيَّة غير التعريض وإن سميت به؛ فالكناية العرضيَّة هي التي يكون الموصوف فيها غير مذكور، والتعريض إمالة الكلام إلى عرض يدل على المقصود. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبدالمتعال الصعيدي، الناشر مكتبة الآداب، القاهرة، ط١٠، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، ١٦٢/٣.

[4] كتاب عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصريَّة، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، ٢١٧/٢.

المبحث الأول

حِجَاجيَّة الكناية

الكناية هي «لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادته معه»[1]، ويحمل في طيَّاته طاقة حِجَاجيَّة وحمولة تأثيريَّة، تدفع المتلقِّي إلى الامتثال والاقتناع بما تطرحه عليه من مسائل وأطروحات وقضايا.

ويظهر هذا النوع في السور المكِّيَّة، ومنه ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام:٤٥]، وجاءت الكناية في هذه الآية الكريمة مفصحة عن المصير الحتمي الذي ينتهي إليه القوم الضالون؛ بسبب كفرهم، وطغيانهم، ومخالفتهم أوامر الله، وتكذيبهم رسله، فكان قطع دابرهم[2] بالهلاك الجزاء الأوفى لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون.

ومحاجَّة الكناية تنهض على أنَّه كنَّى بـ(قطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله) عن إهلاكهم واستئصال شأفتهم، ومحو آثارهم، ونزع ظلمهم من جذوره؛ لأنَّ «إهلاك الكفَّار والعصاة، من حيث أنَّه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة، وأعمالهم الخبيثة، نعمة جليلة مستجلبة للحمد، لا سيما مع ما فيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم -عليهم السلام-»[3]، وإرساء دعائم الدعوة الإلهيَّة الخالدة، التي من شأنها تقرير قضيَّة عقديَّة محوريَّة، وهي أنَّ الألوهيَّة والعبوديَّة لله وحده لا شريك له، ودحض معتقدات المشركين المبنية على تركهم سبيل الهداية والرشاد، وانغماسهم في الدنيا وملذَّاتها، وعدم إيمانهم بالله وتوحيده، ولذا أتى الخطاب القرآني مشحونًا بطاقات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تكشف عن قدرة الله وعظمته في قطع دابر الذين ظلموا أنفسهم بعصيانهم وإنكارهم، ولم يستجيبوا لداعي الحق والهدى، فكانت نهايتهم المؤسفة ميدانًا للتفكُّر والتأمُّل والمراجعة.

وتكتسب الكناية مفعولها الحِجَاجي من الصورة الذهنيَّة التي رسمها القرآن الكريم للقوم الظالمين، إذ وظَّفت مآلات قصَّتهم في أثناء الحديث عن أثر العناد والتكبُّر عن الامتثال لأوامر

---

[1] كتاب عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ٢٠٦/٢.

[2] دابر الشيء: آخره. لسان العرب، مادَّة: (دبر)، ٢٠٩/٥.

[3] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٣٨٣/٢.

الله ونواهيه، وأراد أن يجعل منهم نموذجًا معلومًا في العصيان والكفر لدى المخاطَبين، ودليلًا قاطعًا على العاقبة الوخيمة التي يصل إليها كل مَن صدَّ عن ذكر الله واستكبر، وهذا يسهم في تنفير النفوس عن الاقتراب من ميادين الشرك والضلال، وأخذ العظة والعبرة من أولئك القوم الذين هلكوا بسوء أعمالهم.

إنَّ معرفة نتيجة الصدود عن دعوة الحق والاستكبار عنها كفيلة بإقناع الكفرة العاصين والتأثير فيهم، وتغيير مواقفهم الزائفة وأفكارهم الضالة، وتبنّيهم قضيَّة التوحيد والإيمان بدلًا من قضيَّة الكفر والطغيان، فالحجَّة تتمثَّل في أنَّ (القوم الذين لم يؤمنوا بالله عنادًا وتكبُّرًا، فقد ظلموا أنفسهم ظلمًا شديدًا)، وتفضي إلى نتيجة مفادها (استئصالهم من الوجود بإهلاكهم وقطع دابرهم؛ جزاء لهم).

وفي بيان المنتهى الذي وصل إليه قوم موسى -عليه السلام- برزت الكناية في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف:١٤٩]، وتبيّن حجم الأسف والندم الذي وقع في نفوسهم، من بعد أن اتخذوا إلهًا يعبدونه من دون الله، ولم يسلكوا سبل الفلاح والنجاة، فأصبحوا من الخاسرين.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه كنَّى بـ(لمَّا سُقط في أيديهم) عن شدَّة الندم الذي تمكَّن من قوم موسى -عليه السلام-؛ إثر مخالفتهم أمر ربِّهم بعبادتهم العجل[1]؛ «لأنَّ من شأن مَن اشتدَّ ندمه وحسرته أن يعض يده غمًّا، فتصير يده مسقوطًا فيها، لأنَّ فاه قد وقع فيها، و(سُقط) مسند إلى (في أيديهم)»[2]؛ لإبراز الحالة النفسيَّة الصعبة التي انتابتهم، والكشف عن ضلالاتهم وكفرهم، وتفنيد حججهم الواهية ومزاعمهم الباطلة التي دفعتهم إلى عبادة الأوثان في غياب كليم الله موسى، والانحراف عن جادَّة الصواب والهداية. وأسهمت الكناية إسهامًا كبيرًا في إيصال الفكرة بطريقة مقنعة، «وإن كانت تعني في دلالتها الرئيسة السقوط النفسي المتمثِّل في الندم والتحسُّر الذي يتجسَّد في صورة حسيَّة إلا أنَّ فيها إيحاء السقوط لإلههم المزعوم (العجل) من أعلى إلى أسفل في نفوسهم وفي واقعهم، وفي ذلك تتجلَّى السخريَّة منهم ومن إلههم الذي لا يملك حياة

---

[1] ينظر: قصص الأنبياء، ص٣٧٩-٣٨٩.

[2] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٣٨٨/٩.

ولا هداية»[1]، ولا يقدِّم من شأنهم ولا يؤخِّر، وإنَّما هو ضعيف مغلوب على أمره، وعاجز عن فعل أي شيء.

وتستمدُّ الكناية فاعليَّتها من نقل الصورة المعنويَّة (السقوط النفسي) إلى الصورة المحسوسة (السقوط في اليد)، وكأنَّ تلك الحالة المأساويَّة المنكسرة التي تفشَّت في نفوس الضالين وامتلأت بها، خرجت من الخفاء إلى العلن تحسُّرًا وندمًا يسقط في أيديهم، و«العرب تقول لكل متحسِّر نادم: سُقط في يده»[2]؛ للدلالة على الوصول إلى أعلى درجات الخذلان الذي يولِّد الحسرة والندامة، وهذا ما انتهى إليه قوم موسى.

وتتأسَّس الصورة الكنائيَّة في الآية الكريمة عن طريق تقرير مسألة مهمَّة، وهي أنَّ كل عبادة تصرف لغير الله تعالى تكون وبالًا على صاحبها، وتقوده إلى ميادين التحسُّر والندم والأسى، وما ذكر قصَّة أولئك القوم إلا برهان ساطع على هذه النتيجة المؤسفة، ويساعد على تحقيق الإقناع والتأثير في الكافرين من جانب، وزيادة المؤمنين إيمانًا ويقينًا من جانب آخر، وكلا الجانبَيْن يدعم قضيَّة الإيمان، ويقصي قضيَّة الكفر.

وفي وصف حال الظالمين يوم القيامة ظهرت الكناية في قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم:٤٣]، وتفصح عن الهيئة التي يكونون عليها عند إجابة الداعي يومئذ، إذ يأتون إليه مهطعين مقنعي رؤوسهم[3] لا يرتد إليهم طرف أعينهم أبدًا، وأفئدتهم فارغة خالية من العقل والفهم والإدراك، لا تعي شيئًا من فظاعة الموقف العظيم.

وتظهر المحاجَّة في أنَّه كنَّى بـ(مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم) عن شدَّة الخوف والهلع الذي استولى عليهم، فأصبحت أبصارهم شاخصة ممدودة لا تطرف ولا تغمض، وهذا المشهد على ما فيه من الفزع والرعب إلا أنَّه يتضمَّن تهكمًا وسخرية «من هؤلاء الظالمين، فهم كالدواب يُقادون لا كرامة لهم، وهم مرفوعة رؤوسهم إلى أعلى قسرًا ومهانة، فهم كانوا في

---

[1] الكناية في القرآن الكريم: موضوعاتها ودلالاتها البلاغية، أحمد فتحي رمضان الحياني، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، ص١٤٣.

[2] الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص٩٨.

[3] مهطعين: قيل: الإهطاع الإسراع، وقيل: شدَّة النظر من غير أن يطرف. مقنعي رؤوسهم: قيل: الإقناع هو رفع الرأس، وقيل: خفضه من الذلَّة. التسهيل لعلوم التنزيل، ٨٠٧/٢.

حياتهم الدنيا لا ينقادون للحق ولا يستجيبون، وعطَّلوا إحساسهم ووعيهم»[1] عن الانتفاع من النور والهدى. ويستدعي الحديث عن الآخرة الرد على منكري البعث بعد الموت بالحجَّة المفحمة والبراهين المسكتة المستمدَّة من التشريع الإلهي، ونقض دعواهم الباطلة التي تقوم على إنكار أصل من أصول الدين، وهو (البعث)، وتكذيب القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة، وتعطيل العقل عن عمله الأساس المتمثِّل في التفكُّر والتأمُّل والتدبُّر، وتأتي هذه القضيَّة الجوهريَّة في إطار تأكيد أنَّ للإنسان حياتَيْن: حياة دنيويَّة فيها العمل، وحياة أخرويَّة فيها الجزاء.

وفاعليَّة الكناية منتزعة من الواقع الإنساني في سياق الإخبار عن أمر غيبي، يتمحور حول (الحال الذي يكون عليه الظالمون يوم القيامة)، إذ وظَّفت المدركات الحسيَّة والحركيَّة في غير المألوف عنها، ممَّا جعلت الصورة أكثر إثارة للذعر والهلع في النفوس، وأسهمت في تقديم نموذج حسي يبيِّن الهيئة التي يكون عليها كل ظالم في اليوم الآخر، وهذا يؤكِّد أنَّ الله ليس غافلًا عمَّا يعمل في الدنيا من ظلم وكفر، وإنَّما يؤخِّره لذلك اليوم الموعود.

وينطوي الخطاب القرآني على حمولات تأثيريَّة وإقناعيَّة، تكشف بجلاء عن النهاية الحتميَّة المؤسفة التي ينتهي إليها الظالمون، ولذا أراد الله أن يبعث الخوف والفزع في قلوب الناس من خلال التصوير الكنائي؛ لكي يؤثِّر فيهم ويقنعهم بأنَّ أثر الظلم على صاحبه وخيم، ومصيره إلى الهلاك والفناء، ومن باب أولى الابتعاد عن كل ما يقرِّب إليه، والتمسُّك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ [الإسراء:٢٧] وردت الكناية مبيِّنة حال المبذِّرين الذين تجاوزوا الحد، ولم يلتزموا بالمنهج الربَّاني القويم الذي يحثهم على الاعتدال من دون إفراط ولا تفريط، وينهاهم عن التبذير في أي وجه كان؛ لأنَّه يدل على عدم تقدير النعم والخيرات التي أفاء الله بها عليهم، ويقودهم إلى عاقبة غير محمودة.

وحِجَاجيَّة الكناية تنهض على أنَّه كنَّى بـ(إخوان الشياطين) عن حال المبذِّرين؛ لأنَّهم يشتركون معهم في أخلاق ذميمة تخالف ما أمر الله به، وتعطِّل تحقيق مقاصد الشريعة الإسلاميَّة، وتبدِّد الأموال في غير وجه حق، إذ هم ملزوزون «في قَرن الشياطين، والمراد بالأخوَّة

[1] الكناية في القرآن الكريم: موضوعاتها ودلالاتها البلاغية، ص١٥٦.

المماثلة التامَّة في كل ما لا خير فيه من صفات السوء التي من جملتها التبذير»[1]، وقد أخبر الله تعالى عن الشيطان الرجيم في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ [الإسراء:٢٧]، ويؤكِّد أنَّه كافر بالمنعم -جلَّ جلاله- وجاحد للنعم. وفي هذا تحذير شديد من أن «يفضي التبذير بصاحبه إلى الكفر تدريجًا؛ بسبب التخلُّق بالطبائع الشيطانيَّة، فيذهب يتدهور في مهاوي الضلالة حتى يبلغ به إلى الكفر... ويجوز حمل الكفر هنا على كفر النعمة، فيكون أقرب درجات إلى حال التخلُّق بالتبذير»[2]، ولذا، فإنَّ المبذِّر مماثل للشيطان بتلك الصفة السيئة، وتقام عليه الحجَّة بعد أن تبيَّن له النهي عنها، وما زال مستمرًّا عليها.

ومفعول الكناية الحِجَاجي يعتمد على الصورة الذهنيَّة القبيحة التي رسمها القرآن الكريم للشياطين، وأصبحت راسخة في أذهان البشر، ويدل توجيه الخطاب إلى كلمة إخوان دون غيرها على تكثيف حضور معنى الملازمة؛ «لأنَّ العرب يسمُّون الملازم للشيء أخًا له، فيقولون: فلان أخو الكرم والجود وأخو السفر، إذا كان مواظبًا على هذه الأعمال»[3]، وهكذا حال المبذِّرين يكونون إخوان الشياطين في استمرار تبذيرهم، ويكتسبون من وراء هذه الأخوَّة الرديئة صفات دنيئة لا خير فيها، ومنها صفة التبذير التي تؤدِّي قطعًا إلى صفة الكفور، وبينهما تلازم وتتابع، ويكمن قبح التبذير في إضافته إلى أفعال الشيطان؛ لأنَّ فيه معصية الله ومخالفة أوامره ونواهيه.

ويتضمَّن المعنى الكنائي في الآية الكريمة حمولة إقناعيَّة ودلاليَّة مكثَّفة، تظهر السلوك الخاطئ عند الإنسان المبذِّر، وتسهم في تقويمه إسهامًا كبيرًا من خلال تأسيس مفهوم إسلامي جديد، يقوم على الاقتصاد بدلًا من التبذير، ممَّا يترتَّب عليه تغيير الأفكار التبذيريَّة الخاطئة التي يماثل صاحبها الشيطان في المعصية، واستبدالها بالأفكار الاقتصاديَّة الصائبة التي تنبثق من الشريعة الإسلاميَّة، وتسعى إلى بناء حياة طيِّبة هانئة على أسس متينة، تعزِّز المنظومة الإنسانيَّة وفق التوجيه الإلهي، وهذا يساعد على تحقيق التأثير في المتلقِّين وإقناعهم بأنَّ حبائل الشياطين تكون في التبذير، في حين أنَّ طاعة الله تتجلَّى في الاقتصاد.

---

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ١٢٥/٤.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٨١/١٥.

[3] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١٥٥/٢٠.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء:٢٩] جاءت الكناية مفصحة عن حالتَيْن متناقضتَيْن: حالة البخل والإمساك، وحالة التبذير والإسراف. وهاتان خصلتان مذمومتان في الإنسان، وتدفعانه إلى تجاوز الحدود والقيود، فيكون إمَّا مانعًا مقترًا، وإمَّا مبذِّرًا مسرفًا، ويخالف بذلك ما أمر الله به من الاعتدال.

والحجَّة تنهض على أنَّه كنَّى بـ(ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك)، وبـ(ولا تبسطها كل البسط) عن صفتَيْن متضادَّتَيْن: صفة البخل والشح، وصفة الإسراف والبذخ، إذ إنَّ «التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق، فيه تصوير محسوس لهذه الخلَّة المذمومة في صورة قويَّة بغيضة منفِّرة، فهذه اليد التي غلَّت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد، وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذي لا تستطيع يده أن تمتد بإنفاق ولا عطيَّة. والتعبير ببسطها كل البسط يصوِّر...صورة هذا المبذِّر الذي لا يبقي من ماله على شيء، كهذا الذي يبسط يده، فلا يبقى بها شيء»[1]، ممَّا يكشف عن مسألة رئيسة من مسائل القرآن الكريم التي يتبنَّاها، وهي الحث على التوازن والاقتصاد، ويعبِّر عنها بأسلوب كنائي مؤثِّر ومدعَّم بالحجج المخرسة والبراهين القطعيَّة، التي تردع البخيل عن بخله وتقتيره، وتدفعه إلى البذل والعطاء، ولكيلا يتجاوز الحد المأمور به، وينقلب إلى مسرف مبذِّر، أتى النهي عن بسط اليد غاية البسط؛ لأنَّ كلا الموصوفَيْن (البخيل- المسرف) يجتمع في عمليَّة حِجَاجيَّة واحدة مفادها (كل مَن يغل يده إلى عنقه أو يبسطها بسطًا كليًّا ويمدها، فإنَّه يقعد ملومًا محسورًا).

وتستقي الكناية مفعولها الحِجَاجي من تجسيد المعاني المجرَّدة في صورة حسيَّة موحية ومقنعة، تسهم في تقريب المشهد من أفهام المخاطَبين، وتقوية حضوره في أذهانهم، وتعميق أثره في نفوسهم؛ لأنَّه يصوِّر لهم واقع البخلاء والمسرفين تصويرًا دقيقًا، ويبيِّن الأساس الخاطئ الذي بنوا عليه واقعهم، وهذا ما يقود إلى تقديم واقع نموذجي متزن يجعل حياتهم أكثر فاعليَّة وجودة وسعادة، ويطلق عليه واقع المعتدلين أو المقتصدين.

إنَّ استحضار صورة غل اليد إلى العنق وصورة بسط اليد كل البسط معًا في المخيَّلة، طريق إلى استكناه جوهرها القبيح والسيء، الذي تظهر من خلاله عاقبة البخل والتبذير

[1] من بلاغة القرآن، ص١٧٣.

الوخيمة، ودافع إلى تحقيق التأثير النفسي والإقناع العقلي من جهتَيْن: الأولى: تثبيت أهل الاعتدال على منهجهم الصحيح، وتبشيرهم برضوان الله وغفرانه. والثانية: تنفير أهل التفريط والإفراط عن مسلكهم الخاطئ والمهلك، وإرشادهم إلى سبيل الحق والهداية.

وفي خضم الحديث عن قصَّة الرجلَيْن المؤمن والكافر[1] برزت الكناية في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴿٤٢﴾﴾ [الكهف:٤٢]، وتوضِّح النهاية المؤلمة التي وصل إليها الكافر، بعد أن أنعم الله عليه، وجعل له جنَّتَيْن، فتكبَّر على المؤمن مغترًّا بما لديه من الخيرات والطيِّبات، ولم يؤمن بمَن وهبه هذه النعم، فكان عقابه تدمير جنَّتَيْه بكل ما فيها من زروع وثمار، حتى أصبحت أثرًا بعد عين.

ومحاجَّة الكناية تأتي من أنَّه كنَّى بـ(أصبح يقلِّب كفَّيْه على ما أنفق فيها) عن التحسُّر والندم الذي سيطر على الكافر؛ إثر الاعتماد على غير الله، والاغترار بكثرة النعم وعدم شكرها، إذ تعكس الحالة النفسيَّة الحرجة التي تمكَّنت منه، فصار «يضرب إحدى كفَّيْه على الأخرى، كما هو حال النادمين»[2] الآسفين في العادة، ولذا، فإنَّ تقليب الكفَّيْن بمثابة الدليل القاطع على وصوله إلى أقصى مراحل الحسرة والندامة على ضياع ما أنفقه في الجنَّتَيْن من مال وجهد، فعبَّر باللازم، وهو (تقليب الكفَّيْن)، وأراد الملزوم، وهو (الندم والحسرة)[3]، ويؤكِّد أنَّ اتخاذ الجانب المادي من دون النظر إلى الأمور الغيبيَّة، يؤدِّي إلى إنكار فناء جنَّتَيْه في الدنيا، وإنكار البعث والحساب في الآخرة، وهذا يتعارض جملة وتفصيلًا مع الشريعة الإلهيَّة الخالدة، التي تحث على الإيمان بالغيب والتسليم به، ممَّا يستوجب تفنيد دعواه الباطلة، والرد عليه بالأدلَّة العقليَّة والنقليَّة، التي تثبت وقوع يوم القيامة، وحصول البعث والجزاء فيه، وزوال الدنيا لا محالة مهما تزيَّنت بزخارفها، ويكون الناس يومئذ إمَّا في الجنَّة منعَّمين (وهؤلاء المؤمنون)، وإمَّا في النَّار معذَّبين (وهؤلاء الكافرون).

وتكتسب الكناية فاعليَّتها من نقل المعاني المعقولة (الندم والأسف) إلى الصورة المحسوسة (تقليب الكفَّيْن)؛ لكي يعطيها قوَّة تأثيريَّة وطاقة إقناعيَّة، تسهم في تقديم الحقائق مقرونة

---

[1] ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ٢١/١٠٥-١١٠.

[2] الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص١٨٩.

[3] ينظر: القرآن والصورة البيانيَّة، ص٢٢٣.

ببرهانها، وتكون بذلك أدعى إلى تصديقها وقبولها، فالتعبير الحركي يقوّي في الأذهان حضور مسألة رئيسة، وهي ندم الكافر على تمسُّكه بالدنيا واغتراره بها، وهذه عظة وعبرة لكل مَن انشغل في دنياه الفانية عن آخرته الباقية.

وللكناية دور فاعل في تنبيه الكفَّار إلى ضلالاتهم وكفرهم، وتوجيههم إلى الطريق الصحيح والنهج القويم، الذي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويجعلهم أكثر إقبالًا واستجابة لما يعرض عليهم من مسائل وقضايا تتصل بالدعوة الإسلاميَّة، وما قصَّة الرجلَيْن المؤمن والكافر إلا دليل واضح على الصراع الأزلي بين الحق والباطل، وقد أفضت في النهاية إلى تقليب كفَّيْ الكافر على الإحاطة بثمره وتدميره؛ نتيجة بطره واستكباره.

وفي صدد الحديث عن مريم العذراء وردت الكناية في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾ [مريم:٢٠]، وتظهر تعجُّبها من إيجاد غلام لها من غير أب، ولم يمسسها بشر من قبل سواء أكان من خلال الزواج أم البغاء[1]، وهذا ينافي العادة والمعروف عندهم، وهو أنَّ المرأة تأتي بالمولود بعد أن يطأها الرجل، ولا يتحقَّق ذلك بدون حدوث هذه العلاقة، ولكن قدرة الله فوق كل شيء.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه كنَّى بـ(لم يمسسني بشر) عن تنزيه وتبرئة السيدة مريم من كل ما يشوب عفَّتها وعفافها، ولم يكتفِ بإيراد هذه الكناية التي تعبِّر عن الحلال والحرام معًا على سبيل التغليب، وإنَّما أردفها بـ(لم أكُ بغيًّا)، وفيه «تخصيص بعد التعميم لزيادة الاعتناء بتنزيه ساحتها عن الفحشاء»[2]، وتأكيد أنَّها لم تكن بغيًّا في الماضي، ولا يمكن أن تكون بغيًّا في المستقبل، ممَّا يزيد تنزيهها تنزيهًا، وتبرئتها تبرئة. وهذه مقدِّمة ضروريَّة في قصَّة مريم لا بد من ذكرها؛ لإبراز ما كانت عليه من العفَّة والصيانة، ونفي الفجور والمحرمات عنها؛ لأنَّ المعجزة الإلهيَّة لمريم العذراء قد تفتح عليها أبواب التساؤلات والاتهامات، فأغلق تلك الأبواب بالآيات البيِّنات والدلائل الدامغات، التي تجيب على المتسائلين عنها، وتفنِّد حجج المشكِّكين فيها. وتحيل قصَّة مريم وخلق ابنها عيسى -عليه السلام- من غير أب إلى قصَّة خلق آدم -عليه السلام- من دون أم وأب[3]، وهذه قدرة الله العجيبة في تنوُّع الخلق والإبداع، وهو الذي بيده

---

[1] البغي: هي المرأة المجاهرة بالزنا. التسهيل لعلوم التنزيل، ٩١٨/٢.

[2] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٣٩٧/٨.

[3] ينظر: البداية والنهاية، ١٠٩/١-١٢٧.

مقاليد السماوات والأرض، يصرِّف الأمور كيف يشاء، وقدرته تفوق كل القدرات، وشأنه يعلو على كل شأن.

وتأتي فاعليَّة الكناية من الاعتماد على الفضاء الاجتماعي والمخزون الذهني، إذ وظَّفت المعهود (المرأة لا تكون أمًا إلا بمشاركة الرجل) في مكان غير المعهود (تكون المرأة أمًا بدون مشاركة الرجل)، وأراد الله تعالى أن يقدِّم من خلال هذه القصَّة دليلًا منتزعًا من أحوالهم وواقعهم، يؤكِّد فيه أنَّ المستحيل والمحال عند البشر يكون عنده -جلَّ جلاله- ممكنًا وسهلًا، ولا يعجزه شيء في الكون.

وتتأسَّس الصورة الكنائيَّة في الآية الكريمة عن طريق إثبات براءة مريم وتنزيهها عن كل شائبة وعائبة، ولم يكن حوارها مع الروح الأمين اعتراضًا على أمر قضاه الله وقدَّره، وإنَّما كان تعجُّبًا وذهولًا من كمال قدرته سبحانه وتعالى، واستخبارًا واستعلامًا عن كيفيَّة تحقيق هذه المعجزة العجيبة[1]، التي لا يستوعبها إلا العقل المؤمن، الذي يدرك عظمة الخالق في خلقه، وأنَّه لا شريك له في ملكوته ووحدانيَّته.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾ [الفرقان:٢٧] ظهرت الكناية مبيِّنة الحالة المؤسفة التي يصل إليها الظالم[2] يوم القيامة، من بعد أن صدَّ واستكبر عن دعوة الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- ولم يمتثل للأوامر والنواهي عنادًا وكفرًا، ولم يتخذ سبيلًا يقرِّبه إلى الله زلفى، فيفوز بالفلاح في الحياة الدنيويَّة، والنجاة من النَّار في الحياة الأخرويَّة.

والمحاجَّة تنهض على أنَّه كنَّى بـ(يوم يعضُّ الظالم على يدَيْه) عن هيمنة الحسرة والندم على الكافر؛ إثر ابتعاده عن سبيل رسول الله، وما أتى به من الحق المبين الذي لا مرية فيه، واتخاذه سبيلًا آخرًا ينتهي به إلى الضلالة والكفر، وهو «ليس رفضًا لسبيل الذين آمنوا فحسب، وإنَّما هو فوق ذلك معاندة له، وذهاب في الوجه المقابل»[3] المناهض، الذي يسعى إلى منع وصول الدعوة الإسلاميَّة، وانتشارها في كل زمان ومكان، ومهما ظهر الباطل وكثر، فإنَّ الحق منتصر

---

[1] ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٣٠٠/٤.

[2] في (الظالم) قولان: الأول: يقصد به عموم المشركين الظالمين. والثاني: يراد به مخصوص، وهو عقبة بن أبي معيط. ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ٦٦/٢٤-٦٧. وتفسير القرآن العظيم، ٢٥٥١/٦. وتفسير التحرير والتنوير، ١١/١٩.

[3] دلالات التراكيب: دراسة بلاغيَّة، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، ص٢٠٤.

عليه لا محالة، ويبقى المؤمن منصورًا مدعومًا بأمر الله تعالى، والكافر مهزومًا مخذولًا في الدنيا والآخرة، ولا يملك لنفسه إلا الندامة والأماني، وكأنَّ اليد الواحدة لا تكفيه يعضُّ عليها، ولذا، فهو ينتقل بين هذه اليد وتلك، أو يجمع بينهما لشدَّة ما يجده من الندم، الذي يتمثَّل في عضِّه على اليدَيْن بتحسُّر، فتكون هذه السمة الحركيَّة عنوانًا معبِّرًا عن حالته النفسيَّة الصعبة، فتجسِّدها تجسيدًا مؤثِّرًا، إذ يدفع كل ظالم إلى البُعد عن طريق الضلال والعصيان، والتمسُّك بطريق الهدى والرشاد؛ لكي ينجو من العذاب الأليم.

ويعتمد مفعول الكناية الحِجَاجي على تشكيل الشيء المعنوي (الندم) في صورة حسيَّة مشاهَدة (عض اليدين)، وتبنى «على ما يلازمها في العرف من معانٍ نفسيَّة، وأصل نشأتها عن تهيُّج القوَّة العصبيَّة من جرَّاء غضب أو تلهُّف»[1]، وتسهم في رسم ملامح الخوف والترهيب من الندم والحسرة، وتمكينها من نفوس الكفرة الظالمين، ممَّا يجعل حضورها في أذهانهم أقوى، وأثرها فيهم أعمق؛ ليدركوا حجم الألم والأسف بعد جحودهم واستكبارهم عن اتباع الحق، واستمرارهم في غيِّهم وضلالاتهم.

وينطوي خطاب الندم في الآية الكريمة على طاقات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تكشف عن المصير المحتوم الذي يؤول إليه الكفَّار، فيظنون أنَّهم جاءوا بحمل بعير، وإذا بهم خالية أيديهم من كل شيء، فيشتد حزنهم، وتقوى حسرتهم على ما فاتهم من حلاوة الإيمان، ولذَّة الطاعة، والنجاة من نار جهنم، فالحجَّة تدور حول أنَّ (الكافر لم يتخذ مع الرسول سبيلًا)، وتخلص إلى نتيجة محدَّدة، وهي أنَّه (يعض على يدَيْه ندمًا).

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ:٤٩] برزت الكناية مفصحة عن حتميَّة اضمحلال الباطل مهما كبر وانتفش في مجيء الحق المبين، فيصبح لا يُبدئ في أمر ولا يُعيد، ولا يُقدِّم من شأن ولا يُؤخِّر، وليس له في الوجود لا أثر ولا تأثير، إذ هو ضعيف متهالك زائل، لا يستطيع أن يصمد طويلًا أمام النور الساطع، المنبثق من التشريع الإلهي، والمزيح لكل الظلمات المهلكات، والهادي إلى سواء السبيل، ويبقى الحق ثابتًا مستقرًّا، والباطل منتفيًا متلاشيًا.

[1] تفسير التحرير والتنوير، ١٢/١٩.

وتكمن حِجَاجيَّة الكناية في أنَّه كنَّى بـ(ما يُبدئ الباطل وما يُعيد) عن «هلاكه، والتطويح به؛ لأنَّه إذا هلك لم يعد له إبداء أو إعادة»[1]، ولا حس ولا حسيس، ولا يكون له حجَّة تقرع، ولا دعوى تفنَّد، ولا فكرة تنقض، بخلاف الحق الذي يصدع في كل مكان وزمان، ويحمل في طيَّاته الحجج الدامغة والبيِّنة الداحضة، التي يعجز عن مجاراتها كل مجارٍ ومعاند، فالحق يرمز إلى كل ما يؤدِّي إلى الامتثال لأوامر الله ونواهيه، ويمثِّله المؤمنون، في حين أنَّ الباطل يرمز إلى كل ما يقود إلى الكفر والضلالة، ويمثِّله الكافرون. وما غياب الباطل في حضور الحق إلا بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، تدل على قوَّة الأدلَّة العقليَّة والنقليَّة للحق، وافتقار الباطل للدليل العقلي والنقلي، ويؤكِّد هذه المسألة التصوير الكنائي من خلال ثنائيَّة الحركة والسكون، فمجيء الحق يمثِّل (الحركة)، وما يُبدئ الباطل وما يُعيد يمثِّل (السكون)، وبينهما علاقة تضاد وتنافر، وهذا يبيِّن أنَّ الحِجَاج يسير في اتجاه واحد، ويفضي إلى خلاصة مفادها (كل باطل فانٍ لا محالة ولو تزيَّنت له الأيام، وكل حق باقٍ مهما جارت عليه الظروف).

وتستقي الكناية مفعولها الحِجَاجي من الصورة الذهنيَّة التي رسمها القرآن الكريم للحق والباطل، إذ وظَّفتها في سياق الرد على الجاحدين المكذِّبين بالآيات البيِّنات، والمفترين على الرسول –صلَّى الله عليه وسلَّم– والكشف عن كفرهم وضلالهم، وتمسُّكهم بما كان يعبد آباؤهم من الأوثان، وليس لإنكارهم وتكذيبهم بالرسالة الربَّانيَّة مبرِّر مقنع، ولا شبهة يتشبَّثون بها؛ لأنَّ الله لم ينزل عليهم كتابًا قبل القرآن الكريم، ولم يبعث إليهم نبيًّا قبل النبي محمد، يدعوهم إلى التوحيد والإيمان، وينذرهم من العذاب الأليم، فجوهر أهل الحق أنَّهم يؤمنون بالله العظيم، ويتبعون الرسول الأمي الكريم، أمَّا أهل الباطل فكنههم أنَّهم يكفرون بالله ورسوله، ويكذِّبون بما أنزل من الهداية والرشاد.

ويتضمَّن المعنى الكنائي في الآية الكريمة حمولة إقناعيَّة وتأثيريَّة، تساعد على ترسيخ المعتقد الصحيح والمنهج القويم الذي يتخذ من الحق سبيلًا له، وإقصاء المعتقد الفاسد والمنهج الأعوج الذي يتخذ من الباطل طريقًا له، وعند تأمُّل ما يخلص إليه كل واحد منهما، فإنَّه يتحقَّق التأثير في المتلقِّين وإقناعهم بأنَّ طريق الحق ينتهي بهم إلى جنَّة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وطريق الباطل يقودهم إلى نار جهنم أعدت للكافرين، وشتَّان بين النعيم المقيم والعقاب الشديد.

---

[1] إعراب القرآن الكريم وبيانه، ٦/٢٥٣.

وفي وصف حال الكفرة الضالين يوم القيامة جاءت الكناية في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴿٢٤﴾﴾ [الزمر:٢٤]، وتفصح عن المنتهى الحتمي الذي يؤولون إليه، ويجدون فيه الجزاء الأوفى لما كانوا يعتقدون ويفعلون من الشرك والضلال، والاعتراض على أوامر الله ونواهيه، والوقوف ضد الدعوة الإلهيَّة دون سبب مقنع.

والحجَّة تقوم على أنَّه كنَّى بـ(مَن يتقِّي بوجهه سوء العذاب)[1] عن شدَّة عذاب الكافر وهوله؛ لأنَّه في النَّار «تكون يداه مغلولتان إلى عنقه، فلا يجد ما يدفع به العذاب إلا بملامسة وجهه لنار الجحيم، وهذا أبشع أنواع العذاب»[2]، ويشعر بالتهكُّم والإهانة وذهاب القدر من ناحية، والعجز والحيرة والاضطراب من ناحية أخرى، وكلتا الناحيتَيْن تبرز ما ينطوي عليه من معانٍ ومضامين، تثبت خيبة الضال وخذلانه عند العرض الأكبر، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم من الكفر والضلالات. ولم يورد حال المهتدي إزاء حال الضال؛ للإشعار بتعظيمه وتوقيره، وأنَّه «أكرم على الله مَن أن يذكر في مقابلة هذا الشقي، وفيه أيضًا القصد إلى أن يتجه الهم كله إلى المذكور الذي يتقِّي بوجهه سوء العذاب؛ ليمتلئ القلب بصورته، وهو في النَّار فزع طائش لا يدري كيف يدرأ العذاب عن نفسه فهو يتقِّي بوجهه، والوجه تسوءه النَّار، والذي فيه نبضة من نفس وعقل يتقِّي وجهه من النَّار، ولا يتقِّي بوجهه النَّار»[3]. وهذه موعظة عمليَّة مؤثِّرة تأتي في إطار الرد على منكري الحياة الأخرويَّة، وما فيها من بعث وحساب، وتفنيد دعواهم الزائفة ومزاعمهم الباطلة بما اشتمل عليه القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة من حجج وبراهين، وتأكيد أنَّ يوم القيامة واقع لا ريب فيه، وكل نفس تجد ما عملت من خير أو سوء محضرًا، وتجزى به.

وتستمدُّ الكناية فاعليَّتها من توظيف التعبير الحركي المألوف (اتقاء الإنسان لما يضره بيدَيْه) في محل التعبير الحركي غير المألوف (اتقاء الإنسان لما يضره بوجهه)، ويدل توجيه الخطاب إلى الوجه دون غيره من الأعضاء على زيادة الترهيب والتخويف من الوصول إلى تلك

---

[1] الاتقاء: تكلُّف الوقاية، وهي الصون والدفع. تفسير التحرير والتنوير، ٣٩٣/٢٣.

[2] الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص٢٨١.

[3] خصائص التراكيب: دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٨، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص٣١٢.

المرحلة الحرجة؛ لأنَّ الوجه يرمز إلى الشرف والتقدُّم والسؤدد، ومدار المدح عليه، فإذا كان يتقِّي العذاب به فهو وجه مبتذل مهين، وصورة اتقاء النار بالوجه من أبلغ ما يؤثِّر في النفس[1]، ويجعلها أكثر تقبُّلًا واستجابة لما يطرح عليها من الهدى والنور.

إنَّ تجسيد حال الكافر يوم القيامة في صورة حسيَّة موحية، يسهم في إقناع الكفَّار الظالمين والتأثير فيهم، وردعهم عن عصيانهم وطغيانهم، وتغيير أفكارهم المنحرفة ومواقفهم المتطرِّفة من الكفر والفساد إلى الإيمان والصلاح، فالحجَّة تتمثَّل في أنَّ (الذين لا يؤمنون بالله العظيم، ولا يتبعون سنَّة الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-)، تكون النتيجة (عدم وقايتهم من سوء العذاب؛ جزاء بما كانوا يكسبون).

وفي بيان مصير المستهزئين يوم الحساب وردت الكناية في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزمر:٥٦]، وتبيِّن التفريط الذي وقع منهم في حق الله بعدم الامتثال لأوامره ونواهيه، فأصبحوا يتحسَّرون على ما فرَّطوا فيه؛ بسبب سخريتهم، واستهزائهم، واستكبارهم عن الحق المبين، وعدم القبول به، وتماديهم في المعاصي والآثام، فكانت نار جهنم مثواهم الأبدي.

ومحاجَّة الكناية تنهض على أنَّه كنَّى بـ(ما فرَّطت في جنب الله)[2] عن نسبة التفريط في حقِّه وطاعته وعبادته؛ لأنَّ «مَن ضيَّع جهة ضيَّع ما فيها بطريق الأولى الأبلغ لكونه بطريق برهاني»[3]، والتفريط يولِّد الحسرة والندم، ويؤدِّي إلى تجاوز الحدود والقيود، والبُعد عن ميادين الرضا والسلامة، وهو «شأن الذي ضاق صَبْره عن إخفاء ندامته في نفسه، فيصرخ بما حدَّث به نفسه، فتكون هذه الندامة المصرَّح بها زائدة على التي أسرَّها»[4]، وتعبِّر عن حالته المؤسفة أشد تعبير، وتؤكِّد قضيَّة عقديَّة محوريَّة، وهي أنَّ التهكُّم والسخرية من الله ورسوله كفر مخرِّج من الملَّة، ويقود إلى مهاوي الردى والحسرات، ولذا حملت الآية الكريمة في طيَّاتها شحنة تنبيهيَّة وتحذيريَّة تمنع الخوض في غمار هذه الأمور المهلكة، وتدعو الساخرين الكافرين إلى الارعواء عن كفرهم وسخريتهم، والإنابة إلى الله، وإخلاص الأقوال والأفعال لوجهه الكريم. فكل أمر يرد في

---

[1] ينظر: خصائص التراكيب: دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، ص٣١٣.

[2] الجنب: هو ناحية الشيء ومكانه. تفسير التحرير والتنوير، ٤٦/٢٤.

[3] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٢٧٢/١٢.

[4] تفسير التحرير والتنوير، ٤٥/٢٤.

كتاب الله وسنَّة الرسول -عليه الصلاة والسلام- ويحيل إلى حال من أحوال الآخرة هو بمثابة الدليل القاطع والبرهان الساطع على وقوعها، وتحقُّق الوعد الحق الذي يتمثَّل في دخول المؤمنين الجنَّة، ودخول الكفرة النَّار.

وفاعليَّة الكناية تأتي من تشكيل الصورة الجزئيَّة (عبادة الله وطاعته) في الصورة الكليَّة (جنب الله)، وتثبت أنَّ الذي يفرِّط في الطاعة والعبادة يفرِّط في جنب الله؛ لأنَّها السبيل إلى تعظيمه -جلَّ جلاله- في النفوس، وتقوية العلاقة به، والإقرار بأنَّه وحده المستحق لإفراده بالألوهيَّة والعبوديَّة، وأنَّه لا شريك له في وحدانيَّته وملكوته، ولا مثيل له في صفاته العُلى وأسمائه الحسنى.

وينطوي الخطاب القرآني على حمولات تأثيريَّة وإقناعيَّة، تكشف عن النهاية المحتومة التي يصل إليها المفرِّطون، وما ينتابهم من الندم الشديد على ما فرَّطوا فيما أمر الله به من الأعمال الصالحات، التي تنجيهم من العذاب الأليم عند الحساب الأخروي، ويفوزون في جنَّات النعيم، وهذا يدفع إلى التأثير في المخاطَبين وإقناعهم بأنَّ التفريط سبب لكل حسرة وندامة، وطريق إلى الهاوية والهلاك.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى:١١] ظهرت الكناية مؤكِّدة أنَّه لا يمكن أن يماثل الله شيء من مخلوقاته في أي وجه كان؛ لأنَّه خالق كل شيء من العدم، وفاطر السماوات والأرض، وفالق الحب والنوى، ومحيي العظام وهي رميم، ولا إله إلا هو الحي القيوم.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه كنَّى بـ(ليس كمثله شيء) عن نفي وجود المماثل لله سبحانه وتعالى في الأرض وفي السماء، إذ جاء «بلفظَيْن كل واحد منهما يؤدِّي معنى المماثلة؛ ليقوم أحدهما ركنًا في الدعوى، والآخر دعامة لها وبرهانًا»[1]؛ لكي يدحض كل ما نسبوا إلى الخالق من شبهات وأوهام، ويرد على منكري وجوده ومدعي الشريك له بالبيِّنة القاطعة والحجَّة الدامغة، ويثبت تفرُّده وحده بالملكوت الذي لا يماثله فيه شيء من خلقه. وقد سبق هذه

[1] النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، محمد عبدالله دراز، اعتنى به وخرَّج أحاديثه: عبدالحميد الدخاخني، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، ص١٦٦.

النتيجة الحاسمة بالتمهيد لها من خلال ذكر الدلائل الكونيَّة، التي تراها العين، ويدركها العقل، وتبرهن على قدرته العظيمة في الخلق والتدبير والتسخير، حيث تفوق كل قدرات المخلوقين، وفيها «إقصاء للعالم كله عن المماثلة، وعمَّا يشبه المماثلة، وما يدنو منها»[1]، بما لا يدع مجالًا للشك والتوهُّم والظن، وهذا يزيد تنزيه الله تنزيهًا، وتعظيمه تعظيمًا، ويفتح آفاقًا متعدِّدة من التفكُّر والتأمُّل في عظمته وصنائعه التي لا تعدُّ ولا تحصى، ممَّا يسهم في ترسيخ هذه الأدلَّة في العقول، وتعميق أثرها في النفوس، وتعزيز حضورها في كل زمان ومكان.

ومفعول الكناية الحِجَاجي يأتي من الاعتماد على «نهج كلام العرب من إطلاق المثل على نفس الشيء»[2]، بحيث إذا حصل نفي الوصف عن مثل الشيء، كان نفيًا عن الشيء نفسه بالضرورة، وهذا الأسلوب العربي الأصيل يراعي أحوال المخاطَبين، ويحقِّق التأثير فيهم وإقناعهم بما يحمله خطاب النفي من أطروحة حِجَاجيَّة وقوَّة دلاليَّة، تجعلهم مسلِّمين بها ومذعنين لها من دون عناد ولجاج لا طائل من ورائه.

وتتأسَّس الصورة الكنائيَّة في الآية الكريمة عن طريق تقرير مسألة جوهريَّة، وهي تأكيد نفي المماثلة لله من جميع الوجوه؛ وذلك للوصول إلى أقصى درجات النفي، وإثبات هيمنته تعالى على الكون كله، ولا يستطيع أحد بلوغ منزلته العالية وكمال قدرته الفائقة، فهو المتعالي وحده فوق عرشه لا شريك له، المنفرد بالملك والخلق والعبادة، الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

وفي خضم حِجَاج الكفرة المكذِّبين جاءت الكناية في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾ [الزخرف:١٨]، وتفصح عن المزاعم الباطلة التي نسبوها إلى الله بهتانًا وزورًا، إذ جعلوا الملائكة بنات له، واختاروا لأنفسهم البنين، وهذه فرية عظيمة على مَن بيده مقاليد السماوات والأرض، وليس بحاجة إلى البنات والبنين البتَّة، وتعالى عمَّا يقولون علوًا كبيرًا.

وتظهر المحاجَّة في أنَّه كنَّى بـ(مَن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) عن المرأة، ويبيِّن صفتَيْن من الصفات الخاصَّة بها: أولها: التنشئة في الحلية، وترمز إلى النعومة والزينة

---

[1] النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص١٦٥.

[2] تفسير البحر المحيط، أبو حيَّان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوَّض وزكريا عبدالمجيد النوتي وأحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٣، ٢٠١٠م، ٤٨٩/٧.

والرخاوة. وثانيها: عدم القدرة على الإبانة في الجدال، وتشير إلى الضعف والعجز عن مواجهة المواقف وإقامة الحجج والبراهين. وكلتاهما تكشف عن ادعاء المشركين الكاذبين الذين قالوا: إنَّ الملائكة بنات الله، فأطلقوا عليهم صفات الإناث، ممَّا يؤكِّد أنَّ الكفَّار تمادوا وطغوا، و«نسبوا إلى الله تعالى ما يحقرونه لأنفسهم، إن أحدهم إذا بشِّر بالأنثى ظل وجهه مسوَّدًا، وأصابه الهم والحزن، وأخذ يتوارى من القوم من سوء ما بشِّر به، هذا الذي حقروه، واعتقدوا ضعفه، وكرهوا أن ينسب إليهم نسبوه إلى الله تعالى، وجعلوا الملائكة إياه»[1]، وتوحي افتراءاتهم الكاذبة بالاستهزاء والسخرية من عباد الله المكرمين، والطعن في قدراتهم الفائقة، والحط من قدرهم الرفيع، وعدم الإيمان بهم، ولذا أسهمت الكناية إسهامًا كبيرًا في إبراز معتقدات الكافرين الضالة، وإنكار ما وصفوا، واستبشاع ما اعتقدوا، والرد عليهم بالدليل القطعي المستمد من القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة، وإثبات أنَّ الملائكة خلقهم الله من نور[2]، لا يعصونه ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

وتنتزع الكناية مفعولها الحِجَاجي من الاعتماد على واقع الحياة المعيشة، إذ وظَّفت أحوالًا معيّنة للإناث ذات دلالة مهمَّة في السياق، ويدركها كل إنسان؛ لكي يظهر البون الواسع والفرق الشاسع ما بينها وبين الملائكة، ويكمن جوهر الفرق في أنَّ الإناث لباسهن من سندس وإستبرق، وتشغلهن أنوثتهن ورقَّتهن، ويقطعن في الزينة معظم أوقاتهن، في حين أنَّ الملائكة عباد الرحمن، لا يعصون له أمرًا، فهم حملة العرش، وزبانية النَّار، وكتبة صحائف العباد، ووحي الأنبياء، وحفظة السماء، والموكلون بالأرض بكل ما فيها[3]، وشتَّان بين مَن ينشأ في الحلية رقيقًا عاجزًا، وبين مَن يتولَّى عظام الأمور.

ويتضمَّن المعنى الكنائي في الآية الكريمة طاقة إقناعيَّة وتأثيريَّة، تساعد على نفي الأنوثة عن الملائكة، ونفي كونهم بنات الله، وهذا يسهم في إنكار الشركاء له سبحانه وتعالى، وتأكيد انفراده في الجبروت والملكوت والربوبيَّة، وتأسيس مفهوم إسلامي عظيم، يقوم على توحيد الله والإيمان به، وإقصاء الكفر والشرك، ويترتَّب عليه تغيير الأفكار الكفريَّة الخاطئة التي تنبع من

---

[1] من بلاغة النظم القرآني، ص٤٠٨.

[2] ينظر: صحيح مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: في أحاديث متفرِّقة، رقم الحديث: ٢٩٩٦، ٤/٢٢٩٤.

[3] ينظر: فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فتحي أحمد عامر، الناشر منشأة المعارف، الإسكندريَّة، ١٩٨٨م، ص٢٦١.

ضلالات الكفرة وطغيانهم، وتبديلها بالأفكار الإيمانيَّة الصائبة التي تنبثق من الشريعة الإلهيَّة، وتدعم تنزيه الله وملائكته عن كل شائبة وعائبة.

وفي صدد الحديث عن نجاة نوح -عليه السلام- من الطوفان[1] برزت الكناية في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾ [القمر:١٣]، وتبيّن الوسيلة التي هيَّأها الله له ومَن آمن معه، وكانت سببًا في سلامتهم من الهلاك والفناء، الذي عاقب به أولئك الكافرين المستكبرين المعرضين عن الحق المبين، وهذه عناية الله بعباده المؤمنين، حيث تفوق كل عناية، وتحقِّق كل غاية، وتغني عن كل حيلة.

وحِجَاجيَّة الكناية تنهض على أنَّه كنَّى بـ(ذات ألواح ودسر)[2] عن السفينة التي نجَّى الله بها نوحًا -عليه السلام- ومن معه من المؤمنين، وهاتان الصفتان (ألواح- دسر) من «الصفات التي تقوم مقام الموصوفات، فتنوب منابها، وتؤدِّي مؤدَّاها، بحيث لا يفصل بينها وبينها»[3]؛ لأنَّها أهم الأجزاء التي تصنع منها السفينة، ولا يكتمل بناؤها إلا بها، وهذا «ليس بيانًا لمكانتها وقوَّتها، وأنَّها يأمن مَن فيها، وإنَّما هو تهوين لها، وإنَّها لا تحفظ أحدًا، وإنَّما كان الحفظ بعناية الله وحده، وكأنَّهم في وسط هذا الموج الهادر الذي ابتلع الحياة والأحياء آمنون، وهم على ألواح لا تغني عنهم من الأمر شيئًا؛ لأنَّ عناية الله كانت هي التي تحفظ، وفي هذا تكريم لهؤلاء الذين آمنوا، وأنَّهم لم ينجوا بسفينة ناجية، وإنَّما نجوا على سطوح ألواح هيِّنة»[4] لا تقدِّم ولا تؤخِّر أبدًا. وما هذه القصَّة إلا برهان ساطع على كمال قدرة الله تعالى في التدبير والتسخير، وأنَّه إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، ممَّا يردع أهل الكفر والضلال، ويفنِّد حججهم الواهية، وينقض دعواهم الباطلة بطريقة عمليَّة مشاهَدة، تؤكِّد أنَّ الإعراض عن الدعوة الإلهيَّة سبب في الزوال والهلاك، وأقرب مثال حي على ذلك ما وقع لقوم نوح عند إعراضهم وعنادهم.

وتستمدُّ الكناية فاعليَّتها من نقل الصورة المألوفة (تجري السفينة في البحر) إلى الصورة غير المألوفة (تجري السفينة في طوفان هادر)، ويدل على خطورة المسار البحري الذي سلكوه،

---

[1] ينظر: قصص الأنبياء، ص٦٥-٩٧.

[2] دسرت السفينة الماء بصدرها: عاندته، والدِّسار: خيط من ليف يشدُّ به ألواحها، وقيل: هو مسمارها، والجمع دُسُر. لسان العرب، مادَّة: (دسر)، ٥/٢٥٥.

[3] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٢٧/١٠٦٦.

[4] التصوير البياني: دراسة تحليليَّة لمسائل البيان، ص٤٦٤.

ولولا حياطة الله لهم لما كانوا في عداد الناجين يذكرون، وهذا يكشف عن شدَّة الموقف وهوله، إذ أغرق الكفَّار العاصين مستأصلًا شأفتهم؛ لكي ينتصر عليهم نوح -عليه السلام- ومَن آمن معه، وتعلو كلمة الحق وتحيا، وتسقط كلمة الباطل وتموت.

وللكناية دور فاعل في بيان مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومصير الذين كفروا وطغوا في الأرض، فالمؤمنون تكلؤهم رعاية الله ورحمته، أمَّا الكفرة فلا راعٍ لهم ولا ناصر، وعند تأمُّل ما ينتهي إليه كل واحد منهم، فإنَّه يتحقَّق التأثير في المتلقِّين وإقناعهم بأنَّ النصر والتمكين والعناية تكون في الامتثال لأوامر الله ونواهيه، في حين أنَّ الخسران والضعف والخذلان يكون في عصيان ما أمر الله به.

وفي قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم:١٦] وردت الكناية مبيّنة الحالة المؤسفة التي يصل إليها كل منافق مكذِّب[1] بالآيات الهاديات، إذ يقول تكبُّرًا وعنادًا: إنَّها أساطير الأولين، التي تتمحور حول ذكر أباطيل وخرافات لا تغني ولا تسمن من جوع، وليس فيها شيء من الحقيقة والفائدة، فكان وسم[2] أنفه بالنَّار الجزاء الأوفى له على ما يعتقد ويقول ويفعل دون مبرِّر مقنع.

والحجَّة تقوم على أنَّه كنَّى بـ(سنسمه على الخرطوم) عن الإذلال والإهانة والسخرية؛ لأنَّ «الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدُّمه له، ولذلك جعلوه مكان العز والحميَّة، واشتقوا منه الأنفة»[3]، والعدول عن الأنف إلى الخرطوم «فيه ملحظ التحقير والهبوط بآدميَّة ذلك المفتون الشرير الجافي اللئيم إلى دونيَّة البهائم والدواب»[4]، ويوحي بأنَّ أنفه ليس من الأنوف التي تستحق الذكر والتقدير، فضلًا عن وسمه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط مقامه، وتشويه ملامح وجهه، وتبشيع هيئته في النفوس، بحيث يكون مثيرًا للضحك والتهكُّم منه، بعد أن كان ذا مال وبنين ومجد وسيادة، ويشار إليه بالبنان؛ وذلك نتيجة الاغترار بما أتاه الله من الخيرات والأرزاق، والوقوف بكل ما أوتي من قوَّة وسلطان ضد الإسلام والمسلمين، ولذا

---

[1] قيل: لم يقصد بها شخص معيَّن، وقيل: المقصود بها الوليد بن المغيرة، وقيل: أبو جهل، وقيل: الأخنس بن شريق، وقيل: الأسود بن عبد يغوث. ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ١٥٧٧/٤.

[2] الوسم: أثر الكي. لسان العرب، مادَّة: (وسم)، ٢١٣/١٥.

[3] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١١٣٠/٢٩.

[4] التفسير البياني للقرآن الكريم، ٦١/٢.

جاء الخطاب القرآني مشحونًا بحمولة حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تبرز الجرم العظيم الذي ارتكبه هذا العاصي في حق الله، والعقاب الأليم الموعود به، والمتمثِّل في الوسم على أنفه، والتقليل من قدره، وهذه عظة وعبرة لكل مَن سار في الطريق الخاطئ كفرًا واستكبارًا، ولم يستجب لداعي الهدى والنور.

وفاعليَّة الكناية تأتي من الاعتماد على أهم أعضاء وجه الإنسان، وهو الأنف، إذ وظَّفته في سياق الوعيد والعذاب؛ لكي يزيد المكذِّبين الضالين تهويلًا ورعبًا، ويقوِّض أركان مزاعمهم الزائفة، ويدحض حجَّتهم الضعيفة، ويفشل خططهم الخبيثة التي تسعى إلى هدم بناء الدين الإسلامي الحنيف، وإنكار ما فيه من هداية ورشاد، ومهما فعلوا، فإنَّ الله متم نوره لا محالة، ولو كره الكافرون.

وتتأسَّس الصورة الكنائيَّة في الآية الكريمة عن طريق ترسيخ منهج قويم في المجتمع المسلم للأخلاق الفاضلة، ممَّا يستوجب نبذ الأخلاق الوضيعة التي تتمثَّل في كل (حلَّاف مهين، همَّاز مشَّاء بنميم، منَّاع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم)، وما يترتَّب عليها من عواقب وخيمة، ويسهم تقويم المنظومة الأخلاقيَّة في تصحيح المسار الإنساني والاجتماعي، وتحقيق الفهم والإقناع بأنَّ الفضيلة مفتاح كل خير ونجاة، والرذيلة مفتاح كل شر وهلاك.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴿٤٢﴾﴾ [القلم:٤٢] ظهرت الكناية معبِّرة عن مشهد من مشاهد يوم القيامة، ويظهر في الكشف عن ساق ودعوة الناس إلى السجود، فيسجد المؤمنون بكل يسر وسهولة؛ لأنَّهم آمنوا بالله، وتقرَّبوا إليه بالطاعات والأعمال الصالحات، ولا يستطيع الكفَّار والمنافقون أن يسجدوا؛ نتيجة كفرهم وعصيانهم حين كانوا يدعون في حياتهم الدنيويَّة إلى السجود، وهم سالمون قادرون، فلا يستجيبون.

ومحاجَّة الكناية تنهض على أنَّه كنَّى بـ(يوم يكشف عن ساق) عن شدَّة أهوال يوم الحساب، وقوَّة وقعها، وعمق أثرها في نفوس الكفرة، حيث لا يدعون إلى السجود «تعبُّدًا وتكليفًا، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود في الدنيا، مع إعقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين الاستطاعة تحسيرًا لهم وتنديمًا على ما فرَّطوا فيه»[1]؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل، فالسجود

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١١٣٣/٢٩.

لله له أهميَّة كبيرة في تحديد مصير الإنسان الدنيوي والأخروي، بوصفه وسيلة حسيَّة تعبِّر عن المعتقد الصحيح، الذي تنطلق منه الأقوال والأفعال، ويكون عليه مدار المحاسبة إمَّا الثواب والنعيم للمؤمنين، وإمَّا العقاب والشقاء للكافرين. ويستدعي الحديث عن أحوال الآخرة تفنيد الحجج الباطلة التي يرتكز عليها الضالون في امتناعهم عن الإقبال على الله، وعدم الاستجابة لأوامره ونواهيه، وإنكار وجود البعث والحساب، وهذا قادهم إلى التمسُّك في الدار الفانية، وترك الاستعداد للدار الباقية، فكان مسلكهم مسلكًا خاطئًا لا يؤدِّي بهم إلا إلى نار جهنم.

ويعتمد مفعول الكناية الحِجَاجي على توظيف ما كان من عادة العرب (الكشف عن الساق) عند الإشارة إلى الجد والتأهُّب والشدائد[1] في سياق الإخبار عن أمر غيبي، يدور حول (الحالة الأخرويَّة التي يكون عليها المعرضون عن الآيات البيِّنات)؛ وذلك للدلالة على هول اليوم الآخر وفظاعته، وما فيه من أحداث جسيمة مفصليَّة، حيث تجد كل نفس ما قدَّمت من خير أو سوء، وتجزى به.

إنَّ معرفة نتيجة الكفر بالله والاستكبار عن دعوة الحق كفيلة بإقناع الكفَّار المنكرين والتأثير فيهم، وتغيير أفكارهم الكفريَّة الخاطئة، التي تقوم على أنَّ (الدنيا الغاية والمنتهى دون الالتفات إلى الآخرة)، واستبدالها بالأفكار الإيمانيَّة الصائبة، التي تتمركز على أنَّ (السجود لله في الدار الدنيويَّة سبيل إلى السجود لله في الدار الأخرويَّة)، وتقود إلى الفلاح في الدارَيْن، والنجاة من النَّار، والفوز في جنَّات النعيم.

[1] ينظر: القرآن والصورة البيانيَّة، ص٢٢٥.

المبحث الثاني

حِجَاجيَّة التعريض

التعريض هو «إمالة الكلام عن معناه الوصفي الحقيقي إلى معنى آخر مراد»[1]، وينطوي على حمولات حِجَاجيَّة وإقناعيَّة، تسهم في تحقيق قصديَّة الكلام، وتقريبه من أفهام المخاطَبين، ممَّا يجعلهم أكثر قبولًا واقتناعًا بما يعرض عليهم.

ويتجلَّى هذا الشكل في السور المكِّيَّة، ومن ذلك ما ظهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف:٢٠٦]، وبرز التعريض في هذه الآية الكريمة مبيِّنًا الحال الذي عليه الملأ الأعلى، حيث لا يستكبرون عن عبادة الله تعالى، ويسبحونه في كل حين، ويسجدون له طاعة وتقرُّبًا، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الناس جميعًا.

ومحاجَّة التعريض تنهض على أنَّه عرَّض في (لا يستكبرون عن عبادته، ويسبِّحونه، وله يسجدون) بالمشركين المستكبرين؛ لأنَّهم «على النقيض من أحوال الملائكة المقرَّبين، فخليق بهم أن يكونوا بعداء عن منازل الرفعة»[2] والعزَّة، والخروج من دائرة أهل العبادة والطاعة والإيمان، والدخول في دائرة أهل الكفر والشرك والعصيان؛ بسبب إعراضهم عن الدعوة الإلهيَّة الخالدة، ومخالفتهم أوامر الله ونواهيه، وتكذيبهم الرسول الكريم، وطغيانهم في الأرض، واتخاذهم الأوثان إلهًا يعبدونه من دون الله، ولذا جاء الخطاب القرآني محمَّلًا بطاقات إقناعيَّة وتأثيريَّة، تكشف عن المكانة الوضيعة التي وصل إليها الكافرون، وتؤكِّد أنَّهم منحطون بمعتقداتهم الباطلة عن تلك الدرجات العالية، التي لا ينالها إلا الذين آمنوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- رسولًا ونبيًّا، فالحجَّة تتمثَّل في (أنَّ كل مَن استكبر عن عبادة الله، وتسبيحه، والسجود له)، تكون النتيجة (لا يستحق أن يذكر مع المؤمنين الموحِّدين، وأنَّه ليس من أهل المنزلة الرفيعة عند الله).

ويكتسب التعريض مفعوله الحِجَاجي من الصورة الذهنيَّة الحسنة التي رسمها القرآن الكريم لعباد الرحمن المكرمين، إذ وظَّف أحوال الملائكة المجبولين على الطاعة والعبادة، والمنزَّهين عن

---

[1] المعجم المفصَّل في الأدب، محمد التونجي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، ٢٦٧/١.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٢٤٣/٩-٢٤٤.

المعاصي والآثام، ليس من باب تفضيلهم على غيرهم، وإنَّما أراد أن يقدِّم نموذجًا معلومًا لدى المخاطَبين بمثابة الدليل؛ لكي يدعم حضور فكرة الإقرار والإيمان في أذهانهم، ويجعلها أكثر تأثيرًا وقبولًا من فكرة الإنكار والكفر.

وللتعريض دور فاعل في تحقيق أمرَيْن: أولها: تنبيه المشركين إلى ضلالهم وشركهم، ودعوتهم إلى تصحيح مسارهم العقدي الخاطئ بما أمر الله به من الدين الإسلامي الحنيف. وثانيها: تحريض المؤمنين على الاستزادة من الأعمال الصالحة والنافعة يوم القيامة. وعند النظر إلى هذَيْن النقيضَيْن (التوحيد- الشرك)، وما ينتهي إليه كل واحد منهما، فإنَّه يكون التأثير والإقناع بأنَّ التوحيد طريق موصل إلى جنَّة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وأنَّ الشرك طريق موصل إلى نار جهنم.

وفي بيان قدرة الله وعظمته في الكون برز التعريض في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ [يونس:٥-٦]، ويثبت أنَّه متفرُّد في كل شيء، فهو الذي خلق السماوات والأرض، وما فيها من الشمس والقمر والنهار والليل، وقدَّرها بقدر معلوم، وجعلها آيات بيِّنات لأهل العلم والتقوى.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه عرَّض في (قوم يعلمون، قوم يتقون) بالمشركين الذين لم ينتفعوا بتفصيل الآيات لهم، ولم يهتدوا بها؛ إثر عنادهم وجهلهم واستكبارهم عن الحق المبين، وما ذكر هذه الدلائل الواضحة إلا ترغيب وحث على «التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإنَّ بذلك تنفسح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة»[1]، فالعلم والتقوى وسيلتان من الوسائل المعينة على فهم واستيعاب الأطروحة الحِجَاجيَّة المعروضة، التي تسعى إلى إعطاء مساحات واسعة للعقول؛ لكي تبرهن لها على عظمة الخالق في خلقه وتدبيره، وتقودها إلى التسليم والإذعان والطاعة، وهذا يسهم في تفنيد كل حجَّة باطلة يتبنَّاها الكفَّار في امتناعهم عن الاستجابة للدعوة الربَّانيَّة، وتمسُّكهم بمعتقداتهم الشركيَّة المنحرفة التي تبعدهم عن الله تعالى،

[1] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، ص٣٥٩.

وتقرّبهم من الشيطان وأعوانه، وتؤدّي بهم إلى الدرك الأسفل من النَّار، فبئس المصير والمنقلب الذي ينتهون إليه.

ويستمدُّ التعريض فاعليَّته من تقرير وحدانيَّة الله وألوهيَّته وربوبيَّته، وبطلان كل ما يتعارض معها جملة وتفصيلًا، ممَّا يساعد على ترسيخ هذه المسألة العقديَّة المهمَّة، التي تنبثق من حشد الأدلَّة الكونيَّة المشاهَدة والمدركة في سياق دعوة الكافرين العاصين بطريقة غير مباشرة، وتنزيلهم منزلة مَن يجحدون تلك الآيات الهاديات وينكرونها؛ لأنَّهم غير مذكورين في عداد القوم الذين يعلمون ويتقون.

ويتضمَّن المعنى التعريضي في الآية الكريمة حمولة إقناعيَّة ودلاليَّة مكثَّفة، تظهر في تثوير الوجه المضمر الذي ينطوي على البؤرة المركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، ويوجِّه مسارها وفق قوَّة الحجج والبراهين، التي من شأنها تغيير الأفكار الزائفة والمواقف الخاطئة، المنحدرة من أساس فاسد ومعتقد ضال، واستبدالها بالأفكار القويمة والمواقف الصائبة، المنطلقة من الشريعة الإسلاميَّة، والمحقِّقة للتأثير في المتلقِّين وإقناعهم بضرورة الامتثال لأوامر الله ونواهيه، والابتعاد عن الشرك والعصيان.

وفي خضم حِجَاج الملأ[1] الذين كفروا من قوم نوح -عليه السلام- ورد التعريض في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود:٢٧]، ويكشف عن حجم جحودهم وإنكارهم، إذ قالوا لنبيِّهم: ما نراك إلا بشرًا مثلنا، وليس لديك زيادة في الجاه والسؤدد والمال تؤهِّلك للنبوَّة، فضلًا عن أنَّه لم يتبعك إلا أراذل[2] القوم من غير رويَّة وتفكير، فإنَّنا نظنُّك كاذبًا فيما تدّعي، ولن نتبعك أبدًا. فعاقبهم الله عقابًا شديدًا؛ جزاء بما يعتقدون ويفعلون.

وتقوم المحاجَّة على أنَّ الكفرة المستكبرين عرَّضوا في (ما نراك إلا بشرًا مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي، وما نرى لكم علينا من فضل) بأنَّهم أحق من نوح بالنبوَّة، وأنَّ الله لو أراد أن تكون في أحد من البشريَّة لكانت فيهم دون غيرهم؛ لأنَّهم يجمعون

---

[1] الملأ: سادة القوم. تفسير التحرير والتنوير، ١٢/٤٥.

[2] الأرذال: الدُّون من الناس، وقيل: الدُّون في منظره وحالاته، وقيل: هو الدُّون الخَسيس، وقيل: هو الرَّديء من كل شيء. لسان العرب، مادَّة: (رذل)، ٦/١٤٢.

ما بين صفات المجد والسيادة والشرف، ممَّا يؤهِّلهم إلى استحقاقها بجدارة واقتدار، ولا منافس لهم من منظورهم الدنيوي، ولكن غاب و«زلَّ عنهم أنَّ التقدُّم في الدنيا لا يقرِّب أحدًا من الله وإنَّما يبعده، ولا يرفعه بل يضعه، فضلًا أن يجعله سببًا في الاختيار للنبوَّة والتأهيل لها، على أنَّ الأنبياء -عليهم السلام- بعثوا مرغِّبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهِّدين فيها، مصغِّرين لشأنها وشأن مَن أخلد إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله، والتشرُّف بما هو ضعة عند الله»[1]، ولذا جاء الخطاب القرآني مشحونًا بحمولات حِجَاجيَّة، تبيِّن مرتكزات الدعوى الباطلة التي يتخذها المشركون مرجعيَّة لهم في حِجَاجهم ولجاجهم، وتتمثَّل في ثلاثة شبهات: أولها: أنَّه بشر مثلهم، ولا فرق بينه وبينهم. وثانيها: أنَّه اتبعه أراذل القوم، ولو كان صادقًا لاتبعه الأكياس والأشراف من الناس. وثالثها: أنَّه لا فضل له عليهم لا في العقل، ولا في رعاية المصالح، ولا في قوَّة الجدال[2]. وكل هذه الشبهات والحجج مدحوضة بالبيِّنة الدامغة والبراهين المفحمة المستمدَّة من التشريع الإلهي، الذي يخاطِب المنكرين بما يدركون ويعون، ويثبت لهم بشريَّة النبي المرسل إليهم، وصدق رسالته.

وفاعليَّة التعريض تأتي من إبطال مزاعم الضالين، وتأكيد نبوَّة نوح -عليه السلام- من خلال سلسلة من المقدِّمات التي مهَّدوا بها، وأعدُّوها دليلًا قاطعًا يسوِّغ لهم اتهامه بالكذب والحط من قدره وقدر اتباعه، ولم يسيؤوا في هذا الإنكار والتكذيب إلى نوح ومَن آمن معه فحسب، وإنَّما تجاوزوا بالإساءة إلى الله -جلَّ جلاله-؛ لأنَّه هو الذي اصطفاه من بين هؤلاء البشر، ولم يعلموا أنَّ من عدالته لا يحاسب أحدًا من القوم؛ حتى يرسل إليهم رسولًا منهم، يتحدَّث بلسانهم، ويدعوهم إلى الحق المبين، ولم يكن المقياس الحقيقي عنده إعمار الحياة الدنيويَّة والانشغال بزخارفها، بل يكون في الاستعداد للحياة الأخرويَّة وإعمارها، يوم لا ينفع جاه ولا مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم من الشرك والضلالات، ويكمن فضل الرسول على قومه في إبلاغ الرسالة إليهم، وإنذارهم من الاستمرار في الطريق الخاطئ، وتحذيرهم من عواقب الكفر الوخيمة؛ وذلك لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وهذا ما يزيد من درجة التسليم والاقتناع والقبول بتلك الدعوة المطروحة أمام المدعوين.

---

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٤٨١/١٢.

[2] ينظر: حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي الحنفي، ضبطه وصحَّحه وخرَّج آياته: محمد عبدالقادر شاهين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، ٦٣٧/٤.

وفي قولــه تعــالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود:٤٥] برز التعريض مفصحًا عن نداء نوح -عليه السلام- إذ أشار إلى أنَّ ابنه من أهله دون أن يصرّح بالمطلوب تأدُّبًا مع ربّه، وحياء منه، واعتقادًا بأنَّه عليم بكل ما يريده، ويتمحور سؤله حول تنجية ابنه من الهلاك؛ لأنَّ الوعد الحق يقتضي إنجاء أهله معه في السفينة، فأجابه تعالى بأنَّ ابنه كافر، وليس في جملة الناجين.

وحِجَاجيَّة التعريض تنهض على أنَّ نوحًا عرَّض في (ابني من أهلي، ووعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين) بالسؤال عن «حكمة الله -التي لا يشك فيها- في غرق ابنه مع توافر موجبات نجاته... التي تشكِّل موقفًا يدعو إلى الحيرة، حيرة لا يعصم منها إلا الإيمان الواثق بوعد الله، الموقن بحكمته في كل ما يفعل، وإن خفي وجهها على عقل المؤمن»[1]، وقد جاء الجواب من أحكم الحاكمين صريحًا في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود:٤٦]، ويكشف عن مصير ابنه الذي لم يكن في عداد الناجين؛ بسبب كفره، وعصيانه، ومخالفته أمر أبَيْه، واتباعه أهل الضلالة والفساد، ولذا أراد الله أن يلفت الانتباه إلى أنَّ «أهليَّة الأنبياء ليست أهليَّة الدم واللحم، ولكنَّها أهليَّة المنهج والاتِّباع... فكأنَّ البنوَّة هنا عمل، وليست ذاتًا، فالذات منكورة هنا، والمذكور هو العمل، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابنًا لنوح»[2]، مهما كانت بينهما من أواصر النسب والقرابة، فلا تشفع له أبدًا ما لم يتَّبع سبيل الهداية والرشاد، وهذا يحسم المسألة نهائيًّا، ويدفع عنه شفقة الأبوَّة على البنوَّة، ويدعم تفعيل القاعدة الرئيسة التي تؤكِّد نجاة المؤمنين معه في السفينة، وغرق الكافرين في الطوفان.

ومفعول التعريض الحِجَاجي يعتمد على توظيف الأمر الممكن (ابني من أهلي) في مكان غير الممكن (نجاة ابنه الكافر من التهلكة)، ويسعى إلى أن يشمل الوعد الحق ابنه، ولكن الله لم يقدِّر ذلك، وهو أحكم الحاكمين، وقد جعل من قصَّة نوح وابنه العاصي نموذجًا حيًّا معلومًا لدى المتلقِّين بمثابة البرهان؛ لكي يبيِّن لهم عظم الكفر والجحود، وأنَّ عاقبتها الفناء والهلاك، ولا تقبل شفاعة في الكفَّار.

---

[1] التعريض في القرآن الكريم، إبراهيم محمد عبدالله الخولي، دار البصائر، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، ص٨٣.

[2] تفسير الشعراوي، ٦٤٨٤/١١.

وينطوي الخطاب القرآني على طاقة تأثيريَّة وإقناعيَّة، تظهر النهاية الحتميَّة المؤسفة التي يصل إليها الكفرة، وهذا يسهم في تقريب المشهد من الأفهام، وتقوية حضوره في الأذهان، وتعميق أثره في النفوس، ممَّا يقود إلى ترسيخ قضيَّة عقديَّة جوهريَّة، تقوم على توحيد الله والإيمان به، وإقصاء الكفر والشرك، وأخذ العظة والعبرة من أولئك القوم الجاحدين الذين هلكوا بسوء أقوالهم وأعمالهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ [يوسف:٥٠] ظهر التعريض مبيِّنًا موقف يوسف -عليه السلام- عندما طلب الملك رؤيته من بعد أن عبَّر رؤياه، وأمر بإخراجه من السجن، ولكنَّه رفض الخروج منه قبل أن تثبت براءته من الاتهامات الكاذبة التي افترتها عليه امرأة العزيز.

والحجَّة تنهض على أنَّ يوسف عرَّض في (ما بال النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن إنَّ ربِّي بكيدهنَّ عليم) بالحادثة التي وقعت له في بيت العزيز، وأراد أن يستثمر هذه الفرصة السانحة، ويلفت انتباه الملك إلى قضيَّته الشائكة من خلال السؤال عن حال «النسوة؛ ليظهر براءة ساحته عمَّا قرف به وسجن فيه، لئلا يتسلَّق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سلَّمًا إلى حطِّ منزلته لديه»[1]، فضلًا عن إغلاق هذه القضيَّة، وطي أحداثها الجائرة إلى الأبد. وقد استدعى السؤال عنصرَيْن أساسَيْن في مجريات الواقعة، أولهما: الشهود الذين يتمثَّلون في النسوة. وثانيهما: الدليل الذي يتمثَّل في ذكر المسبَّب (تقطيع أيديهن) عن السبب (إعجابهن به، ومراودتهن إيَّاه). وهذه إحالة مهمَّة تساعد على إحضار الموضوع برمته أمام الملك، وكأنَّه يطلب منه إعادة النظر في محاكمته من جديد؛ لأنَّ المحاكمة السابقة ظالمة بكل المقاييس، ومبنية على أساس غير صحيح البتَّة، ومعدومة الأدلَّة والبراهين، ممَّا يقتضي تقويض أحكامها، ومعاودة البت فيها بما يتوفَّر من شهود ودلائل؛ للتمييز بين الحق والباطل، والوصول إلى محاكمة تحقِّق العدل والإنصاف.

ويستقي التعريض مفعوله الحِجَاجي من تجسيد المعاني المجرَّدة (الإعجاب الباعث على المراودة) في صورة حسيَّة موحية (تقطيع الأيدي)، ويدل توجيه الخطاب إلى النسوة دون ذكر

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٥١٩/١٢.

امرأة العزيز على كرم يوسف وحسن أدبه، والمحافظة على مواجب الحقوق، والاحتراز عن المكر، وتكثيف حضورهن بوصفهن شهود العيان، إذ يطمع في صدعهن بالحق، وشهادتهن بإقرار امرأة العزيز بأنَّها راودته عن نفسه فاستعصم[1]، ودبَّرت له التهم ودخول السجن عقابًا له؛ لعدم انصياعه لمراودتها.

وتتأسَّس الصورة التعريضيَّة في الآية الكريمة عن طريق إثبات براءة يوسف وتنزيهه عن الشوائب والعوائب، وتعدُّ هذه القصَّة نقطة تحوُّل في حياته، بعد أن كان في السجن مهملًا، أصبح مكينًا أمينًا لدى الملك، وعند تأمُّل المراحل الصعبة التي مرَّ بها، فإنَّه يتحقَّق التأثير والإقناع بأنَّ الصدق منجاة، والعفَّة منجاة، والصبر منجاة، ولطف الله يحيط بعباده الصالحين في كل حين، إذ يبتليهم؛ ليرفع درجاتهم في الدنيا والآخرة.

وفي صدد الدفاع عن القرآن الكريم ورد التعريض في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل:١٠٢]، ويؤكِّد أنَّه ليس افتراء من الرسول، بل نزل به روح القدس[2] من عند الله؛ لكي يثبِّت الذين آمنوا بالهدى، ويقوِّي إيمانهم، ويزيدهم يقينًا وتصديقًا، ويردع الذين كفروا بالحق، وتوغَّلوا في أوحال البهتان والضلالة.

ومحاجَّة التعريض تأتي من أنَّه عرَّض في (ليثبِّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) بالمشركين الضالين؛ لأنَّ مداركهم تقصر «عن إدراك ذلك الحق، فيختلط عليهم الفهم، ويزدادون كفرًا ويضلون، ويكون نذارة لهم»[3]، بخلاف المؤمنين المهتدين الذين يدركون البيِّنات ويتبعونها، فتزيد من رسوخ إيمانهم، وسداد آرائهم، وتثبيت قلوبهم بالهدى والبشرى، وشتَّان بين حال المؤمنين وحال المشركين. وقد جاءت هذه الآية الكريمة تفنيدًا للادعاء الوارد في الآية السابقة لها في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل:١٠١]، وبيانًا لحجم بهتانهم وتكذيبهم وإنكارهم، وتأكيدًا لصحَّة دعوة رسول الله بأنَّه ليس بمفتر ولا القرآن الكريم بافتراء، بل نزَّله روح القدس من الله، وهذا يسهم في تقويض مزاعمهم الباطلة، ودحض دعواهم الواهية بالبيِّنة

---

[1] ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٤٠٢/٣.

[2] روح القدس: جبريل -عليه السلام-. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٥٨٤/١٤.

[3] تفسير التحرير والتنوير، ٢٨٥/١٤.

المسكتة والحجَّة المفحمة، بحيث لا تدع مجالًا لهم للتفاوض والأخذ والرد، ممَّا يدعم حضور الأطروحة الحِجَاجيَّة المتمثِّلة في أنَّ كلام الخالق لا يليق البتَّة أن يتصف بكلام المخلوق.

ويكتسب التعريض فاعليَّته من تقرير مسألة جوهريَّة، وهي أنَّ القرآن الكريم منزَّل من عند الله، ومنزَّه عن كل عيب ونقص، ويحمل في طيَّاته الحق المبين والهداية للبشريَّة قاطبة، ويقدِّم نماذج مضيئة من الأقوام السالفة بمثابة الدليل؛ لكي يرسِّخ قضايا مفصليَّة كبرى، تتمركز على توحيد الله والإيمان به، ونفي الشركاء عنه، وإفراده بالألوهيَّة والعبوديَّة وحده دون سواه، والامتثال لأوامره ونواهيه.

إنَّ معرفة ماهيَّة القرآن الكريم التي تدعو إلى طريق النور والرشاد كفيلة بإقناع الكافرين العاصين والتأثير فيهم، وتصحيح مسارهم العقدي الخاطئ، وما يترتَّب عليه من مواقف وأفكار، بما يتفق مع التعاليم الإلهيَّة، ويوحي ذكر المسلمين وأحوالهم بزيادة مدحهم، والثناء عليهم، والحث على الاقتداء بهم، وفي الجانب المقابل لم يذكر الكفَّار وأحوالهم؛ لأنَّهم لا يستحقون أن يكونوا في عداد المذكورين تقليلًا من قدرهم وشأنهم.

وفي خضم حديث النبيَيْن موسى وهارون -عليهما السلام- مع ربهما برز التعريض في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه:٤٧]، ويفصح عن التوجيه الربَّاني لهما في التعامل مع الطاغية فرعون، الذي تجاوز الحدود في العصيان والعناد والاستبداد، حتى إنَّه قال: أنا ربكم الأعلى.

والحجيَّة تتجلَّى في أنَّ موسى وهارون عرَّضا في (قد جئناك بآية من ربِّك والسلام على مَن اتبع الهدى) بفرعون، إذ يسعيان إلى تحقيق أمرَيْن: أولها: توبيخه على التمادي في الكفر والفسوق والطغيان. وثانيها: دعوته إلى تصديق آيات الله واتباعها، والارعواء عن الجحود والإنكار؛ ليكون من المشمولين في ذلك السلام، الذي يقصد به السلامة في الدنيا والآخرة من العذاب الأليم، وليس تحيَّة فرعون[1]. وكلا الأمرَيْن يحمله على الإقرار بأنَّه لا إله إلا الله وحده لا شريك له في وحدانيَّته وملكوته، ممَّا ينقض حججه الزائفة المبنيَّة على ادعاء الربوبيَّة والألوهيَّة ظلمًا وعلوًّا، ويدل توحيد الآية مع تعدُّدها في العمليَّة الحِجَاجيَّة على أنَّ «المراد إثبات الدعوى

[1] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ١٦/٢٣٠.

ببرهانها لا بيان تعدُّد الحجَّة»[1]، وهذا يسهم في إقصاء الأفكار الكفريَّة الخاطئة، التي تتعارض شكلًا ومضمونًا مع الأفكار الإيمانيَّة الصائبة، ويجعل المخاطَب أكثر فعاليَّة وقبولًا لما يطرح عليه من مسائل وموضوعات.

وتأتي فاعليَّة التعريض من الاعتماد على الواقع النموذجي للمؤمنين المهتدين في سياق إبطال العقيدة الفرعونيَّة الضالة الموغلة في الكفر والبغي، واستبدالها بالعقيدة الإلهيَّة الصحيحة التي جاءت بها الرسل، ودعت إليها، ويعدُّ بزوغ نورها إيذانًا بنقل الإنسان من عبوديَّة الخلق إلى عبوديَّة الخالق، وتحريره من الخضوع والتبعيَّة والطاعة لغير الله، وإعادة له التوازن النفسي والاجتماعي.

وللتعريض دور بارز في الكشف عن مضمرات الخطاب القرآني، الذي يؤسِّس لمرحلة مهمَّة في تاريخ فرعون موسى، وتتمحور حول ترسيخ المبادئ القويمة التي يبنى عليها مرتكزات الاعتقاد الصحيح، ويتحقَّق التسليم والاقتناع من خلال النظر إلى النتيجة المترتِّبة على معتقد موسى وهارون الذي يدعو إلى اتباع الهداية المنجية من العذاب الشديد، ومعتقد فرعون الذي ينظر إليه بوصفه إلهًا يعبد من دون الله، ويوصل إلى نار جهنم، وهذا بون شاسع بين المعتقدَيْن، ويساعد على استيعاب جدليَّة الهدى والضلال.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء:٦٣] ظهر التعريض مبيِّنًا قصد إبراهيم -عليه السلام- التهكُّمي من المشركين، إذ نسب تحطيم أصنامهم إلى كبيرهم، وحثَّهم على سؤالهم عن الذي فعل بهم هذه الفعلة الشنيعة لعلهم ينطقون، وأراد أن يثبت لهم أنَّهم لا ينطقون أبدًا، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أصلًا، وليس بمقدورهم نفع ولا ضر.

وتظهر المحاجَّة في أنَّ إبراهيم عرَّض في (بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون) بالكفرة الذين اتخذوا من الأصنام إلهًا يعبدونه، ولا يغني عنهم من الله شيئًا. وقد أتت هذه الآية الكريمة جوابًا عن السؤال الوارد في الآية السابقة لها في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء:٦٢]، وتبيانًا للمسلك التعريضي الذي سلكه إبراهيم؛ لكي يحقِّق مقصده، وهو إلزام الكفَّار الحجَّة على ألطف وجه وأحسنه، بحملهم على التأمُّل في شأن

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٢٨٤/٤.

آلهتهم، مع ما فيه من التوقّي عن الكذب[1]، حيث أبرز كبيرهم قولًا في معرض المباشِر للفعل بإسناده إليه، كما أبرزه في ذلك المعرض فعلًا بجعل الفأس في عنقه، وجاء إسناده إليه بطريق التسبيب؛ لأنَّ تلك الأصنام غاظته حين أبصرها مصطفَّة مرتَّبة لعبادة غير الله، وكان غيظ كبيرهم أكبر وأشدَّ من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه باعتبار أنَّه الحامل عليه[2]، وهذا ينسجم مع الخطاب الحِجَاجي الذي يؤكِّد انتفاء تعدُّد الآلهة، وإثبات وحدانيَّتها، وانتفاء ألوهيَّة الأصنام جميعهم؛ لانكشاف عجزهم عن دفع الاعتداء على أنفسهم، والاستهزاء بهم، والسخرية منهم، والحط من قدرهم ومقامهم، وأنَّ ما لا ينطق، ولا يعقل، ولا يعرب عن نفسه غير حقيق بالألوهيَّة[3] والعبادة البتَّة، ولا يعتدُّ به، ولا يلتفت إليه.

ويعتمد مفعول التعريض الحِجَاجي على تشكيل الأشياء المعقولة (ما يعتقده الكافرون) في صورة محسوسة مشاهَدة (الأصنام)، ويوحي تحطيمهم بإسقاط اعتقادهم الكفري الفاسد، الذي يتخذ منهم إلهًا يعبد من دون الله، وتكمن البؤرة المركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة في الحث على سؤال الأصنام المحطَّمة (فسألوهم إن كانوا ينطقون) عن الذي حطَّمهم، وشتَّت شملهم، وفرَّق جمعهم، بعد أن نسب الفعل إلى كبيرهم (بل فعله كبيرهم هذا)، وكأنَّه يريد تأكيد أنَّ الباطل يحطِّم نفسه بنفسه، ولا يستطيع مقاومة الحق المبين المدعوم بالأدلَّة والبراهين، ممَّا يسهم في تهيئة المستكبرين الضالين، وتوجيههم إلى ميادين الاستقامة والنجاة، وتحذيرهم من الشرك والعصيان، وسوء عاقبتهما.

ويتضمَّن المعنى التعريضي في الآية الكريمة حمولة إقناعيَّة وتأثيريَّة، ترسِّخ الموقف الإلهي الثابت في مواجهة الأصنام وتحطيمهم؛ لأنَّهم يفتنون الناس، ويشغلونهم عن عبادة خالقهم على هدى وبصيرة، ولذا اقتضى تقديم العقيدة الصحيحة بأسلوب بليغ مؤثِّر مقنع، يوقظ النفوس من غفلتها وجهلها، ويحرِّك مدارك النظر والتفكير، ويوسِّع آفاق الرؤية، فالحجَّة تقوم على (أنَّ كل شيء يعبد من دون الله هالك وفانٍ)، وتكون النتيجة (لا إله إلا الله وحده المستحق للألوهيَّة والعبادة).

---

[1] ينظر تفصيل هذه المسألة: التعريض في القرآن الكريم، ص٤٣-٦٦.

[2] ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٦٨٢/١٧. وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٣٤٥/٤.

[3] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ١٠١/١٧.

وفي قولـــــه تعـــــالى: ﴿*وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء:٨٣] ورد التعريض مفصحًا عن نداء أيوب -عليه السلام- من بعد أن أصابه البلاء في جسده وماله وولده[1]، وانفضَّ الناس من حوله قريبهم وبعيدهم، وصار وحيدًا فريدًا طريدًا لا أنيس له ولا مأوى، وتكالبت عليه نوائب الدهر، وأثقلت كاهله، والله أرحم الراحمين بعباده الصالحين.

وحِجَاجيَّة التعريض تنهض على أنَّ أيوب عرَّض في (أنِّي مسَّني الضر وأنت أرحم الراحمين) بسؤال العافية والرحمة من الله دون أن يصرّح بالدعاء، حيث «ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، ووصف ربَّه بغاية الرحمة؛ ليرحمه، فكان في ذلك من حسن التلطُّف»[2]، وجميل الصبر، وعظيم التأدُّب، وشدَّة الحياء، وإظهار الضعف والافتقار، وتوسُّله إلى الله بأرحم الراحمين ما ليس في التصريح بالطلب، إذ ينطلق من أساس عقدي صحيح، يقوم على التصديق المطلق والتسليم التام بقضاء الله وقدره، ممَّا جعله صابرًا على البلاء الشديد، ومحتسبًا للأجر والثواب، ومحاطًا بالرضا والطمأنينة المنبثقة من قوَّة الإيمان واليقين، ولذا استجاب الله له مباشرة في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٤]، وهذا يؤكِّد ضرورة (الإيمان بالقضاء والقدر) في الحياة البشريَّة؛ لأنَّ عليه مدار الصبر والاحتساب، والله أرحم الراحمين بالعباد، يبتليهم؛ ليرفع درجاتهم ومنازلهم عنده.

ويستمدُّ التعريض مفعوله الحِجَاجي من الصورة الذهنيَّة التي رسمها القرآن الكريم للنبي الصبور أيوب -عليه السلام- إذ وظَّف قصَّته العجيبة في وقوع البلاء من جانب، وإزاحة البلاء عنه من جانب آخر، ليقدِّم نموذجًا حيًّا معلومًا لدى المتلقِّين بمثابة الدليل؛ لكي يبيِّن لهم قدرة الله وعظمته في تدبير شؤون الخلق سواء في الخير أو الشر، ويعزِّز حضور فكرة الإيمان في عقولهم، بحيث تكون أكثر تأثيرًا وكفاءة من فكرة الكفر.

وتتأسَّس الصورة التعريضيَّة في الآية الكريمة عن طريق تقرير قضيَّة إيمانيَّة عقديَّة، وهي (القضاء والقدر)، ويدل التعبير بالمس عمَّا حلَّ به من الضر على صدق التوكِّل واليقين؛ لأنَّ

---

[1] ينظر: قصص الأنبياء، ص٢٦٧-٢٧٣.

[2] التسهيل لعلوم التنزيل، ٢/٩٧١.

الأمر كله بيد الله، وإذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وهذا يدفع إلى الإذعان والاقتناع بأنَّ كل ما يصيب الإنسان من مسرَّة أو مضرَّة فيه حكمة خفيَّة، لا يستوعبها إلا المؤمن.

وفي وصف حال المشركين المعرضين برز التعريض في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾ [الفرقان:٧٣]، ويبيّن ما هم عليه من الكبر والطغيان عند سماع آيات الله البيّنات، إذ لم يتلقَّوها بالقبول والتسليم والطاعة، ولم يقبلوا عليها سامعين مبصرين، بل كانوا صمًّا وعميانًا عن اتباع ما فيها من الهدى والرشاد، والانتفاع بها في الدنيا والآخرة.

ومحاجَّة التعريض تأتي من أنَّه عرَّض في (لم يخرُّوا عليها صمًّا وعميانًا)[1] بالكفرة المنكرين، وأراد أن يثبت لهم هاتَيْن الصفتَيْن (الصم- العمى)، وينفيهما عن المؤمنين. ويحمل الخطاب القرآني في طيَّاته دلالتَيْن رئيستَيْن: الدلالة الأولى ترتبط بالمنطوق، وتتمثَّل في أنَّ من صفات عباد الرحمن أنَّهم إذا ذكِّروا بآيات ربِّهم لم يخرُّوا عليها؛ لأنَّهم يسمعون ما فيها من الحق، ويبصرون دلائله. والدلالة الثانية ترتبط بالمفهوم، وتظهر في أنَّ الكفَّار المخالفين لعباد الرحمن إذا ذكِّروا بآيات ربِّهم خرُّوا عليها صمًّا وعميانًا خرور إنكار وتكذيب، لا يسمعون، ولا يبصرون[2]. ويبدو في هذا السياق الوعظي أنَّ الخرور غير محمود البتَّة؛ لأنَّه يشتِّت التركيز والانتباه، ويعطِّل حاستَيْ السمع والبصر بوصفهما وسيلتَيْن من وسائل الإحساس والمعرفة والوعي، ويمنع العقل من الاستجابة لكل ما يعرض عليه من أطروحات وقضايا، ممَّا يجعل الخرور لا يناسب ما تتطلَّبه الآيات الهاديات من إنصات وإدراك وبصيرة.

وينتزع التعريض فاعليَّته من المدركات الحسيَّة لدى الإنسان، وتتمثَّل في (السمع- البصر)، إذ يسعيان إلى تجلية حالتَيْن متضادَّتَيْن: أولها: حالة الإيمان، ويكون عملهما فيها طبيعيًّا؛ لأنَّهما يؤدِّيان الدور المنوط بهما، الذي يعين على التدبُّر والتفكُّر في الأدلَّة الكونيَّة المرئيَّة والمدركة. وثانيها: حالة الكفر، وينتقلان فيها من العمل إلى عدمه، ويطلق عليهما في الحياة الواقعيَّة (الصم- العمى)، ويقصد بهما فاقدو السمع والبصر، ويدل توظيفهما في دعوة الكافرين على شدَّة كفرهم وإصراراهم عليه، فكأنَّهم في منزلتَيْ الصم عند سماع الحق المبين، والعميان عند رؤية النور الساطع.

---

[1] الخرور: السقوط على غير نظام وترتيب. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٥١/١٠.

[2] ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٣٩٥/٦-٣٩٦.

إنَّ الاستدلال بحواس الإنسان على أثر الإيمان والكفر كفيل بإقامة الحجَّة على الجاحدين الباغين من أنفسهم، وهذا يحقِّق التأثير فيهم، وإقناعهم بأنَّ طريق الضلال يقود إلى الخلود في النَّار، وأنَّ طريق الهدى يؤدِّي إلى جنَّات النعيم الخالدة، ممَّا يسهم في تغيير أفكارهم ومواقفهم من التطرُّف والانحراف إلى الاعتدال والاستقامة؛ لكي ينالوا الفلاح والنجاة في الحياتين الدنيويَّة والأخرويَّة.

وفي قوله تعالى: ﴿*وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت:٤٦]، ظهر التعريض مفصحًا عن التوجيه الإلهي للرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- والمؤمنين في التعامل مع أهل الكتاب[1]، بحيث لا يجادلونهم إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وتجاوزوا الحدود، فإنَّهم يكونون في جملة العصاة المنكرين.

والحجيَّة تنهض على أنَّه عرَّض في (وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) بأهل الكتاب؛ لأنَّهم «متأهِّلون لقبول الحجَّة غير مظنون بهم المكابرة، ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة، فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجَّة دون إغلاظ حذرًا من تنفيرهم، بخلاف المشركين، فقد ظهر من تصلُّبهم وصَلفهم وجلافتهم ما أيأس من إقناعهم بالحجَّة النظريَّة، وعيَّن أن يعاملوا بالغلظة، وأن يبالغ في تهجين دينهم وتفظيع طريقتهم؛ لأنَّ ذلك أقرب نجوعًا لهم»[2]، وأعمق تأثيرًا فيهم، وأشد وقعًا عليهم، إذ ينطلق الذين ظلموا منهم من حسد دفين وبغض متجدِّد بدعوى أنَّ الله نسخ شريعتهم بالإسلام، فأبوا أن يتلقَّوا الدعوة من رسوله الكريم ظلمًا واستكبارًا[3]، ولذا أسهم التعريض إسهامًا كبيرًا في الكشف عن عقيدة أهل الكتاب، والطريقة المناسبة لمجادلتهم ودعوتهم إلى الدين الإسلامي الحنيف، والرد على شبهاتهم ومزاعمهم بالبراهين القطعيَّة المستمدَّة من الشريعة الإلهيَّة، وإبطال ما كانوا عليه من اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وتحقيق الغاية الجوهريَّة الكبرى، وهي أنَّه لا إله إلا الله وحده لا شريك له في الألوهيَّة والعبوديَّة.

---

[1] المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى الباقون على دينهم. المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٣٢٠/٤.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٦/٢١.

[3] ينظر: المرجع السابق، ٧/٢١.

وفاعليَّة التعريض تكمن في ترسيخ المبادئ القويمة التي يبني عليها الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- والمؤمنون مرتكزات دعوة أهل الكتاب إلى الشريعة الإسلاميَّة، حيث تبلورت في مسارَيْن رئيسَيْن: الأول: يقوم على التعامل معهم بالتي هي أحسن في حال استماعهم لنداء الحق والقبول به. والثاني: يدور حول التعامل معهم بالغلظة والشدَّة في حال ظلمهم لأنفسهم بامتناعهم عن الحق وعدم الانتفاع به. وكلاهما يريد الوصول إلى نتيجة محدَّدة، مفادها (توحيد الله تعالى، ونفي الشركاء عنه).

وينطوي الخطاب القرآني على طاقات تأثيريَّة وإقناعيَّة، تبيِّن الأهداف السامية التي يسعى الإسلام إلى تحقيقها؛ لكي يحرِّر العقول البشريَّة من شرك العبوديَّة إلى عبوديَّة الله وحده دون سواه، وهذا يسهم في تغيير الأفكار والمواقف والمعتقدات المترتِّبة عليها بما ينسجم مع التعاليم الربَّانيَّة، التي تدعم وتقوِّي حضور مسألة الإيمان بالأطروحة الإسلامية المعروضة، وتجعلها أكثر نجاعة وجدوى من مسألة الكفر بها.

وفي قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ:٢٤] جاء التعريض مجلِّيًا ما وصل إليه المشركون من ضلال مبين وعناد شديد، من بعد دعوتهم إلى اتباع المنهج الإسلامي الصحيح، وترك المسلك الشركي الخاطئ، إذ يؤدِّي الامتثال إلى نهاية يسعد بها مَن آمن واتقى، في حين أنَّ العصيان يقود إلى نهاية يشقى بها مَن كفر وبغى.

وتظهر المحاجَّة في أنَّه عرَّض في (وإنَّا أو إيَّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) بالكفرة الضالين، وهذا من باب الترغيب والتلطُّف «بالخصم المعاند حتى لا يلج في العناد، ولا يفكِّر في الأمر الذي يجادل فيه، وإلا فالرسول والمؤمنون هم الذين على هدى، والمشركون هم الذين في ضلال مبين، وهو أمر مسلَّم لدى طرفَيْ النزاع»[1]، ولا خلاف فيه. وقد مهَّد لهذا التعريض باستفهام تقريري (مَن يرزقكم من السماوات والأرض)، وتولَّى السائل نفسه (الرسول) الإجابة والإقرار عن المسؤولين (الكافرين) بقوله: (يرزقكم الله)، فكان السؤال والجواب من جهة واحدة؛ وذلك «للإشعار بأنَّهم مقرُّون به بقلوبهم إلا أنَّهم ربما أبوا أن يتكلَّموا به؛ لأنَّ الذي تمكَّن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحَّته، ولأنَّهم

[1] أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، ٤/٣٢٠.

إن تفوَّهوا بأنَّ الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فما لكم لا تعبدون مَن يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق»[1]، وفي كلا الحالَيْن سواء أظهروا ما في أنفسهم أو أضمروه، فإنَّ الحجَّة قائمة عليهم لا محالة من خلال إيراد الشواهد الدامغة والدلائل المسكتة، التي تفنِّد عقيدتهم الباطلة المبنية على أساس كفري فاسد، وتعزّز فعاليَّة الدعوة الإسلامية في التصدِّي لبراثن المشركين، وترسيخ دعائم العقيدة الصحيحة، التي تسهم في تقويم المسار الإنساني وفق التوجيه الإلهي.

ومفعول التعريض الحِجَاجي يعتمد على توظيف مظهر مشاهَد ومدرك من مظاهر الحياة الواقعيَّة، ويتمثَّل في الرزق، حيث يتشكَّل في جانبَيْن معلومَيْن لدى المخاطَبين: أولها: رزق السماء، مثل: الغيث، والحرارة، والضوء. وثانيها: رزق الأرض، مثل: عيون الماء، والنباتات، والحيوانات. وكلاهما يكون بمثابة الدليل القاطع على قدرة الله العظيمة في الكون، التي تفوق كل قدرات الخلائق، وتبرز عمق رسالة الإسلام.

وللتعريض دور فاعل في استدراج الكفَّار، وحملهم على الإذعان والتسليم، إذ يوحي دخول (على) على الهدى، و(في) على الضلال بتحديد مصير المهتدين ومصير الضالين، فكأنَّ أهل الهدى على مركب النجاة مستقرّون، بخلاف أهل الضلال الذين كأنَّهم في بحر الهلاك غارقون، وهذا يقرِّب من الأذهان صورة الحق المشرقة من ناحية، وصورة الباطل المظلمة من ناحية أخرى، وشتَّان بين النور الساطع والظلام الدامس.

وفي صدد حِجَاج المشركين المنكرين ورد التعريض في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣﴾ [يس:٢٢-٢٣]، ويفصح عن المنطلقات العقديَّة الرئيسة التي ينطلق منها ذلك الرجل[2] المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة يسعى؛ لكي يقدِّم لهم النصائح والمواعظ، ويدعوهم إلى عبادة مَن بيده مقاليد السماوات والأرض، والانصراف عن عبادة ما لا يضرهم ولا ينفعهم.

---

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٨٧٣/٢٢.

[2] هو حبيب بن إسرائيل النجار. ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٨٩٢/٢٢. والتسهيل لعلوم التنزيل، ١٢١٩/٣.

وتكمن الحجَّة في أنَّ الرجل عرَّض في (وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون، أأتخذ من دونه آلهة) بأولئك الكفرة العاصين، الذين اتخذوا من الأصنام إلهًا يعبدونه من دون الله. وفي هذا التعريض استمالة وترغيب في قبول الحق، و«تلطُّف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح، حيث أراهم أنَّه اختار لهم ما يختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم»[1]، والذهاب إلى عبادة الأوثان على غير هدى وبصيرة؛ «بعلَّة أنَّها تشفع لهم عند الله، وتقرِّبهم إليه زلفى. وقد علم من انتفاء دفعهم الضر أنَّهم عاجزون عن جلب نفع؛ لأنَّ دواعي دفع الضر عن المولى أقوى وأهم، ولحاق العار بالوَلِيّ في عجزه عنه أشد... فكأنَّه قال: أأتخذ من دونه آلهة لا شفاعة لهم عند الله؛ لإبطال اعتقادهم أنَّهم شفعاء مقبولو الشفاعة. وإذ كانت شفاعتهم لا تنفع لعجزهم وعدم مساواتهم لله الذي يضر وينفع في صفات الإلهيَّة كان انتفاء أن ينقذوا أولى»[2]، ولذا أتى الخطاب القرآني مشحونًا بحمولات حِجَاجيَّة، تكشف عن الواقع الوثني الذي يعيش فيه الكافرون، وتسعى إلى إبطال كل عبادة تصرف لغير الله تعالى؛ لأنَّه لا يستحق أحد أن يعبد إلا هو وحده دون سواه، ومن البراهين المفحمة الدالَّة على ذلك الاستحقاق أنَّه (فاطر الخلق من العدم، وإليه مرجعهم، وينفع، ويضر)، وكفى بهذه الصفات أن تكون مبرِّرًا مقنعًا لإفراده بالألوهيَّة والعبوديَّة.

ويستقي التعريض مفعوله الحِجَاجي من خلال زاويتَيْن مختلفتَيْن: الزاوية الحسيَّة المتمثِّلة في (الخلق، والنفع، والضر)، والزاوية العقليَّة المتمثِّلة في (الإقرار بالقدرة، والقوَّة، والعظمة). وكلتاهما تدفع إلى تأكيد قضيَّة كبرى مفصليَّة من قضايا العقيدة، وهي توحيد الله، والإيمان به، والامتثال لأوامره ونواهيه، ونفي الشريك عنه. ويدل توجيه الخطاب إلى الرجل نفسه دون ذكر المشركين على تطبيق مبدأ التغيير (ابدأ بنفسك)؛ ليكون قدوة نموذجيَّة يحتذى بها في تصحيح الممارسات التعبُّديَّة الخاطئة، الموجَّهة إلى تلك الآلهة المزعومة، التي لا تفيد عابدها ولا تضره، وهذه الطريقة العمليَّة الفاعلة مدعاة للوصول إلى أعلى درجات القبول والتسليم والإلزام بما تحمله من حجج وأدلَّة.

وتتأسَّس الصورة التعريضيَّة في الآيتَيْن الكريمتَيْن عن طريق تقرير وحدانيَّة الله وربوبيَّته، وبطلان كل ما يتضاد معها جملة وتفصيلًا، ويتجلَّى الغرض الرئيس الذي عليه مدار السياق في

---

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٢٩٤/٥.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٣٦٩/٢٢.

البُعد عن الجدال والمخاشنة، والترفُّق بالمتلقِّين، وترسيخ مشهد الانتقال من الكفر إلى الإيمان في عقولهم؛ للتأثير فيهم وإقناعهم بأنَّ طريق الحق واضح أمامهم لا ريب فيه، ومسلكه يسير، ونهايته دخول الجنَّة، وأنَّ طريق الباطل غامض أمامهم، ويكتنفه الريب، ومسلكه عسير، ونهايته دخول النَّار، وهذا ما يساعد على استيعاب النتيجة المترتِّبة على كل واحد منهما.

وفي بيان أثر الشرك على صاحبه برز التعريض في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥]، ويبيّن النهاية الحتميَّة التي ينتهي إليها المشرك، من بعد أن يعرض عن الدعوة التي أرسل الله بها الرسل، وينكر ما فيها من الهداية والرشاد، ويتبع أهواءه في الضلال والكفر، فيحبط عمله، وتزل به قدمه، ويصبح من الخاسرين.

وحِجَاجيَّة التعريض تقوم على أنَّه عرَّض في (لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ولتكوننَّ من الخاسرين) بمَن يشرك بالله إنكارًا وجحودًا، ويقصد به غير «الرسل؛ لأنَّ الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك، ووجه إيراده على هذا الوجه التحذير والإنذار للعباد من الشرك؛ لأنَّه إذا كان موجبًا لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير، فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى»[1]، وهذه القاعدة الرئيسة التي يبنى عليها المنهج القويم في تعظيم توحيد الله، وتحقير الشرك به. وقد تمحورت الآية الكريمة حول أربعة مسائل: مخاطبة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- والمراد غيره، وإخراج المحال عليه في صورة المشكوك والمراد غيره، واستعمال المستقبل بصيغة الماضي، وذكر (إن) الشرطيَّة قد لا يُراد بها إلا مجرَّد الملازمة التي هي لازمة الشرط والجزاء مع العلم باستحالة الشرط أو وجوبه أو وقوعه[2]. وتظهر البؤرة المركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة من خلال تلك المسائل المطروحة، التي تسهم في استدراج الخصم إلى الإذعان والانقياد والاستسلام، ممَّا يجعله يعدل عن شركه وضلالاته، ويهتدي إلى سواء السبيل.

ويستمدُّ التعريض فاعليَّته من استحضار أمر محال الحصول (شرك الأنبياء) في مكان أمر ممكن الحصول (شرك غيرهم من البشر)؛ لكي يكشف بجلاء عن أثر الشرك وعاقبته الوخيمة،

---

[1] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، اعتنى به وراجع أصوله: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، ١٢٩٠/٢٤.

[2] ينظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص٥٠٧.

إذ يحبط الأعمال، ويفسد الأحوال، ويسبِّب الخسارة والحرمان في الدنيا، ويؤدِّي إلى الهاوية والهلاك في الآخرة، وهذا يدعم حضور الفكرة المحوريَّة، التي تتمثَّل في عدم صلاحيَّة الشرك للإنسان؛ لأنَّه لا يتناسب شكلًا ومضمونًا مع الهدف الأسمى الذي خلق من أجله، وهو توحيد الله تعالى وعبادته.

إنَّ معرفة ما يخلص إليه الشرك من إحباط العمل وسوء المصير كفيلة بإقناع المعرَّض بهم والتأثير فيهم، وتصحيح معتقداتهم الخاطئة بما يتوافق مع التعاليم الإلهيَّة. ويدل توجيه الخطاب إلى الرسل دون ذكر أقوامهم على جانبَيْن: أولها: بيان الحال الذي كان عليه أقوامهم بطريقة تعريضيَّة استدلاليَّة. وثانيها: إبراز المهمَّة التي يضطلعون بها، وهي ردع المشركين عن شركهم وظلالهم، ودعوتهم إلى الإيمان والتوحيد.

وفي قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر:١-٣] ورد التعريض مؤكِّدًا أنَّ القرآن الكريم منزَّل من عند الله العزيز العليم، الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له في الكون، غافر الذنوب، وقابل التوب، شديد العقاب، وإليه المنتهى والمآب، فمَن آمن به وأصلح فقد نجا من النَّار، ومَن كفر به وأفسد فقد وقع في النَّار.

وتنهض محاجَّة التعريض على أنَّه عرَّض في (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول[1] لا إله إلا هو إليه المصير) بمنكري تنزيل الكتاب من الله؛ وذلك لترغيبهم في الامتثال لدعوة الحق، وترهيبهم من التمادي في الفسوق والطغيان، ووعيدهم بالبعث والجزاء في اليوم الآخر. وتعدُّ هذه الصفات الربَّانيَّة مقدِّمات حِجَاجيَّة مهمَّة، تمهِّد إلى ترسيخ عدَّة مسائل: الأولى: الإشعار بأنَّ المنكرين مغلوبون مقهورون، وأنَّ الله يعلم ما تكنُّه نفوسهم فهو محاسبهم عليه. والثانية: تأكيد أنَّ القرآن الكريم كلام العزيز العليم، وأنَّه حقيق بالاتباع، فلا يقدر غير الله على مثله، ولا يعلم غير الله أن يأتي بمثله. والثالثة: فتح باب الأمل للعصاة والكفَّار للمبادرة إلى ساحة الإيمان، والتزام جادَّة الاستقامة على أمر الله ومنهجه. والرابعة: الإشارة إلى فعاليَّة الأسلوب القرآني في إصلاح البشريَّة[2] قاطبة، ونقلهم من التكذيب والتهاون إلى التصديق والعمل. وكل هذه المسائل مجتمعة

---

[1] ذي الطول: ذي الفضل والإنعام، وقيل: الطول الغنى والسعة. التسهيل لعلوم التنزيل، ١٣٠٠/٣.

[2] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ٧٩/٢٤. والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٣٩٢/١٢.

تسهم في تقويض حجج المكذِّبين الجاحدين، وتفنيد ادعاءاتهم الكاذبة ومزاعمهم الباطلة، وإثبات إلهيَّة كتاب الله بالدليل القاطع الذي لا تشكيك فيه ولا جدال.

وفاعليَّة التعريض تكمن في تقرير أصل من أصول التشريع، وهو القرآن الكريم، وإقصاء كل ما يتنافى معه جملة وتفصيلًا؛ لأنَّ تعطيله يمثِّل تعطيلًا لكل ما فيه من أوامر ونواهٍ وأخبار وقصص...إلخ، ولا تتحقَّق بذلك مقاصد الشريعة الإسلاميَّة التي تؤسِّس لمنهج قويم، ينظِّم الحياة الإنسانيَّة بما يجعلها أكثر نجاعة وجدوى، ويسفر عنه الاستقرار الاجتماعي والتوازن النفسي والأخلاقي.

ويتضمَّن المعنى التعريضي في الآية الكريمة حمولة إقناعيَّة وتأثيريَّة، تكشف عن موقف المشركين من الآيات البيِّنات، إذ أصرُّوا على أنَّها ليست من عند الله تعالى زورًا وبهتانًا وظلمًا، وهذه فرية عظيمة على كتاب الله لا تأتي إلا من نفوس قد سيطر عليها الكفر والنكران والحقد، ومهما قالوا فيه من الأقاويل، فإنَّه يبقى مباركًا ومنزَّهًا عن كل شائبة وعائبة، فالحجَّة تقوم على أنَّ (كل مَن أنكر تنزيل القرآن الكريم من عند الله)، تكون النتيجة (له العقاب الشديد في الدنيا والآخرة).

وفي خضم حِجَاج الكافرين المعرضين جاء التعريض في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق:٣٦-٣٧]، ويبيِّن المصير الحتمي الذي ينتهون إليه، ويجدون فيه الجزاء الأوفى لإعراضهم عن الدعوة، وإنكارهم لما فيها من الحق والهدى، واتباعهم الشبهات والضلالات دون ارعواء عنها.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه عرَّض في (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشًا فنقَّبوا في البلاد هل من محيص[1]، إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) بالمشركين الضالين، الذين لم ينتفعوا بشيء من العِبَر والمواعظ؛ بسبب امتناعهم عن الاعتبار بما فيها، واستمرارهم على الشرك والعصيان، وهذا لا يتناسب معها أبدًا؛ لأنَّها تحتاج إلى «قلب سليم يدرك به كُنْه ما يشاهده من الأمور، ويتفكَّر فيها كما ينبغي، فإنَّ مَن كان له ذلك يعلم أنَّ مدار دمارهم هو

[1] فنقَّبوا في البلاد هل من محيص: أي بحثوا وفتَّشوا في البلاد علَّهم يجدون مهربًا من الهلاك، فلم يجدوا. أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، ٥/١٥٠.

الكفر، فيرتدع عنه بمجرَّد مشاهدة الآثار من غير تذكير... وتجريد القلب عمَّا ذكر من الصفات؛ للإيذان بأنَّ مَن عُرِّي قلبه عنها كمَن لا قلب له أصلًا»[1]، وبهذا يخرج من الدائرة البشريَّة بأكملها؛ لأنَّه عطَّل عمل الخصائص التي ميَّزه الله بها عن غيره من المخلوقات، ممَّا يؤكِّد مسألة جوهريَّة، وهي أنَّ الله لم يخلق الإنسان عبثًا، وإنَّما خلقه لغاية مقصودة وحكمة بالغة، ولن يتركه سدى من دون سؤال وحساب[2]، ولذا أسهم التعريض إسهامًا كبيرًا في بيان ما هم عليه من الضلال والطغيان، ودحض دعواهم الواهية بالحجَّة المفحمة والبيِّنة المسكتة، ودعوتهم إلى التأمُّل والتدبُّر في الحقائق والأسباب والنتائج؛ لكي يصلوا إلى العقيدة الصحيحة التي تقوم على توحيد الله والإيمان به.

ومفعول التعريض الحِجَاجي يعتمد على الوسائل الإدراكيَّة لدى الإنسان، وتتمثَّل في (القلب)، إذ يضطلع بدور محوري بوصفه مركز الوعي والإدراك، وموطن المشاعر والأحاسيس، ومحل السلامة والاستقامة، ويتحقَّق في ذكر إهلاك الأمم السابقة جانبان: الأول: التهديد والوعيد لمن أقفل قلبه عن الذكرى، وأصرَّ على كفره وجحوده. والثاني: الحث والترغيب لمن أعمل قلبه معتبرًا، وأقبل على الآيات الهاديات مؤمنًا. وكلاهما يريد الوصول إلى هدف محدَّد، وهو اتقاء العذاب والهلاك، حتى لا يقع للكفرة المنكرين كما وقع لمن قبلهم من الأمم الضالة؛ نتيجة عنادهم وعصيانهم.

وينطوي الخطاب القرآني على طاقة تأثيريَّة وإقناعيَّة، تظهر من خلال تقديم النموذج العملي (إهلاك السابقين) بمثابة الدليل؛ لكي يفصح بجلاء عن الأثر الوخيم المترتِّب على الكفر والضلالة، ممَّا يرسِّخ الموقف الإلهي الثابت من الكفَّار المعرضين عن دعوة الحق، ويدعم حضور الأطروحة الحِجَاجيَّة المتمثِّلة في أنَّه لا سبيل إلى دخول الجنَّة إلا بالامتثال لأوامر الله ونواهيه، والابتعاد عن كل ما يتعارض معها.

ويتبيَّن ممَّا سبق أنَّ الكناية والتعريض قد حضرا في السور المكِّيَّة حضورًا حِجَاجيًّا مؤثِّرًا، وجسَّدا المعاني المعقولة في صور محسوسة مشاهَدة ومدركة، ومصحوبة بحجَّتها ودليلها، إذ تجعل

---

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٦/١٣٠-١٣١.

[2] ينظر على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

المتلقِّي يعلن إذعانه واستسلامه لما تعرضه عليه من قضايا مفصليَّة كبرى، مثل: توحيد الله وعبادته، ونفي الشركاء عنه، والبعث بعد الموت...إلخ.

الفصل الرابع:
وظائف الصورة الحجاجيَّة

الفصل الرابع

وظائف الصورة الحِجَاجيَّة

تعدُّ وظائف الصورة الحِجَاجيَّة جوهر العمليَّة التواصليَّة الفعَّالة، ولا يقتصر دورها على مجرَّد نقل الأفكار والمعارف، بل يتجاوز ذلك إلى إشغال وجدان المخاطَب وتفكيره، وحمله على الإذعان والتسليم بما يعرض عليه من أطروحات وقضايا.

وجاء في اللُّغة أنَّ «الواو والظاء والفاء: كلمة تدل على تقدير شيء. يقال: وظَّفت له، إذا قدَّرت له كل حين شيئًا من رزق أو طعام»[1]، ويكون جمع الوظيفة «الوظائف والوظُف. ووظف الشيء على نفسه ووظَّفه توظيفًا: ألزمها إيَّاه»[2]، و«المواظفة: الموافقة والموازرة والملازمة. واستوظفه: استوعبه»[3]. وتدور الوظائف في معناها اللُّغوي حول معاني التقدير والاحتواء والإلزام ونحوها.

أمَّا في الاصطلاح فقد وردت وظائف الصورة الحِجَاجيَّة في خضم الحديث عن التأثير والإقناع، ومن ذلك ما ذكره "عبدالقاهر الجرجاني" (ت٤٧١هـ) عن التمثيل بأنَّه «إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصليَّة إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبَّة وشغفًا... فإن كان حِجَاجًا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر»[4]. فـ"الجرجاني" ينطلق من نقطة محوريَّة، وهي نقل المعاني من الصورة الأصليَّة إلى الصورة المجازيَّة؛ لكي يزيد من فاعليَّتها في الأذهان، وتكون أكثر محاجَّة، وأشد وقعًا، وأعمق أثرًا.

وأشار "حازم القرطاجني" (ت٦٨٤هـ) إلى أنَّ «القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلِّي عن فعله واعتقاده»[5]. فـ"القرطاجني" يبيِّن أنَّ القصد

---

[1] معجم مقاييس اللُّغة، مادَّة: (وظف)، ١٢٢/٦.

[2] لسان العرب، مادَّة: (وظف)، ٢٤٠/١٥.

[3] القاموس المحيط، مادَّة: (وظف)، ص١١١٢.

[4] أسرار البلاغة في علم البيان، ص٩٢-٩٤.

[5] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م، ٢٠/٢.

المشترك بين التخييل والإقناع يكمن فيما يحدثانه في النفوس البشريَّة من تعديل سلوك أو تقويم اعتقاد أو إرساء مفهوم أو تبيان أمر.

وتحدَّث "القزويني" (ت٧٣٩هـ) عن التشبيه بأنَّه «ما يحصل للنفس من الأنس بإخراجها من خفي إلى جلي، كالانتقال ممَّا يحصل لها بالفكرة إلى ما يعلم بالفطرة، أو بإخراجها ممَّا لم تألفه إلى ما ألفته... أو ممَّا تعلمه إلى ما هي به أعلم، كانتقال من المعقول إلى المحسوس»[١]. ويركِّز هنا على الأثر الإيجابي الذي يقع في النفس من خلال استعمال طرائق متعدِّدة، مثل: الانتقال من الخفي إلى الجلي، ومن غير المألوف إلى المألوف...إلخ.

وبهذا يظهر أنَّ وظائف الصورة الحِجَاجيَّة لم تذهب بعيدًا في الاصطلاح عن الأصل اللُّغوي، فقد تضافرت المفاهيم والرؤى واتفقت بطريقة أو بأخرى على جانبَيْن: الأول: وهو أنَّ هذه الوظائف تعدُّ الرافد الرئيس لفعاليَّة المسار التواصلي. والثاني: يتمثَّل في الوصول إلى نتيجة محدَّدة، وهي (الإقناع والإلزام).

ولوظائف الصورة الحِجَاجيَّة مكانة كبيرة في الكلام، إذ تسهم في «تجسيد المعاني وجعلها مرئيَّة مشاهَدة، وجعل حضورها في ذهن السامع أقوى، ووقعها عليه أشد، وأثرها فيه أعمق»[٢] بما يخدم الغايات المقصودة.

وقيمة وظائف الصورة الحِجَاجيَّة تتجلَّى في عرض الأفكار والمعاني بطريقة استدلاليَّة مقنعة، فهي «ليست مجرَّد زخارف أو تنميقات تزيّن الخطاب، فمن شأنها أن تؤثّر في المواقف وتغيّرها»[٣]، وتحقّق الإذعان والتسليم.

وجاءت وظائف الصورة الحِجَاجيَّة في القرآن الكريم بوصفها «طريقة في الإقناع، تتوسَّل بنوع من الإبانة والتوضيح، وتعتمد على لون من الحِجَاج والجدل، وتحرص على إثارة الانفعالات في النفوس، على النحو الذي يؤثّر في المتلقِّي، ويستميله إلى القيم الدينيَّة السامية التي يعبّر عنها القرآن الكريم»[٤] بكل قوَّة ووضوح.

---

[١] الإيضاح في علوم البلاغة، ص٢١١-٢١٢.

[٢] الحِجَاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة، ص٤٩٢.

[٣] بلاغة الإقناع في المناظرة، عبداللطيف عادل، منشورات ضفاف، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م، ص٩٢.

[٤] الصورة الفنيَّة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص٣٣٢.

وللباحثين آراء في تقسيم وظائف الصورة الحِجَاجيَّة[1]، ولكن الدراسة ستقتصر على التأثير والإقناع؛ وذلك لأنَّهما يضطلعان بدور كبير في الكشف عن الجوانب الحِجَاجيَّة التي تشتمل عليها السور المكِّيَّة.

وتتشكَّل دراسة هذا الفصل في مبحثَيْن على النحو الآتي:

المبحث الأول: **التأثير**.

المبحث الثاني: **الإقناع**.

[1] ينظر: المصنَّف في الحِجَاج: الخطابة الجديدة، ص٤٧-٤٨. والإمبراطوريَّة الخطابيَّة: صناعة الخطابة والحِجَاج، شاييم بيرلمان، ترجمة وتقديم وتعليق: الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٢٢م، ص١٥-١٧. والوظيفة الحِجَاجيَّة البلاغيَّة عند علي الطنطاوي: دراسة وصفيَّة تحليليَّة، حمود إبراهيم العصيلي وياسمين علي الرديني، المجلَّة الإفريقيَّة للدراسات المتقدِّمة في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، م٢، ع٤، أكتوبر- ديسمبر ٢٠٢٣م، ص٤٢١.

المبحث الأول

التأثير

التأثير يقصد به استعمال الحجج التي تركّز على «الجوانب العاطفيَّة والتخييليَّة والعناصر الذاتيَّة والشخصيَّة للمُستمع، ويكون غاية مَن يهتم بنتيجة الحِجَاج، أي بنجاعته»[1]؛ لأنَّه يسهم في إحداث تغيير في الموقف العاطفي والنفسي.

وتظهر هذه الوظيفة التأثيريَّة في السور المكِّيَّة، ويكون تناولها في الصورة البيانيَّة على ثلاثة محاور رئيسة:

أولًا: التشبيه:

جاء التشبيه في قوله تعالى: ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ١٧١﴾ [الأعراف:١٧١]، ويبيّن النهاية الحاسمة لبني إسرائيل[2]، من بعد أن أفسدوا في الأرض، وعتوا عتوًا كبيرًا، وأعرضوا عن موسى -عليه السلام- ولم يمتثلوا لأوامر الله ونواهيه، فما كان رفع الجبل فوق رؤوسهم إلا تخويفًا لهم، وردعًا عمَّا يقولون ويفعلون.

ومحاجَّة التشبيه تنهض على أنَّه شبَّه نتق الجبل فوقهم بالظُّلَّة[3]، وهذا فيه «إخراج ما لم تجرِ به العادة إلى ما جرت به العادة»[4]؛ لأنَّ الجبل أحد خصائص الأرض، والظُّلَّة إحدى خصائص السماء الدنيا، وكلاهما محسوس ومعلوم، فلا يمكن أن يثبت الجبل في السماء كما تثبت الظُّلَّة، ولكن الله تعالى على كل شيء قدير، ولذا أراد أن يقدِّم لأولئك المحاججين المعاندين برهانًا حسيًّا مؤثِّرًا لم يكن في حسبانهم، إذ «يوحي بالإحاطة بهم، وشمولهم، والقرب منهم قرب الظُّلَّة من المستظل بها، وفي ذلك ما يوحي بخوف سقوطه عليهم»[5] وهلاكهم، ممَّا يبعث في نفوسهم الرهبة والرعب والفزع، ويقودهم إلى الإذعان والرضوخ لما جاء به موسى -عليه السلام- من الحق والهداية، وتكمن البؤرة المركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة في تأمُّل حيثيات انتقال (الجبل) من

---

[1] الإمبراطوريَّة الخطابيَّة: صناعة الخطابة والحِجَاج، ص١٦.

[2] ينظر: قصص الأنبياء، ص٣٨٩.

[3] النتق: الفصل والقلع. والظُّلَّة: السحابة. تفسير التحرير والتنوير، ١٦٥/٩.

[4] كتاب الصناعتين، ص٢٤١.

[5] من بلاغة القرآن، ص١٥٤.

الأرض إلى السماء، وما يصحبه من أحداث ودلائل تثبت قدرة الله وعظمته في تدبير الكون، وأنَّه لا إله إلا هو وحده لا شريك له في الألوهيَّة والعبوديَّة.

ويكتسب التشبيه مفعوله الحِجَاجي من توظيف غير المألوف (نتق الجبل فوقهم) في مكان المألوف (ارتفاع الظُّلَّة فوقهم)، ويترتَّب على هذا المشهد المهيب إثارة مشاعر الكافرين وتحريكها، وتغيير المفاهيم والتصوُّرات والمشاهد الراسخة في أذهانهم، بحيث ينتقلون من حالة الكفر والعصيان والتعنُّت إلى حالة الإيمان والطاعة والانصياع، ويكونون بذلك أكثر إقبالًا واستجابة لما يطرح عليهم من الهدى والنور.

وتتأسَّس وظيفة التشبيه التأثيريَّة في الآية الكريمة عن طريق مخاطبة عواطف المعرضين المنكرين بطريقة عمليَّة معبِّرة، تظهر عقوبة الذين يحاجون الله ورسوله بغير علم، ولم يرعووا أبدًا عن ضلالاتهم وإنكارهم، على الرغم من وضوح الحجَّة والدليل وضوح الشمس في رابعة النهار، فكانت مواجهتهم بالقوَّة والحزم السبيل الأنجع إلى ردعهم وإلجامهم، وجعلهم عظة وعبرة لكل مَن تسوِّل له نفسه بالشرك والطغيان.

وفي وصف الجنَّة وما فيها من نعيم برز التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ [الصافات:٤٨-٤٩]، ويكشف عن العاقبة المحمودة التي لا ينالها إلا عباد الله المخلصون، الذين آمنوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- رسولًا ونبيًّا، وعملوا الصالحات، وسارعوا إلى الطاعات، ولم تشغلهم الحياة الدنيويَّة الفانية عن الحياة الأخرويَّة الباقية.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه شبَّه قاصرات الطرف عين بالبيض المكنون[1]، والجامع بينهما السلامة والخلوص من جميع العوارض التي تنتقص رونقهما، وتشين بياضهما، وتكسف بهاهما[2]، وتهمل حفظهما وصيانتهما، وتقلِّل من قيمتهما وندرتهما، وهذا يؤكِّد عفَّة نساء الجنَّة وشدَّة جمالهن ورفعة مكانتهن، وكما أنهن قصرن طرفهن على أزواجهن، فإنَّ أزواجهن أيضًا قد قصروا

[1] البيض المكنون: هو بيض النعام، والنعام يكنُّ بيضه في حفر في الرمل، ويفرش لها من دقيق ريشه... فيكون البيض شديد لمعان اللون، وهو أبيض مشوب بياضه بصفرة، وذلك اللون أحسن ألوان النساء، وقديمًا شبَّهوا الحسان ببيض النعام. تفسير التحرير والتنوير، ٢٣/١١٤-١١٥.

[2] ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن، ص٢٤٣.

طرفهم عليهن[1]. ويستدعي الحديث عن الجنَّة ونعيمها مسألة جوهريَّة تتمحور حول (البعث والجزاء بعد الموت)، ممَّا يستوجب الرد على جاحديها الكفرة، وتفنيد دعواهم الباطلة بالحجج المعبِّرة والأدلَّة المؤثِّرة، وإثبات وقوعها في الآخرة بطريقة وجدانيَّة مشوِّقة، تؤدِّي إلى نتيجتَيْن رئيستَيْن: الأولى: تجعل النفوس المؤمنة تزداد اشتياقًا إلى دخول جنَّات النعيم، وتميل إليها ميلًا شديدًا، إذ تدفعها إلى الإكثار من الأعمال الصالحات؛ لكي تتحقَّق يوم القيامة برحمة الله وفضله تلك العاقبة المحمودة. والثانية: تردع النفوس الكافرة عن كفرها وعصيانها، وتهديها إلى سبيل الحق والرشاد، وتعيدها إلى جادَّة الصواب والاستقامة، بحيث تكون أكثر فعاليَّة وقربًا إلى مواطن الخير والطاعة.

وفاعليَّة التشبيه تأتي من تجسيد أمر أخروي (قاصرات الطرف) في صورة محسوسة مشاهَدة (البيض المكنون)، تسهم في تقديم مظهر من مظاهر نعيم جنَّة الخلد الذي لا ينفد أبدًا، والغرض منه تأكيد حدوث الإحياء بعد الموت والجزاء يوم الموقف العظيم، وترسيخ هذه القضيَّة العقديَّة المفصليَّة في القلوب البشريَّة، والتذكير بوجوب الإيمان بها، والابتعاد عن تكذيبها وجحودها، وهذا يقود إلى الإقبال على الله قولًا وعملًا، والامتثال لأوامره ونواهيه، والاستزادة من العبادات والطاعات، والاستعداد لذلك اليوم الموعود الذي يجعل الولدان شيبًا، ولا ينفع فيه مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم من الشرك والضلال، ومؤمن بالله في السرَّاء والضرَّاء.

ولوظيفة التشبيه التأثيريَّة دور فاعل في مخاطبة عواطف المتلقِّين بأسلوب حِجَاجي مؤثِّر، وبيان المصير الحتمي الذي ينتظر كل مؤمن مخلص، وما فيه من نعيم دائم لا يحول ولا يزول، ممَّا يدفع إلى تأسيس مفهوم إسلامي جديد، وهو (أنَّ الدنيا دار عمل وعبور، في حين أنَّ الآخرة دار جزاء وقرار)، والحياة الحقيقيَّة تبدأ بعد الانتقال من حياة الفناء والزوال إلى حياة البقاء والخلود، ولذا جاء الخطاب القرآني مشحونًا بطاقات نفسيَّة وشعوريَّة، تدعم اشتياق القلوب وحنينها إلى تلك الحياة الهانئة المطمئنة الخالدة، التي لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال توحيد الله تعالى وطاعته وعبادته، والبُعد عن كل ما يتنافى معه جملة وتفصيلًا.

---

[1] ينظر: تفسير القرآن الكريم: سورة الصافات، محمد بن صالح العثيمين، من إصدارات مؤسَّسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيريَّة، القصيم، ط٧، ١٤٣٧هـ، ص١١٦.

وفي بيان حال الضالين المكذّبين ورد التشبيه في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ۝٥٥﴾ [الواقعة:٥٥]، ويفصح عن كيفيَّة الشرب التي يكونون عليها يوم القيامة، حيث يشربون من شدَّة عطشهم ماء شديد الحرارة، فلا يقطع الظمأ، ولا يشفي الغليل، ولا يسد الثلمة، بل يزيد من معاناتهم وعذابهم، ويجعلهم يتحسَّرون ويندمون على تكذيبهم وإنكارهم، وعدم استجابتهم لرسول الله.

وتقوم المحاجَّة على أنَّه شبَّه شرب الكفَّار من الحميم بشرب الإبل الهيم[1]، وهذا يؤكِّد النهاية المؤسفة التي يصلون إليها، من بعد أن أوغلوا في الكفر والطغيان، وأعرضوا عن الآيات البيِّنات، وتصامَوا عن سماع ما فيها، وتعامَوا عن نورها الساطع، إذ كانوا «مترفين منعَّمين بالحرام، متكبِّرين عن التوحيد والطاعة والإخلاص، وكانوا يقيمون على الذنب الكبير ويلازمونه ولا يتوبون منه، وهو الشرك... وكانوا يقسمون ألا بعث وأنَّ الأصنام أنداد لله، فذلك حنثهم، وكانوا يقولون استبعادًا منهم لأمر البعث، وتكذيبًا له، لا حياة بعد الموت، ولا يمكن إعادة الحياة للأجساد التي بليت، والعظام التي نخرت»[2]. وتتعارض مزاعمهم الكفريَّة المتمثِّلة في (إنكار البعث والحساب) مع البراهين القطعيَّة من القرآن الكريم والسنة النبويَّة، التي تثبت وقوع البعث والجزاء في الآخرة، وما تشبيه شربهم من الحميم بشرب الهيم إلا بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، تبيِّن حجم العذاب الأليم الذي يتجرَّعه الكافرون في يوم المعاد، ممَّا يسهم في تعميق أثر هذه الصورة البشعة في نفوس المخاطَبين، وتحذيرهم من سوء المنقلب وبئس المآب.

ويستمدُّ التشبيه فاعليَّته من الاعتماد على الموروث الثقافي والبيئي، إذ وظَّف حالة الإبل عند هيامها في سياق الإخبار عن أهوال يوم القيامة، وما يلقاه الكفرة من العقاب الشديد، وهذا يؤدِّي إلى تقريب ذلك المشهد الأخروي من قلوب الناس، وتعزيز حضوره في خيالاتهم، حتى يبدو كأنَّه ماثل أمام أعينهم، يشعرون بحركاته وسكناته، ويتفاعلون معها تفاعلًا وجدانيًّا، يقودهم إلى ترك المعاصي والمحرَّمات، والإنابة إلى الله تعالى.

إنَّ وظيفة التشبيه التأثيريَّة تكمن في مخاطبة عواطف البشر بطريقة عمليَّة مؤثِّرة، تحقِّق صدق الوعيد الإلهي لأولئك المنكرين المعرضين، الذين أغرتهم الحياة الدنيا بزخارفها، وأنكروا اليوم الآخر كفرًا وعصيانًا، فأتاهم الحق المبين محمَّلًا بحجج تصويريَّة حيَّة، تثبِّت أركان المؤمنين

---

[1] الهيم: داء معطش يشرب معه الجمل حتى يموت أو يسقم. التسهيل لعلوم التنزيل، ١٤٧٩/٤.

[2] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٢٨٣/١٤-٢٨٤.

المخلصين، وتوقظ الغافلين من غفلتهم وجهلهم، وتزلزل كيان العصاة المتكبّرين، وتضعهم أمام عدل الله أعدل العادلين.

وظهر التشبيه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢﴾ [الأعراف:٩٢]، ويكشف عن العذاب الشديد الذي حلَّ بمكذّبي نبي الله شعيب -عليه السلام-[1]، فكأنَّهم لم يقيموا على الأرض إطلاقًا، على الرغم من أنَّهم عمروها أزمنة مديدة، وبسطوا سلطانهم فيها، ولكن الله لا يظلم أحدًا من العالمين شيئًا، فالجزاء من جنس العمل.

وحِجَاجيَّة التشبيه تنهض على أنَّه شبَّه حال الذين كذَّبوا شعيبًا، واستأصلهم الله من الوجود بحال الذين لم تسبق لهم حياة أصلًا، وهذا يدل على «قوَّة الإخبار عن هلاكهم، وحلول المكروه بهم، والتنبيه»[2] إلى ضرورة أخذ العظة والعبرة من نهايتهم المؤلمة، التي تبرهن على فرط إنكارهم وتكذيبهم، وتوغُّل الكفر في أفئدتهم، وشدَّة إعراضهم عن الدعوة الربَّانيَّة الخالدة، التي تسعى إلى ترسيخ توحيد الله والإيمان به، ونفي الشركاء عنه، وردع المشركين عن شركهم وضلالهم، وإعادتهم إلى جادَّة الهدى والرشاد، وإقامة الحجَّة على مَن استمر في غيّه وعناده، من بعد بيان الحق الحقيق بالاتباع، والهادي إلى سواء السبيل. وتحمل هذه الآية الكريمة شحنة عاطفيَّة مؤثِّرة، تساعد على تكثيف حضور جانبَيْن: أولهما: حسي، ويتجلَّى في اندثار الديار، وزوال الأجساد، ومحو الآثار الماديَّة التي كانت شاهدة على وجود أولئك القوم الضالين. وثانيهما: معنوي، ويظهر فيما يقع في النفس من ألم عميق، وحسرة موجعة، وخوف يحرِّك كوامنها، ويدفعها إلى الحذر من شناعة المكابرة على الباطل، وما يترتَّب عليها من عواقب وخيمة. وكلا الجانبَيْن يؤكِّد عدالة العقوبة الإلهيَّة في الدنيا والآخرة.

ومفعول التشبيه الحِجَاجي يعتمد على استحضار مشهد من مشاهد الحياة الواقعيَّة، وهو (بقاء الآثار بعد رحيل أصحابها)، وتوظيفه في سياق مغاير يوضِّح مصير الذين كذَّبوا شعيبًا، وهو (اختفاء آثارهم بعد وقوع العقاب عليهم)، ممَّا يجعل هذه الصورة حيَّة ماثلة أمام أعين الناس؛ لكي تبيِّن بجلاء قوَّة إهلاك المنكرين واستئصال شأفتهم، ومحو معالمهم وشواهد وجودهم، فلا أثر لهم يُرى، ولا خبر عنهم يُروى.

---

[1] ينظر: قصص الأنبياء، ص٢١١-٢٢٢.

[2] تفسير البحر المحيط، ٣٤٨/٤.

وأسهمت وظيفة التشبيه التأثيريَّة في مخاطبة المشاعر الإنسانيَّة من خلال تقديم النموذج العملي (إهلاك المكذِّبين) بمثابة الدليل القاطع، الذي يثبت حدوث الدمار والاجتثاث لمن يكفر بالله، ويعصي أوامره، ويكذِّب رسله، ويجحد نعمه، وهذا يدعم رسوخ الأطروحة الحِجَاجيَّة المتمثِّلة في أنَّ الشرك والعصيان هما سر الفناء والزوال، في حين أنَّ التوحيد والإيمان هما سر الوجود والخلود الأبديَيْن.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥﴾ [يونس:٤٥] برز التشبيه مبيِّنًا قصر الحياة الدنيويَّة وما بعدها وسرعة انقضائها، وكأنَّ البشر فيها لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون فيما بينهم، والخاسر الحقيقي يوم الحشر مَن كذَّب بلقاء الله، ولم يهتدِ إلى سبيل الحق والرشاد، فكان مصيره الخسران المبين.

والحجَّة تقوم على أنَّه شبَّه حال الناس عند بعثهم من القبور بحال الذين لم يلبثوا إلا ساعة من النهار، والجامع بين الحالَيْن «التحقُّق والحصول، بحيث لم يمنعهم طول الزمن من الحشر، وأنَّهم حشروا بصفاتهم التي عاشوا عليها في الدنيا، فكأنَّهم لم يفنوا. والمقصود من التشبيه... إبطال دعوى المشركين إحالتهم البعث؛ بشبهة أنَّ طول اللبث وتغيُّر الأجساد ينافي إحياءها»[1]، ولذا أراد الله أن يثبت حدوث البعث بعد الموت بطريقة عمليَّة معبِّرة، تثير في النفوس الدهشة والانبهار من سرعة الزمان، الذي يقضيه الإنسان في الدنيا أو القبر، فالعامل الزمني هنا يساعد على دحض تلك الشبهة الباطلة بما لا يدع مجالًا للشك والأخذ والرد، ويظهر قدرة الله وعظمته في الخلق والإحياء والإعادة، فلا يعجزه طول المدَّة، ولا تحلُّل العظام، ولا انطفاء العقول والأفئدة، ولا اندثار الذكر والأثر، فهو الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، يصرِّف الأمور كيف يشاء، وهذا يؤكِّد أنَّ مسألة البعث والحساب أمر ممكن ويسير على الله تعالى، وبرهان ساطع على حكمته وعدله يوم القيامة، وتحقيق وعده ووعيده، وشتَّان بين المحسن والمسيء.

ويستقي التشبيه مفعوله الحِجَاجي من الواقع المعيش، فالنهار مظهر حسي من المظاهر الكونيَّة المعهودة في كل يوم، ويدل اختياره دون الليل على أنَّ «ساعاته أعرف حالًا من

[1] تفسير التحرير والتنوير، ١٨٢/١١.

ساعات الليل»[1]، وأكثر وضوحًا وبيانًا؛ لأنَّ المقياس الزمني عند الكافرين عليه مدار التكذيب والإنكار، فتحديد ساعة من النهار في سياق الإخبار عن المدَّة الزمنيَّة التي يعيشها الإنسان في دنياه أو قبره، يسهم في تجلية الحقيقة، وتقريبها من قلوب المنكرين، وتعزيز حضورها في خيالهم، ممَّا يفضي إلى العدول عن الفكرة الخاطئة القائمة على (طول المكوث، واستحالة البعث) إلى الفكرة الصائبة المنبثقة من (قصر المكوث، وإمكانيَّة البعث).

وتتأسَّس وظيفة التشبيه التأثيريَّة في الآية الكريمة عن طريق مخاطبة العواطف البشريَّة بأسلوب حِجَاجي مؤثِّر، يكشف عن مشهد من مشاهد أهوال يوم القيامة، وما يصيب الناس من الهول والفزع، حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب مؤمن متمسِّك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهذا يدفع إلى الارعواء عن الشرك والنكران، والإقبال على الله تعالى، وتصحيح مسار الحياة الدنيويَّة؛ لأنَّ السلامة والنجاة في الآخرة مقرونتان بالتوحيد والإيمان والعمل الصالح.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣﴾ [القصص:٦٣] جاء التشبيه مفصحًا عن النهاية المؤسفة التي ينتهي إليها المشرك في يوم الحساب، من بعد أن بلغته الرسالة الإلهيَّة، وأصبح على المحجَّة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا خاسر وهالك، ومأواه نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، ويبقى خالدًا مخلَّدًا فيها إلى الأبد.

ومحاجَّة التشبيه ترتكز على أنَّه شبَّه حال إغواء الذين حق عليهم القول لأتباعهم بحال غوايتهم هم أنفسهم على أيدي مَن سبقهم من الغاوين، والجامع بين الحالَيْن أنَّهم تلقوا الضلالة والغواية من غيرهم، واستجابوا لها عن طواعيَّة واختيار، لا عن قسر ولا إكراه. وقد أتت هذه الآية الكريمة جوابًا مسوقًا على لسان أئمة الضلال ودعاة الباطل عن السؤال الوارد في الآية السابقة لها في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾ [القصص:٦٢]، إذ ابتدأوا «بتوجيه النداء إلى الله بعنوان أنَّه ربُّهم، نداء أريد منه الاستعطاف بأنَّه الذي خلقهم اعترافًا منهم بالعبوديَّة، وتمهيدًا للتنصُّل من أن يكونوا هم المخترعين لدين الشرك، فإنَّهم إنَّما تلقَّوه عن غيرهم من سلفهم... فأرادوا بيان الباعث لهم على إغواء إخوانهم، وهو أنَّهم

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٣/٢٤٥.

بثُّوا في عامَّة أتباعهم الغواية المستقرَّة في نفوسهم، وظنُّوا أنَّ ذلك الاعتراف... يدفع التَّبِعَة عنهم، ويتوهَّمون أنَّ السير على قدم الغاوين يبرِّر الغواية... والمقصود أنَّهم يتبرأون من أن يكونوا هم المزعوم أنَّهم شركاء، وإنَّما قصارى أمرهم أنَّهم مضلُّون، وكان هذا المقصد إلجاء من الله إياهم؛ ليعلنوا تنصُّلهم من ادعاء أنَّهم شركاء على رؤوس الملأ، أو حملهم على ذلك ما يشاهدون من فظاعة عذاب كل مَن ادعى المشركون له الإلهيَّة باطلًا»[1]. وتدل مسارعتهم إلى الجواب، مع أنَّ السؤال كان موجَّهًا إلى العبدة، على أحد الأمرَيْن: «إمَّا لتفطُّنهم أنَّ السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال، وجزمهم بأنَّ العَبَدة سيقولون: هؤلاء أضلُّونا، وإمَّا لأنَّ العَبَدة قد قالوه اعتذارًا، وهؤلاء إنَّما قالوا ما قالوا ردًّا لقولهم إلا أنَّه لم يُحكَ قول العَبَدة إيجازًا لظهوره»[2]. وإن كان هناك داعٍ يدعوهم إلى الزيغ والطغيان، فقد كان في «مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلَّة العقل، وما بعث إليهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر، وناهيك بذلك صارفًا عن الكفر وداعيًا إلى الإيمان»[3]. وفي هذا تفنيد لدعوى الكفَّار الواهية المبنية على شفاعة آلهتهم المزعومة لعابديها في يوم الحساب، ودحض لمزاعمهم الزائفة بالحجج الدامغة والبراهين المسكتة، وتأكيد أنَّ الله تعالى لا يحاسب أحدًا من العالمين؛ حتى يجعل له السبيل بيِّنًا جليًّا، ويزيل عنه الشبهات، ويميِّز له الحق من الباطل، فلا يقيم الحجَّة، ولا ينزل العذاب إلا بعد الإبلاغ والبيان والإنذار والتمكين من الاختيار؛ لكيلا يكون لأحد عذر أمام العدل الإلهي المطلق، الذي لا يقوم على الجهل أو الظن أو التوهُّم، بل على العلم والدراية والبصيرة، ممَّا يستوجب أخذ العظة والعبرة من مصير أولئك الضالين، والاستزادة من العبادات والطاعات، والابتعاد عن كل ما يناقض توحيد الله والإيمان به.

وفاعليَّة التشبيه تأتي من الاعتماد على الفضاءَيْن الاجتماعي والديني، إذ وظَّف العلاقة السلطويَّة بين المتبوعين والأتباع في سياق استحضار موقف من مواقف الحساب يوم القيامة؛ لكي يكشف عن الأساس الفاسد الذي بنوا عليه عقيدتهم، والمتمثِّل في ادعاء الألوهيَّة لغير الله، ونسب العبوديَّة إلى مَن لا يستحقها، وهذا يؤدِّي إلى تقريب المشهد من أفئدة الناس،

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٢٠/١٥٧-١٥٩.

[2] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٥/١٣٢.

[3] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٢٠/٨٠٧.

وتعميق أثره في نفوسهم؛ حتى يتفاعلوا معه، ويستجيبوا لما يحمله من الدعوة إلى توحيد الله، والإقبال عليه بالعبادة والطاعة، ونفي الشركاء عنه، والبُعد عن الغواية وأهلها.

ولوظيفة التشبيه التأثيريَّة دور بارز في مخاطبة عواطف المتلقِّين بطريقة عمليَّة مؤثِّرة، تسهم في تقديم (حساب الغاوين في الآخرة) بمثابة البرهان الساطع، الذي يؤكِّد حتميَّة العذاب الشديد لكل مَن يشرك بالله، ويخالف أوامره، ويكذِّب رسله، وينكر فضائله، فلا ينفع يومئذ الأعذار الضعيفة والتبريرات الباطلة؛ لأنَّه قد حقَّ القول على مَن أهلك نفسه بالكفر، وأعرض عن الاستعداد لذلك الموقف العظيم.

ثانيًا: المجاز:

- **المجاز العقلي:**

برز المجاز العقلي في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ [الغاشية:٢-٣]، ويبيِّن مصير فئة من الناس في يوم القيامة، حيث تظهر عليهم علامات الذل والانكسار من شدَّة الهول والعذاب، وقد كانوا في الدنيا عاملين ناصبين[1] على غير هدى وبصيرة، يجهدون أنفسهم في أعمال لم تكن على أسس إيمانيَّة صحيحة، فلم ينالوا ما يرجون من ورائها، بل كانت وبالًا عليهم.

وحِجَاجيَّة المجاز تنهض على أنَّه أسند الخشوع والعمل والنصب إلى الوجوه؛ لأنَّ حالتها «تنبئ عن حالة أصحابها، إذ الوجه عنوان عمَّا يجده صاحبه من نعيم أو شقوة»[2]، ولسان ناطق عمَّا يعتمل في النفس من مشاعر وانفعالات، فالوجوه في الحقيقة لا تخشع ولا تعمل ولا تنصب، وإنَّما يقوم بذلك أصحابها. وقد وقعت هاتان الآيتان الكريمتان في بداية الجواب التفصيلي عن السؤال الوارد في الآية السابقة لهما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية:١]؛ لكي توضِّحا الممارسات التعبديَّة الزائفة التي انتهجها أولئك القوم، وظنُّوا أنَّهم بها في يوم الحساب من الرابحين المنعَّمين، وهم في واقع الأمر من الخاسرين المعذَّبين؛ لأنَّهم «لما اعتقدوا في الله ما لا يليق به، فكأنَّهم أطاعوا ذاتًا موصوفة بالصفات التي تخيَّلوها، فهم في

---

[1] النصب: الإعياء من العناء. لسان العرب، مادَّة: (نصب)، ٢٦٦/١٤.

[2] تفسير التحرير والتنوير، ٢٩٥/٣٠.

الحقيقة ما عبدوا الله، وإنَّما عبدوا ذلك المتخيّل الذي لا وجود له، فلا جرم»[1] أنَّ تلك العبادة لا تنفعهم أصلًا، وما بُني على باطل فهو باطل، ولا يقبل عند الله أي عمل إلا إذا كان مؤسَّسًا على توحيد خالص وإيمان صادق، فليست كثرة الاجتهاد والتعبُّد كافية في ضوء المعيار الإلهي العادل، الذي يعدُّ الفيصل في قبول الأعمال أو رفضها.

ويستمدُّ المجاز فاعليَّته من توظيف المألوف (خشوع الوجوه في عبادة الله) في موضع غير المألوف (خشوع الوجوه لغير الله)، ويدل توجيه الخطاب إلى الوجه دون غيره من الأعضاء على زيادة الرهبة والخوف من الوصول إلى تلك النتيجة المؤسفة، التي تكون فيها أعمال الضالين، على الرغم من اجتهادهم ونصبهم، هباء منثورًا؛ لأنَّها لم ترتكز على أرضيَّة عقديَّة رصينة، بل كانت مبنيَّة على جرف هارٍ لا يثبت في مواجهة الحق المبين.

إنَّ وظيفة المجاز التأثيريَّة تكمن في مخاطبة عواطف البشر بأسلوب حِجَاجي مؤثِّر، يقدِّم دليلًا عمليًّا قاطعًا على بطلان العمل الشركي، ويحث المخاطَبين على إعادة النظر في نهايتهم الحتميَّة، وما يترتَّب عليها من حسرة وندامة في يوم لا ينفع فيه إلا العمل الخالص لوجه الله، وهذا ما يزيد المؤمنين يقينًا وإيمانًا، وينبِّه الغافلين إلى غفلتهم وجهلهم، ويردع العاصين عن زيغهم وعصيانهم، فلا حجَّة لأحد يومئذ أمام أعدل العادلين.

وفي وصف حال أصحاب المشأمة في الآخرة ورد المجاز في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾ [البلد:٢٠]، ويكشف عن النهاية المؤلمة التي ينتهون إليها، من بعد أن كفروا بالله، وعصوا أوامره، وكذَّبوا رسله، وضلُّوا عن الصراط المستقيم، وأعرضوا عن الهدى والرشاد، وأوغلوا في الشرك والضلالة، ولم يرعووا عن ذلك، فكان إيصاد نار جهنم عليهم الجزاء الأوفى لهم على ما يقولون ويفعلون.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه أسند المؤصدة[2] إلى النَّار، وهي في الحقيقة لا تؤصد، وإنَّما الذي يؤصد عليهم هو أبوابها، وهذا فيه بيان لشدَّة الإحاطة واللزوم، حيث لا يجدون منها مهربًا، ولا «يفتح لهم باب، ولا يخرج منها غم، ولا يدخل فيها روح أبد الآباد»[3]؛ لأنَّهم منعوا أنفسهم من اتباع الحق الجلي، وصدَّوا أسماعهم عن نداء الهداية والرشد، وغلَّفوا قلوبهم بغشاوة الاستكبار

---

[1] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١٣٨/٣١.

[2] مؤصدة: مطبقة مغلقة. المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٤٨٦/٥.

[3] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١٧٠/٣١.

والإعراض، وتخلَّوا عن الاعتصام بالحبل الممدود بينهم وبين الله، فقطعوه بأيديهم طوعًا واختيارًا، مخالفين ما أمروا به، وناكصين على أعقابهم، فلم يتركوا سبيلًا إلى النجاة من العذاب الشديد؛ لأنَّ الكفر «بآيات الله لازمه البقاء على الشرك المنافي للتوحيد، والعصيان المنافي للطاعة»[1]، وكما أغلقوا على أنفسهم إغلاقًا إراديًّا في الدنيا، أغلقت عليهم أبواب النَّار إغلاقًا قهريًّا في يوم القيامة، فالجزاء من جنس العمل، ولا ينفعهم يومئذ الأسف والندم، ولذا جاء الخطاب القرآني محمَّلًا بشحنة تنبيهيَّة وتحذيريَّة، توقظ النفوس من غفلتها وجهلها، وتدفعها إلى الإقبال على الله، والامتثال لأوامره، واجتناب نواهيه، والابتعاد عن كل ما يتنافى معها جملة وتفصيلًا، فلا عذر لأحد بعد البلاغ المبين.

ومفعول المجاز الحِجَاجي يعتمد على الفضاء الثقافي، إذ وظَّف ما كان راسخًا في الوجدان العربي من مشاهدات وتصوُّرات، والمتمثِّلة في ثلاثة عناصر: أولها: النَّار بما تحمله من دلالة على العذاب الأليم. وثانيها: الإيصاد بما فيه من دلالة على السجن والحصار. وثالثها: الهلاك المترتِّب على النَّار والإيصاد. وكل هذه العناصر مجتمعة تشكِّل حججًا تصويريَّة حيَّة، وتجسِّد الحقيقة الأخرويَّة في مشهد حسي معبِّر، ممَّا يجعل فكرة الإيمان المنجية أكثر قبولًا وفعاليَّة من فكرة الكفر المهلكة.

وأسهمت وظيفة المجاز التأثيريَّة في مخاطبة العواطف البشريَّة بطريقة عمليَّة مؤثِّرة، وبيان المصير الحتمي الذي ينتظر كل كافر جاحد، وما فيه من نكال دائم لا ينتهي، وهذا يؤكِّد مسألة مهمَّة، وهي أنَّ الدنيا ليست سوى جسر عبور وميدان امتحان، بخلاف الآخرة، فإنَّها دار حساب وموطن قرار، وتظهر فيها عدالة الله المطلقة بين الخلائق، فلا يظلم أحدًا شيئًا لو كان مثقال ذرَّة.

- **المجاز المرسل:**

أتى المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر:٤٨]، ويبيِّن الحالة المؤسفة التي يؤول إليها المجرمون في يوم المعاد، حيث يساقون إلى النَّار سوقًا مهينًا، ويسحبون فيها على وجوههم بلا هوادة ولا رحمة، ويقال لهم: ذوقوا مسَّ

[1] أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، ٥/٥٧٥.

سقر[1]، وهم في غاية الذل والعجز، لا يملكون دفعًا عن أنفسهم، ولا يجدون ناصرًا أو شفيعًا، وكان ذلك الجزاء وفاقًا لما قدَّمته أيديهم من تكذيب وإنكار.

وتقوم المحاجَّة على أنَّ (مسَّ سقر) تحمل العلاقة السببيَّة، فقد أطلق السبب (المس) وأراد به المسبَّب (الألم)؛ لأنَّ المس وحده يكفي أن يذكر؛ لكي يدل على فظاعة عذاب الكفَّار في يوم القيامة، وشدَّة وقعه عليهم، وعمق أثره فيهم، وقد كان «جرمهم تكذيب الرسل، والنُّذر بالإشراك، وإنكار الحشر، وإنكار قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة، وعلى غيره من الحوادث»[2]، فهو بذلك ينقل المخاطَبين من حالة التهوين واللامبالاة إلى حالة الترهيب والتخويف، ويدفعهم إلى أخذ الحيطة والحذر من الوصول إلى المصير نفسه، الذي انتهى إليه أولئك الكفرة؛ بسبب اعتقاداتهم الباطلة وتصوُّراتهم الخاطئة، وهذا ما يدعو إلى إعمال الفكر في عواقب التكذيب والإعراض، واستحضار حقيقة الجزاء الأخروي الذي لم يكن اعتباطيًّا، بل كان نتيجة حتميَّة لما ارتكبوه من أفعال منكرة تناقض التشريع الربَّاني، وتعكس مدى تماديهم في الجحود والطغيان، على الرغم من وضوح الحجج المفحمة والدلائل المسكتة، التي لم تترك لهم ذريعة يعلِّلون بها مكابرتهم ونكرانهم، فاستحقوا ما حلَّ بهم يومئذ من عذاب أليم وفق مبدأ العدل الإلهي، الذي لا يهمل من أعمال العباد صغيرة ولا كبيرة.

ويستقي المجاز مفعوله الحِجَاجي من توظيف غير المعهود (المس بالوجه) في مكان المعهود (المس باليد)، ويدل اختيار الوجه دون غيره من الأعضاء على تكثيف حضور المشهد المرعب في الخيال البشري؛ لأنَّ «الوجه أكرم ما في الإنسان، لذلك يحاول الحفاظ عليه، ويجنِّبه الأذى، فهو عنوانه وأعز ما فيه»[3]، وموضع الشرف والهويَّة والتكريم، ويعدُّ المساس به إهانة وإذلالًا، فضلًا عن ألمه الشديد الذي لا يحتمل، وهذا يعمِّق في النفوس إدراك عاقبة الكفر، ويفتح أمامها أبواب المراجعة والإنابة.

وتتأسَّس وظيفة المجاز التأثيريَّة في الآية الكريمة عن طريق مخاطبة المشاعر الإنسانيَّة بأسلوب حِجَاجي مؤثِّر، يعرض النموذج العملي (سحب المجرمين في النَّار على وجوههم، وإذاقتهم مس سقر) بمثابة الدليل القاطع على صدق تحقُّق الوعيد في الآخرة، ممَّا يسهم في

---

[1] سقر: اسم من أسماء جهنم. لسان العرب، مادَّة: (سقر)، ٢٠٧/٧.

[2] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ٦٣/٢٩.

[3] تفسير الشعراوي، ١٤٧٩١/٢٤.

تحويل هذه النهاية المؤلمة من مجرَّد تحذير نظري إلى تجربة حسيَّة حيَّة، تقود إلى خلق مناخ شعوري خصب، يزيد المؤمنين إيمانًا وثباتًا، ويردع المنكرين عن غيّهم وضلالهم، فلا حجَّة لأحد بعد هذا الزجر والإنذار.

وفي صدد حِجَاج أحد الكافرين المنكرين[1] برز المجاز في قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾ [العلق:١٧]، ويكشف عن مدى التكبُّر والعُجب الذي تمكَّن من قلبه، حتى توهَّم أنَّ القوَّة البشريَّة قادرة على رد بأس الله، ولم يدرك أنَّه تعالى لا يعجزه شيء في الكون، بيده مقاليد السماوات والأرض، يصرِّف الأمور كيف يشاء، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وقدرته العظيمة تفوق كل قدرات المخلوقين.

والحجَّة تقوم على أنَّ (فليدع ناديه)[2] تتضمَّن العلاقة المحليَّة، فقد أطلق المحل (النادي) وأراد به الحال فيه، وهم (أهله)؛ لأنَّ النادي جماد لا يُنادى، وإنَّما الذين ينادون أهل النادي، وقصد هنا من باب المبالغة أن يدعو كل ما في النادي من إنسان وجماد؛ لكي يؤكِّد شموليَّة الدعاء، وقوَّة التحدِّي، وشدَّة التعجيز، وبلوغ غاية التهكُّم والاستخفاف بذلك المتجبِّر المغرور وبكل مَن يستنجد به، فضلًا عن وعيده بأنَّه إن استمر في طغيانه ونهيه عن الصلاة، فسيرسل الله عليه ملائكة غلاظًا شدادًا، لا قِبل له ولا لقومه بهم[3]. وتحمل هذه الآية الكريمة طاقات نفسيَّة وشعوريَّة، تساعد على تجلية زاويتَيْن: الأولى: حسيَّة، وتتجلَّى في عوامل الواقع المعيش من العدد والعتاد، ومهما كثر أعوان الطاغية وعظم جهازهم، فإنَّهم أمام قدرة الله الفائقة لا شيء يذكر. والثانية: معنويَّة، وتظهر فيما يعتري نفوسهم من الضعف والخذلان، من بعد عجزهم عن مواجهة عظمة الله وإرادته؛ لأنَّهم كانوا يسيرون في طريق مخالف للحق لا يفضي بهم إلا إلى العذاب والهلاك. وكلتا الزاويتَيْن تثبت أنَّ مظاهر القوَّة الزائفة لا تصمد إزاء مشيئة الخالق، وشتَّان بين كافر متكبِّر يعوِّل على ناديه وجبروته، وبين مؤمن مخلص يفوِّض أمره إلى الله، فيكفيه كيد الأعداء، وينصره عليهم.

---

[1] وقد ورد في الحديث عن ابن عبَّاس، قال: «كان النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- يصلِّي، فجاء أبو جهل، فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- فزَبَره، فقال أبو جهل: إنَّك لتعلم ما بها نادٍ أكثر منِّي، فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ [العلق]، فقال ابن عبَّاس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله». الجامع الكبير، أبواب تفسير القرآن، رقم الحديث: ٣٣٤٩، ٣٧١/٥.

[2] النادي: مجتمع القوم وأهل المجلس. لسان العرب، مادَّة: (ندي)، ٢٢٨/١٤.

[3] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ٤٥٣/٣٠. والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٤٥٨/١٥.

وفاعليَّة المجاز تأتي من الاعتماد على الفضاءَيْن الاجتماعي والثقافي، إذ وظَّف النادي بوصفه مركزًا للسلطة القبليَّة، ورمزًا للتفاخر والوجاهة والهيمنة، وموضعًا تتقاطع فيه الرؤى والقوى، ولذا أراد أن يعيد تشكيل المنظومة القيميَّة في ضوء التعاليم الربَّانيَّة، ويؤسِّس لمفهوم إسلامي جديد، وهو أنَّ مَن يتوكَّل على الله فهو حسبه، وهذا يبدِّد الوهم القائم على الارتهان للقوَّة البشرية، ويقوِّي حضور التوحيد والتوكُّل في النفوس.

ولوظيفة المجاز التأثيريَّة دور فاعل في مخاطبة عواطف المتلقِّين بطريقة عمليَّة مؤثِّرة، تسهم في هدم رمزيَّة النادي السائدة، والتحذير من الاعتماد عليه؛ لأنَّه مبني على معتقد باطل وأساس فاسد، ممَّا يقتضي الردع عن تلك الممارسات الخاطئة، والدعوة إلى التمسُّك بالعقيدة الصحيحة، التي تنقل القلوب من التعلُّق بغير الله إلى التعلُّق بالله وحده، الذي لا يقهر سلطانه، ولا تضاهى قدرته.

- **الاستعارة:**

ظهرت الاستعارة في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾ [الصافات:١٧٦-١٧٧]، وتبيِّن شدَّة تكذيب الكفَّار وإنكارهم، إذ كانوا يستعجلون العذاب الأليم سخرية واستهزاء، غير مكترثين بالوعيد الحق، ممَّا جعلهم يتمادون في الكفر والطغيان، ويغترُّون بطول الأمل، ويظنُّون أنَّهم من الناجين، وهم في حقيقة أمرهم بعيدون كل البُعد عن سبيل النجاة.

ومحاجَّة الاستعارة ترتكز على أنَّه استعار (النزول) للعذاب الذي يحلُّ بغتة بساحة[1] المنذَرين، فيسيء صباحهم؛ لأنَّه كان من عادة العرب أن يغيروا في الصباح، حتى غلب إطلاق الصباح على الغارة نفسها، وإن وقعت في غيره، فصار يُعبَّر به عن الفزع والمباغتة، وليس بالضرورة أن يُراد به الزمن وحده، وهذا تحوُّل دلالي رمزي يمثِّل بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، ويزيد من تأكيد أنَّ العقاب واقع بلا ريب؛ لأنَّهم أعرضوا عن دعوة الناصح الأمين، وتجاهلوا إنذاره، ولم يدبِّروا شأنهم تدبيرًا يقيهم الهلاك[2]، فضلًا عن استخفافهم بالنُّذر واستعجالهم العذاب من جهتَيْن: الأولى: ما يرتبط بالقول، ويظهر فيما يتشدقون به من عبارات التحدِّي والتهكُّم

[1] الساحة: الناحية، وهي أيضًا فضاء يكون بين دور الحي. لسان العرب، مادَّة: (سوح)، ٢٩٤/٧.

[2] ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٩١٧/٢٣. والتسهيل لعلوم التنزيل، ١٢٥٣/٣.

غير مبالين بالتحذير والتهديد. والثانية: ما يرتبط بالفعل، ويتمثَّل في إصرارهم على الكفر والعصيان، وتماديهم في الغي والضلال. وكلتا الجهتَيْن تثبت أنَّ رفضهم التام قولًا وفعلًا، يستلزم تعجيل وقوع النكال بهم[1]، وينتقل الوعيد بذلك من مرحلة التنظير إلى مرحلة التنفيذ.

وتستمدُّ الاستعارة فاعليَّتها من استحضار صورة من صور الحياة الواقعيَّة، وهي (شنُّ الغارة الصباحيَّة على الأعداء)، وتوظيفها في سياق يصف المصير الحتمي الذي ينتهي إليه أولئك المكذِّبون، حيث ينزل العذاب بساحتهم دون سابق إنذار، فلا ينجو منهم أحد، وهذا يجعل «المراد من الأمر المشاهَد بأبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنَّها كائنة واقعة لا محالة، وأنَّ كينونتها قريبة كأنَّها قدَّام»[2] أعينهم يشعرون بها، ويتفاعلون معها.

إنَّ وظيفة الاستعارة التأثيريَّة تكمن في مخاطبة عواطف البشر بأسلوب حِجَاجي مؤثِّر، يبرز حجم السفه والجهل الذي سيطر على أفئدة المنكرين، إذ تعامَوا عن الآيات البيِّنات، وتصامَوا عن سماع هداها، وأوغلوا في الإنكار والإعراض، على الرغم من جلاء الحجَّة والدليل، حتى ران على قلوبهم ما اكتسبوه من استكبار وسخرية، فأغلق عنهم سبل الهداية والنور، وتركهم في الظلمات يتخبَّطون، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وصاروا عظة وعبرة لكل مَن تسوِّل له نفسه بمثل صنيعهم الشنيع.

وفي خضم الحديث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة جاءت الاستعارة في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية:٢٩]، وتكشف عن إحاطة الله التامَّة بأعمال العباد صغيرها وكبيرها، بحيث تجمع في كتاب محفوظ، ويكون شاهدًا عليهم يومئذ، ولا ينطق إلا بالحق المبين، الذي لا يترك مجالًا لهم لإنكار ما اقترفوه أو تبرير ما فعلوه.

والحجيَّة تنهض على أنَّه استعار (النطق) للكتاب؛ لأنَّه «ناطق من جهة البيان، كما يكون الناطق من جهة اللسان، وشهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه»[3] في إظهار الحقائق وتثبيتها؛ لأنَّ منطوق الأفعال أبلغ من منطوق الأقوال في يوم الحساب، الذي تعرض فيه صحائف الأعمال على أصحابها، ويجزون بما كسبت أيديهم، فلا مفرَّ لهم من قضاء

---

[1] ينظر: تفسير القرآن الكريم: سورة الصافات، ص٣٦٩.

[2] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١٥٠/٢٦.

[3] تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص٣٠٥.

الله العادل. ويستدعي الحديث عن الآخرة قضيَّة جوهريَّة تتمحور حول (البعث والجزاء، وتدوين الأعمال)، ممَّا يستوجب الرد على جاحديها الكفرة، وتفنيد دعواهم الواهية ومزاعمهم الزائفة بالحجج الدامغة والبراهين المسكتة، وإثبات وقوعها بطريقة وجدانيَّة مشوِّقة، تدفع إلى تأمُّل النهاية الحتميَّة التي يؤول إليها البشريَّة قاطبة، ويكونون يومئذ إمَّا في الجنَّة منعَّمين (وهؤلاء المؤمنون)، وإمَّا في النَّار معذَّبين (وهؤلاء الكافرون)، وما نطق الكتاب إلا بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، تسهم في إثارة الخوف والرهبة من ذلك الموقف العظيم، حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن آمن بالله، وعمل صالحًا خالصًا لوجهه الكريم.

ومفعول الاستعارة الحِجَاجي يعتمد على استدعاء أمر دنيوي، وهو (إقامة الحقوق بكتابة الوثائق)، وتوظيفه في سياق بيان أمر أخروي، وهو (إقامة الحجَّة بتوثيق أعمال العباد في كتاب مشهود)، وهذا يقود إلى تقريب المشهد من قلوب الناس، وتعزيز حضوره في خيالاتهم، حتى يجعل ماهيَّة الكتاب معلومة لديهم، فيتفاعلون معها، ويستجيبون لما تتضمَّنه من الدعوة إلى توحيد الله والإيمان به، والابتعاد عن الكفر والعصيان.

وأسهمت وظيفة الاستعارة التأثيريَّة في مخاطبة المشاعر الإنسانيَّة بأسلوب حِجَاجي مؤثِّر، يقدِّم العواقب الأخرويَّة بمثابة البرهان الساطع، الذي يؤكِّد عدل الله تعالى في الحساب، ويلقي كامل المسؤوليَّة على كاهل البشر، ويشعرهم بأنَّ مصيرهم مرهون بأعمالهم الدنيويَّة، فالجزاء من جنس العمل، ممَّا يزيد من وعيهم بأهميَّة اتخاذ قراراتهم بدقَّة، ومراجعة مواقفهم وسلوكهم في ضوء ما تقتضيه الشريعة الإلهيَّة.

ثالثًا: الكناية والتعريض:

- **الكناية:**

برزت الكناية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣﴾ [القيامة:٣٣]، وتبيِّن حجم الجحود والتكبُّر الذي تمكَّن من قلب ذلك الإنسان، من بعد أن أعرض عن الحق المبين، وكفر بالله، وخالف أوامره، وكذَّب رسله، وضلَّ عن الصراط المستقيم، فضلًا عن ذهابه إلى أهله يتمطَّى[1] في مشيته من فرط الغرور والتباهي، غير مكترث بالوعد والوعيد، وكأنَّه لم يسمع شيئًا من الآيات البيِّنات.

[1] يتمطَّى: يتبختر في مشيته إعجابًا بنفسه. أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، ٤٧٩/٥.

وتقوم المحاجَّة على أنَّه كنَّى بـ(يتمطَّى) عن التبختر والخيلاء، إذ تجمع بين حالتَيْن متداخلتَيْن: الأولى: ظاهريَّة، وتتجلَّى في الحركات الجسديَّة من رفع الرأس وبطء المشية وإطالة الخطوة، كما لو أنَّه يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولًا. والثانية: معنويَّة، وتظهر فيما يعتمل في النفس المتعالية من كبرياء وتفاخر. وكلتا الحالتَيْن تثبت أنَّ السلوك الظاهري ما هو إلا وسيلة للتعبير عن الدوافع النفسيَّة، وهذا ما يجسِّد مظهر الإنسان المغرور الذي عليه مدار الخطاب القرآني في قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾ [القيامة:٣١-٣٣]، حيث يصف الله حاله «فيما يتعلَّق بأصول الدين وبفروعه، وفيما يتعلَّق بدنياه، أمَّا ما يتعلَّق بأصول الدين، فهو أنَّه ما صدَّق بالدين، ولكنَّه كذَّب به، وأمَّا ما يتعلَّق بفروع الدين، فهو أنَّه ما صلَّى، ولكنَّه تولَّى وأعرض، وأمَّا ما يتعلَّق بدنياه، فهو أنَّه ذهب إلى أهله يتمطَّى، ويتبختر، ويختال في مشيته، واعلم أنَّ الآية دالَّة على أنَّ الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة كما يستحقهما بترك الإيمان»[1]، وهذه نتيجة حتميَّة لكل مَن تمادى في الزيغ والضلال، واتخذ من التكذيب والإعراض ميدانًا ينشط فيه بلا هوادة، ممَّا يجعل صورة التمطِّي أكثر عمقًا ورسوخًا في وجدان المخاطَبين.

وتكتسب الكناية مفعولها الحِجَاجي من الفضاء الاجتماعي، إذ وظَّفت ما ترسَّخ في المخيَّلة من تصوُّرات نمطيَّة عن الشخصيَّة المتكبِّرة، وما تحمله من سلوكيَّات ومفاهيم مغلوطة تتعارض جملة وتفصيلًا مع مقاصد التعاليم الربَّانيَّة، التي تنهض على القيم السامية، مثل: التواضع، والتسامح، والاعتدال، وتعلي من شأن الإنسان، وتنبذ الغرور والتكبُّر، وهذا يؤدِّي إلى تقريب المشهد من أفئدة الناس، وتعميق أثره في نفوسهم؛ لكي يلفت الانتباه إلى الخلل الأخلاقي المتأصِّل في المتغطرس، ويدعوه إلى مراجعة ذاته وتقويمها وفق تلك المبادئ الأصيلة.

وتتأسَّس وظيفة الكناية التأثيريَّة في الآية الكريمة عن طريق مخاطبة العواطف البشريَّة بطريقة عمليَّة معبِّرة، تسهم في الكشف عن الباعث الرئيس على الفجور والطغيان، وهو الكبر الذي ينطوي على خصلة مذمومة لا تكون في أحد إلا أبعدته عن الحق والنور، وأهلكته في ظلمات الاستعلاء والعناد، وألقته في الدرك الأسفل من النَّار، ولذا وجب التحذير من هذه النهاية المؤسفة، التي تنتظر كل متكبِّر امتنع عن الامتثال لأوامر الله ونواهيه جحودًا واستكبارًا؛ ليدرك أنَّ عاقبته الهلاك لا محالة، ما لم يبادر بالتوبة قبل فوات الأوان.

---

[1] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ٣٠/٢٠٥.

وفي قولـه تعـالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق:٩] وردت الكنايـة مبيِّنـة بعـض أهـوال الآخرة، حيث يظهر يومئذ ما أخفاه الإنسان في دنياه من نيَّات وأعمال، فيعرض على رؤوس الأشهاد، ويحاسبه الله على سرِّه وعلانيَّته، فمَن أعطي كتابه بيمينه، فقد فاز فوزًا عظيمًا، ونال رضوان الله، ودخل الجنَّة، ومَن أعطي كتابه بشماله أو من وراء ظهره، فقد خسر خسرانًا مبينًا، وذاق وبال ما قدَّم من شر وسوء.

وحِجَاجيَّة الكناية تنهض على أنَّه كنَّى بـ(يوم تبلى السرائر)[1] عن الجزاء في يوم القيامة؛ لأنَّ إظهار مكنونات الصدور يبرز شموليَّة الحساب الإلهي العادل، الذي يحيط بكل صغيرة وكبيرة، فلا تغيب عنه أدق التفاصيل. وما دام الإنسان يحاسب على ما أضمر كما يحاسب على ما أظهر، فإنَّه يجب عليه إيلاء الاهتمام بالأصل (عمل القلب) أكثر من الاهتمام بالفرع (عمل الجوارح)؛ لأنَّ عمل الجوارح إنَّما هو استجابة لعمل القلب، الذي عليه مدار القبول أو الرفض عند الله[2]. ويستلزم الحديث عن الآخرة وأهوالها الرد على منكري البعث بعد الموت، الذين جحدوا إمكان حصوله، وتوهَّموا استحالته دون أن يستندوا إلى دليل عقلي أو نقلي يثبت ما ذهبوا إليه، ممَّا يفضي إلى تفنيد دعواهم الباطلة وحججهم الواهية التي ترتكز على تعطيل أصل من أصول الدين، وهو الإيمان باليوم الآخر، وهذا ما يجعل كشف السرائر بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، تثير في نفوس المتلقِّين الفزع والوجل من هول ذلك الموقف العظيم، وتؤكِّد وقوع البعث والنشور في يوم المعاد.

وفاعليَّـة الكنايـة تأتي مـن استحضـار المعهـود في التجـارب الإنسـانيَّة الواقعيَّـة (إخفـاء السرائر)، وتوظيفه في محل غير المعهود (إبراز السرائر)، ويدل توجيه الخطاب إلى السرائر دون غيرها على شدَّة الموقف الأخروي، الذي يكون فيه المستور معلنًا أمام الملأ، فلا تخفى عن الله خافية، ممَّا يشعر الإنسان بثقل المسؤوليَّة تجاه ظاهره وباطنه، ويزيد من أثر الخوف والرهبة؛ لأنَّه لا مجال للتكلُّف أو التظاهر، فكل شيء مرصود في موازين العدالة المطلقة.

ولوظيفـة الكنايـة التأثيريَّة دور بارز في مخاطبـة عواطـف البشـر بأسـلوب حِجَـاجي فعَّـال، يقدِّم (الإفصاح عن الأسرار يوم الحساب) بمثابة البرهان القاطع، الذي يعكس العدل الربَّاني

---

[1] تبلى السرائر: تختبر وتكشف بواطنها. المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٤٦٦/٥.

[2] ينظر: تفسير القرآن الكريم: جزء عم، محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص١٤٩-١٥٠.

وتمام حكمته، ويدفع إلى إصلاح النيَّة والقصد، وإخلاص الأقوال والأفعال لله وحده؛ لأنَّه لا يقبل إلا ما كان خالصًا له، ويتجلَّى هنا عظم الأمر، إذ يرتبط الجزاء ارتباطًا وثيقًا بصفاء القلب ونقاء السريرة.

● **التعريض:**

جاء التعريض في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام:٧٧]، ويبيّن موقف إبراهيم -عليه السلام- من قومه الضالين، الذين يعبدون الأجرام السماويَّة، ويتخذونها آلهة من دون الله ظنًّا منهم أنَّها تقرّبهم إليه زلفى، وهي لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن ترتقي إلى مرتبة تؤهّلها لاستحقاق الألوهيَّة والعبادة.

والحجَّة تقوم على أنَّ إبراهيم عرَّض في (لئن لم يهدني ربِّي لأكوننَّ من القوم الضالين) بالذين كفروا بالله، وخالفوا أوامره ونواهيه، واتخذوا من القمر ونحوه من المخلوقات إلهًا يعبدونه من غير حق، فذكر الضلال على سبيل الحديث عن نفسه -عليه السلام- وهو في الحقيقة أراد أن يشير إلى أنَّهم واقعون فيه، و«أن ينبّههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرّفهم أنَّ النظر الصحيح مؤدٍّ إلى أنَّ شيئًا منها لا يصح أن يكون إلهًا؛ لقيام دليل الحدوث فيها، وأنَّ وراءها محدثًا أحدثها، وصانعًا صنعها، ومدبّرًا دبَّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها»[1]، فمَن باب أولى أن تصرف العبادة لله وحده الذي خلقها وقدَّرها، وأحكم نظامها، وسخَّرها بأمره ومشيئته لخدمة العباد، وجعلها آيات بيّنات تدل على وحدانيَّته وربوبيَّته، وتبطل إلهيَّة الكواكب والأجرام وعبادتها، وتدعو إلى التأمُّل والتفكُّر في ملكوت السماوات والأرض، بما فيه من براهين التوحيد، ودلائل العظمة، وأوجه الإتقان والإبداع، ممَّا يسهم في تعميق أثر المعنى التعريضي في نفوس المخاطَبين، وتحذيرهم من التمادي في الكفر والعصيان، وحثِّهم على سلوك الصراط المستقيم.

ويستمدُّ التعريض فاعليَّته من الاعتماد على مشاهَدات الحياة اليوميَّة، إذ استدل إبراهيم في حواره مع قومه بأفول القمر «على انتفاء إلهيَّته، ولم ينفها عنه بمجرَّد رؤيته بازغًا مع أنَّ أفوله محقَّق بحسب المعتاد؛ لأنَّه أراد أن يقيم الاستدلال على أساس المشاهَدة على ما هو المعروف في

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٣٣٤/٧.

العقول؛ لأنَّ المشاهَدة أقوى»[1] من الاستدلال النظري المجرَّد، وأبلغ في إذعان الخصوم من دون جدال ومنازعة.

إنَّ وظيفة التعريض التأثيريَّة تكمن في مخاطبة عواطف الكفَّار المعاندين بطريقة عمليَّة مؤثِّرة، تكشف عن تناقضهم العقدي بأسلوب حواري تصاعدي، يجعلهم شركاء فاعلين في العمليَّة الحِجَاجيَّة التي تنطلق من (بزوغ القمر/ هذا ربِّي)، وتنتهي بـ(أفول القمر/ طلب الهداية من الله بعد بيان الضلال)، وهذا يقود إلى ترسيخ قضيَّة مفصليَّة، وهي أنَّ المعبود الذي يأفل لا يستحق أن يعبد، في حين أنَّ الله الحي القيوم منزَّه عن الأفول والزوال، ومنفرد بالملك والخلق والعبادة.

وفي وصف مشهد من مشاهد الحساب يوم القيامة ظهر التعريض في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير:٨-٩]، ويكشف عن بشاعة الظلم الواقع على الموءودة[2]، حيث تُسأل عن الذنب الذي قُتلت بسببه، وهي في الحقيقة بريئة من كل ذنب، ولكن الله أراد أن يدين قاتلها بجرمه الفظيع ويحاسبه؛ لكي يقيم حكمه العادل على الظالم، وينصر المظلوم عليه.

ومحاجَّة التعريض ترتكز على أنَّه عرَّض في (سؤال الموءودة) بمَن قتلها؛ لأنَّ توجيه السؤال إلى الموءودة «دون الوائد، مع أنَّ الذنب له دونها، لتسليتها وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها، وإسقاطه عن درجة الخطاب والمبالغة في تبكيته، فإنَّ المجني عليه إذا سئل بمحضر الجاني، ونُسبت إليه الجناية دون الجاني، كان ذلك بعثًا للجاني على التفكُّر في حال نفسه وحال المجني عليه، فيرى براءة ساحته، وأنَّه هو المستحق للعتاب والعقاب، وهذا نوع من الاستدراج»[3] والإلجاء؛ لكي يبيِّن شناعة جريمة الوأد، وأنَّها مناقضة لأبسط المبادئ الإنسانيَّة، ومجافية للفطرة السليمة، ومثال حي على أشد أنواع الظلم وانعدام الرحمة والاستهانة بالأرواح البريئة، فضلًا عن أنَّ هذه الفعلة النكراء صادرة من الأب، الذي جعله الله سببًا في إيجاد

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٣٢٢/٧.

[2] الموءودة: المدفونة حيَّة. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمَّى تفسير البيضاوي، عبدالله بن عمر البيضاوي، حققَّه وعلَّق عليه وخرَّج أحاديثه وضبط نصَّه: محمد صبحي حلَّاق ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد، دمشق، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ٥٠٣/٣٠.

[3] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٢٥٧/١٥.

الأبناء، وكان الأولى به أن يصبح موئل الحنان والعطف ومصدر الأمان والرعاية، فإذا به يتجرَّد من كل صفات الأبوَّة، ويتحوَّل إلى آلة قتل لا ترحم ولا تشفق؛ بحجَّة الخشية من الإملاق أو لحوق العار به من أجلهن[1]، ولذا جاءت هذه الصورة التعريضيَّة مشحونة بحمولات تنبيهيَّة وتحذيريَّة، تساعد على زعزعة المسلَّمات الجاهليَّة واجتثاثها، ولا سيما تلك العادة المذمومة (وأد البنات)، التي أبطلها الإسلام جملة وتفصيلًا، وأبرز حقيقة قبحها وبشاعتها، ونقض مزاعم أولئك القوم الوائدين بالبرهان المسكت، الذي أثبت أنَّ الله قد تكفَّل بالأرزاق[2]، وشرَّع من الأحكام ما يحفظ به الأعراض، فلا عذر لهم في ارتكاب هذا الفعل الإجرامي المشين.

وفاعليَّة التعريض تعتمد على استدعاء سلوك جاهلي شائن، وهو (وأد البنات)، وتوظيفه في سياق يجسِّد موقفًا من مواقف الحساب في يوم القيامة، وما سؤال الموءودة إلا بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، تسهم في مواجهة القاتل بفعلته، وتجريده من كل أعذاره، وإدانته على رؤوس الأشهاد، إذ ينتقل السؤال من كونه أداة استفهام وتوضيح إلى أداة إدانة وتجريم، وبذلك لا تحتاج العدالة الإلهيَّة المطلقة إلى شهود عيان أو مرافعات، فهي الحكم الفصل والحق المبين.

وأسهمت وظيفة التعريض التأثيريَّة في مخاطبة العواطف البشريَّة بطريقة عمليَّة معبِّرة، تقدِّم (الموءودة) بمثابة الدليل القاطع على قصور التفكير الجاهلي، الذي يفتقر إلى المنطق السليم، ويقوم على مفاهيم مشوَّهة، تربط الأنثى ظلمًا بالعار والفقر، ممَّا يقود إلى رفض هذا التفكير المنحرف، والدعوة إلى مراجعة شاملة للمنظومة القيميَّة وفق التعاليم الربَّانيَّة، التي تنهض على أسس العدل والرحمة، وتعلي من كرامة الأنثى بوصفها شقيقة الرجل في الخلق والتكليف، وشريكة له في عمارة الأرض وبناء الحضارة، وهذا يؤسِّس لنهضة إنسانية تستند إلى التكافؤ والتضامن، وتنبذ الجهل والإقصاء.

---

[1] ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١١٨٢/٣٠. والتفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ٦٤/٣١. وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٣٨٤/٦.

[2] وقد ورد في قوله تعالى: ﴿۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـٔٗاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنٗاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام:١٥١]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٖۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرٗا ٣١﴾ [الإسراء:٣١].

المبحث الثاني

الإقناع

الإقناع يقصد به «الحصول على تصديق المستمع باستعمال حجج تخاطب العقل، وهو غاية مَن يهتم بالطابع العقلاني للحِجَاج»[1]؛ لأنَّه يسهم في إحداث تغييرات جوهريَّة في المواقف الفكريَّة والإدراكيَّة.

وتبرز هذه الوظيفة الإقناعيَّة في السور المكِّيَّة، ويكون تناولها في الصورة البيانيَّة على ثلاثة محاور رئيسة:

أولًا: التشبيه:

ظهر التشبيه في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل:١٧]، ويؤكِّد أنَّ الله -جلَّ جلاله- لا شريك له في وحدانيَّته وملكوته وربوبيَّته، فهو خالق كل شيء من العدم، بيده مقاليد السماوات والأرض، يصرِّف الأمور كيف يشاء، ولا يعجزه شيء في الكون، وقدرته تفوق كل القدرات، وسلطانه يقهر كل سلطان، وليس له كفء من الخلق ولا نظير ولا مثيل.

ومحاجَّة التشبيه تنهض على أنَّه شبَّه مَن يخلق بمَن لا يخلق، وهذا فيه «تبكيت للكفرة، وإبطال لإشراكهم وعبادتهم للأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهرًا... والاقتصار على ذكر الخلق من بينها؛ لكونه أعظمها وأظهرها واستتباعه إيَّاها»[2]، إذ يعدُّ الفارق الجوهري بين الإله الحق وسائر المعبودات الباطلة. وقد سبقت هذه الآية الكريمة مقدِّمات حِجَاجيَّة مهمَّة، تضمَّنت مجموعة من الأدلَّة العقليَّة والشواهد الواقعيَّة[3]، التي تمهِّد إلى ترسيخ عدَّة مسائل: الأولى: بطلان عبادة غير الله؛ لأنَّ مَن يخلق هو وحده المستحق للألوهيَّة والعبوديَّة، أمَّا مَن لا يخلق شيئًا، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فلا يستحق أن يعبد. والثانية: تقرير العقيدة الصحيحة التي تقوم على توحيد الله وعبادته، ونفي الشركاء عنه. والثالثة: إعطاء الكفَّار مساحة واسعة للتفكُّر في دلائل الوحدانيَّة،

---

[1] الإمبراطوريَّة الخطابيَّة: صناعة الخطابة والحِجَاج، ص١٦.

[2] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٤/٥٠.

[3] ينظر: سورة النحل: ١-١٨.

وإعادة النظر في سوء أعمالهم، والإنابة إلى الله، والتزام جادَّة الصواب والاستقامة. والرابعة: قيام الخطاب القرآني على مبدأ الترغيب والترهيب لهداية البشريَّة قاطبة، فمَن أحسن عمله أحسن الله إليه، ومَن أساء عمله أساء إلى نفسه، وسخط الله عليه. وكل هذه المسائل مجتمعة تسهم في تقويض أركان عقيدة المشركين الباطلة، وتفنيد مزاعمهم الزائفة، وإثبات أنَّ الله متفرِّد بالخلق، ولا يشاركه فيه أحد من الخلائق البتَّة مهما بلغت منزلته وعلت مكانته.

ويكتسب التشبيه مفعوله الحِجَاجي من الاعتماد على المدركات العقليَّة، إذ يفضي عقد المشابهة بين الخالق وغير الخالق إلى نتيجة حاسمة، تتمثَّل في هدم أسس الشرك، وبناء دعائم التوحيد، ممَّا يدفع إلى تأسيس معيار جديد مقنع، يهدف إلى تقويم المسار العقدي الخاطئ بما يتوافق مع التعاليم الربَّانيَّة، ويقود العقول البشريَّة إلى الإقرار بعظمة الله تعالى، والامتثال لأوامره ونواهيه.

ولوظيفة التشبيه الإقناعيَّة دور فاعل في مخاطبة أذهان المتلقِّين بأسلوب حِجَاجي محكم، يكشف عن حجم الكفر والضلال الذي تمكَّن من الكافرين، حين اتخذوا إلهًا من دون الله يعبدونه، على الرغم من وضوح البراهين المفحمة والبيِّنات المسكتة، التي تدل على قدرة الله ووحدانيَّته، واستحقاقه وحده للعبادة والطاعة، وهذا ما يزيد من الإقناع بضرورة اجتثاث الأفكار الشركيَّة المنحرفة التي تنبع من التكذيب والإنكار، وتبديلها بالأفكار الإيمانيَّة المستقيمة التي تنبثق من الشريعة الإلهيَّة.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ [ص:٢٨] جاء التشبيه مبيِّنًا عدل الله بين الخلائق في الآخرة، حيث لا يستوي عنده في الجزاء والعاقبة الذين آمنوا به واتقوه وعملوا الصالحات، والذين كفروا به وفجروا وأفسدوا في الأرض، فالجزاء من جنس العمل، ولا يظلم الله أحدًا من العالمين شيئًا، وإن كان مثقال حبة من خردل.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه شبَّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمفسدين في الأرض، وشبَّه أيضًا المتقين بالفجَّار، وهذا فيه «إنكار التسوية بين الفريقَيْن، ونفيها على أبلغ وجه وآكده»[1]؛ لأنَّ حكمة الله توجب البعث والحساب في يوم القيامة، بخلاف ما يزعمه الكفرة الضالون من

[1] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٨١/١٢.

انتفاء حصول ذلك، إذ يقيسون حالهم في الدنيا على أنَّها أفضل من حال المؤمنين المهتدين، ولكنَّهم لم ينتبهوا أبدًا إلى أنَّه «يوجد كثير من الفريقَيْن متساوين في حالة الحياة الدنيا في النعمة أو في التوسُّط أو في البؤس والخصاصة، فحالة المساواة كافية لتكون مناط الاستدلال على إبطال ظن الذين كفروا بقطع النظر عن حالة أخرى أولى بالدلالة، وهي المقابلة بين فريق المفسدين أولي النعمة وفريق الصالحين أولي البؤس، وعن حالة دون ذلك، وهي فريق المفسدين أصحاب البؤس والخصاصة وفريق الصالحين أولي النعمة؛ لأنَّها لا تسترعي خاطر الناظر»[1]. وهذه الأطروحة الحِجَاجية تستعرض الحقائق بطريقة منطقيَّة مقنعة، تسهم في نقض دعوى المنكرين الباطلة، ودحض افتراءاتهم الواهية، وردعهم عن تلك المعتقدات الضالة، التي تقودهم إلى العيش في الأوهام القاتلة والأحلام البائسة، وتشغلهم عن الاستعداد للحياة الأخرويَّة الخالدة.

وتنتزع فاعليَّة التشبيه من واقع الحياة المعيشة، إذ وظَّف أحوالًا إنسانيَّة ملموسة ذات دلالة في السياق، وتتمثَّل في جانبَيْن متضادَّيْن: الأول: ما يرتبط بالمؤمنين من الإيمان بالله، وعمل الصالحات، والتقوى. والثاني: ما يرتبط بالكافرين من الإفساد في الأرض، والفجور. وكلاهما يكشف عن البون الشاسع بينهما، ويكمن جوهر الفرق في أنَّ الصالحين يمتثلون لأوامر الله، ويجتنبون نواهيه، ويتقربون إليه بالعبادات والطاعات، ويستعدون ليوم عظيم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم ومؤمن، في حين أنَّ المفسدين يعرضون عن طاعة الله، ويصرُّون على معصيته ومخالفة أمره، ويتمسَّكون بالدنيا الفانية، ويتركون الآخرة الباقية، وشتَّان عند الله في الجزاء والمآب بين المؤمنين والكافرين.

وتتأسَّس وظيفة التشبيه الإقناعيَّة في الآية الكريمة عن طريق مخاطبة العقول بأسلوب حِجَاجي مقنع، يبرز العدالة الإلهيَّة المطلقة بين الناس في اليوم الموعود، ويؤكِّد مسألة جوهريَّة، وهي أنَّ المؤمن في دار البقاء ينتظره النعيم الدائم برحمة الله وفضله، مهما كان حاله في دار الفناء، أمَّا الكافر في دار البقاء فينتظره الجحيم الأبدي، حتى لو كان منعَّمًا في دار الفناء، وهذا المقياس الربَّاني يثبت بجلاء أنَّ نعيم الدنيا زائل لا محالة، وأنَّ نعيم الجنَّة خالد، ويقوِّي حضور فكرة الإيمان بوقوع البعث بعد الموت، ويجعلها أكثر قبولًا وفعاليَّة من فكرة التكذيب به وإنكاره.

---

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٢٣/٢٤٩-٢٥٠.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ:٦-٧] ظهر التشبيه مجلِّيًا قدرة الله وعظمته في الكون، إذ خلق الأرض بإتقان، وجعلها مهادًا؛ لتكون صالحة للعيش والإقامة، وأرسى فيها الجبال أوتادًا؛ لتحفظ توازنها واستقرارها، وهذه المظاهر الكونيَّة البديعة تدل على أنَّ الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وله الكمال المطلق.

وتقوم المحاجَّة على أنَّه شبَّه الأرض بالمهاد، وشبَّه أيضًا الجبال بالأوتاد، وأراد الله أن يذكر «هذه المخلوقات على جهة التوقيف؛ ليقيم الحجَّة على الكفَّار فيما أنكروه من البعث، كأنَّه يقول: إنَّ الإله الذي قدر على خلقة هذه المخلوقات العظام قادر على إحياء الناس بعد موتهم، ويحتمل أنَّه ذكرها حجَّة على التوحيد؛ لأنَّ الذي خلق هذه المخلوقات هو الإله وحده لا شريك له»[1]، ويتضمَّن هذا الاستدلال امتنانًا من الله تعالى على الناس، إذ يسَّر لهم سبل العيش والاستقرار، والغرض منه لا يقتصر على التذكير بالنعم والإشعار بحكمة الله[2] فحسب، وإنَّما يتجاوز ذلك إلى أن يكون دافعًا إلى شكر المنعم بالعبادة الخالصة والطاعة الصادقة على ما أفاء عليهم من الخيرات والبركات، وردع المنكرين الضالين عن كفرهم وعصيانهم، ودعوتهم إلى إعادة التفكير في اعتقاداتهم الباطلة، ومراجعة تصوُّراتهم الخاطئة عن وحدانيَّة الخالق وإحياء الموتى؛ لأنَّها تتنافى مع العقيدة الصحيحة التي تنهض على ركنَيْن رئيسَيْن، وهما: توحيد الله، والإيمان باليوم الآخر.

ويستمدُّ التشبيه فاعليَّته من الاعتماد على الحياة الواقعيَّة، فالأرض والجبال مظهران حسيَّان من المظاهر الكونيَّة المعهودة في كل يوم، والمهاد والأوتاد معروفان في بيئة المخاطَبين، وتوظيفهما في هذا السياق يضفي على المشهد مزيدًا من الوضوح والبيان، ويسهم في تقريبه من الأذهان، ممَّا يقود إلى إذعان الخصوم المعاندين، وإلزامهم بتصديق ما جاء به الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- من البلاغ المبين.

إنَّ وظيفة التشبيه الإقناعيَّة تكمن في مخاطبة عقول البشر بطريقة عمليَّة مقنعة، وتقديم النموذج العظيم (خلق الأرض والجبال) بمثابة الدليل القاطع، الذي يؤكِّد عظمة الله تعالى، وكمال قدرته وقوَّته، ونفاذ إرادته ومشيئته، وتمام علمه وحكمته، فالحجَّة تدور حول

---

[1] التسهيل لعلوم التنزيل، ١٦٥٤/٤.

[2] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ١٤/٣٠.

(الاستدلال بشواهد من الصنع الإلهي البديع)، والنتيجة تتجلَّى في (إبراز قدرة الله في بدء الخلق وإعادته).

وبرز التشبيه في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص:٦١]، ويظهر الفرق الجوهري بين الذي آمن بالله، وعمل الصالحات، وصدَّق وعده، فكان مآله جنَّات النعيم، وبين الذي انشغل بملذَّات الدنيا الزائلة، وغفل عن الآخرة، ولم يستعد ليوم الحساب، فكان مصيره نار جهنم خالدًا فيها.

والحجَّة تقوم على أنَّه أنكر تشبيه حال المؤمن الموعود بالجنَّة في دار البقاء بحال الكافر المنعَّم في دار الفناء المتوعَّد بالنَّار في دار البقاء، وهذا فيه نفي المساواة بين الحالَيْن؛ لأنَّ النعيم الدنيوي عاجل وزائل، أمَّا النعيم الأخروي فهو آجل ودائم[1]. وقد أتت هذه الآية الكريمة نتيجة قاطعة لمقدِّمة حِجَاجيَّة وردت في الآية السابقة لها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص:٦٠]، وتفنيدًا لدعوى الكفرة الزائفة التي تتمحور حول ترك الدين من أجل الدنيا، وذلك وفق مقتضيات العقل ومقاصد الشرع، إذ إنَّ الترجيح النهائي بين الدنيا والآخرة يكون من خلال زاويتَيْن: الأولى: أنَّ منافع الدنيا منقطعة ومشوبة بالمضار، في حين أنَّ منافع الآخرة دائمة وخالصة من الشوائب. والثانية: أنَّ منافع الدنيا متبوعة بالعقاب الدائم[2] إذا لم تقترن بطاعة الله، وأمَّا منافع الآخرة فهي موصولة بالنعيم الأبدي. وكلا الزاويتَيْن تثبت أنَّ كفَّة الآخرة في الميزان الإلهي أرجح من كفَّة الدنيا، ممَّا يؤدِّي إلى تأسيس مقياس تفاضلي جديد عادل، يرتكز على ثلاثة أركان: الغاية، والجزاء، والبقاء، بخلاف ما كان يظنُّه الكفَّار من أنَّه مبني على ما يظفرون به من دنياهم الحقيرة والفانية.

ومفعول التشبيه الحِجَاجي يعتمد على الإدراك العقلي، إذ قدَّم برهانًا ساطعًا عن طريق عقد المشابهة بين حالَيْن متقابلَيْن: أحدهما مَن وعده الله وعدًا حسنًا فهو لاقيه، والآخر مَن متَّعه الله متاع الحياة الدنيا، ثم هو يوم القيامة من المحضرين إلى العذاب، وهذا يكشف بجلاء

---

[1] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ٢٠/١٥٥.

[2] ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ٢٥/٦-٧.

عن الحقيقة الدنيويَّة التي أغفلها المشركون جهلًا؛ لأنَّهم توغَّلوا في أوحال الشرك والضلالة، وعطَّلوا أذهانهم عن التفكُّر والتأمُّل والتدبُّر، ولم يتمسَّكوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

وأسهمت وظيفة التشبيه الإقناعيَّة في مخاطبة العقول الإنسانيَّة بطريقة منطقيَّة مقنعة، تظهر فضل دار الآخرة الباقية على دار الدنيا الزائلة، وتؤكِّد تكامليَّة العلاقة بين الدارَيْن، بحيث تكون الدنيا جسر عبور وميدان عمل وابتلاء، أمَّا الآخرة فهي محل جزاء وخلود، ممَّا يدفع المتلقِّين إلى إعادة النظر في صنيعهم، واستبدال أفكارهم الخاطئة، وتصحيح مفاهيمهم المختلَّة بما يحقِّق مقاصد الشريعة الربَّانيَّة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩] ورد التشبيه مفصحًا عن قدرة الله وعظمته في الكون، إذ إنَّ من آياته أنَّه ينزل الماء على الأرض الميّتة، فيحييها بعد طول الجدب، وتتحوَّل من اليباس إلى الخضرة، ومن الجماد إلى الحياة، وكذلك يحيي الموتى، إنَّه على كل شيء قدير.

وحِجَاجيَّة التشبيه تنهض على أنَّه شبَّه حالة إحياء الموتى وإخراجهم من القبور بحالة إحياء الأرض الهامدة بعد إنزال المطر عليها، وهذا فيه «إدماج لإثبات البعث في أثناء الاستدلال على تفرُّده تعالى بالخلق والتدبير»[1]، ودحض لمزاعم منكري المعاد الذين لم يتفكَّروا في دلائل النشأة الأولى، ولم يتأمَّلوا الشواهد المحسوسة التي تثبت النشأة الأخرى، فغاب عنهم الربط العقلي بين الإبداع الأول وإمكانيَّة الإعادة، ولذا جاءت الصورة التشبيهيَّة دليلًا «على إمكان إحياء الموتى بطريقة قياس الشبه، وهو المسمَّى في المنطق قياس التمثيل، وهو يفيد تقريب المقيس بالمقيس عليه. وليس الاستدلال بالشبه والتمثيل بحجَّة قطعيَّة، بل هو إقناعي، ولكنَّه هنا يصير حجَّة؛ لأنَّ المقيس عليه وإن كان أضعف من المقيس، إذ المشبَّه لا يبلغ قوَّة المشبَّه به، فالمشبَّه به حيث كان لا يقدر على فعله إلا الخالق الذي اتصف بالقدرة التامَّة لذاته، فقد تساوى فيه قويُّه وضعيفه، وهم كانوا يحيلون إحياء الأموات استنادًا للاستبعاد العادي، فلمَّا نُظِّر إحياء الأموات بإحياء الأرض»[2] تشكَّل الدليل الإقناعي المناسب لنقض

[1] تفسير التحرير والتنوير، ٣٠٣/٢٤.

[2] المرجع السابق، ٣٠٣/٢٤.

شبهتهم الباطلة، ودعوتهم إلى الارعواء عن كفرهم وضلالاتهم، والاهتداء إلى طريق الاستقامة والرشاد.

ويستقي التشبيه مفعوله الحِجَاجي من استحضار مشهد من مشاهد الحياة الواقعيَّة (إحياء الأرض اليابسة بعد نزول المطر عليها)، في سياق الإخبار عن أمر غيبي (إحياء الله الموتى يوم القيامة)؛ لكي «يستدل بما شوهد من هذه على ما لم يشاهد بعد من تلك، وهي آية يراها عيانًا كل مفطور على عقل»[1]، ولا ينكرها إلا مَن زاغ قلبه عن سبيل الهدى والصواب، وضلَّ في متاهات الجهل والعصيان.

وتتأسَّس وظيفة التشبيه الإقناعيَّة في الآية الكريمة عن طريق مخاطبة الأذهان بأسلوب حِجَاجي فعَّال، يبيِّن المسار العقدي المنحرف الذي يتبَّناه منكرو البعث والحساب، ممَّا يقود إلى تفنيد حججهم الباطلة بالبراهين المسكتة والأدلَّة المفحمة، والتنبيه إلى خطورة ما هم عليه من انحراف وضلال، والتحذير من مغبَّة الإعراض عن الحق المبين، والدعوة إلى تصحيح المعتقدات وفق التعاليم الإلهيَّة.

وفي بيان عدالة الله بين الناس جاء التشبيه في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١﴾ [الجاثية:٢١]، ويكشف عن المصير الحتمي الذي ينتهون إليه، حيث لا يستوي عند الله في الدنيا والآخرة أهل الذنوب والمعاصي، وأهل الإيمان والعمل الصالح، وشتَّان بين هؤلاء وأولئك.

ومحاجَّة التشبيه ترتكز على أنَّه شبَّه حال الذين اجترحوا[2] السيئات بحال الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأراد أن ينكر المساواة بين المشركين والمؤمنين «لا في الحياة ولا بعد الممات، فكما خالف الله بين حالَيْهم في الحياة الدنيا، فجعل فريقًا كفرة مسيئين، وفريقًا مؤمنين محسنين، فكذلك سيخالف بين حالَيْهم في الممات، فيموت المشركون على اليأس من رحمة الله، إذ لا يوقنون بالبعث، ويلاقون بعد الممات هول ما توعَّدهم الله به، ويموت المؤمنون رجاء رحمة الله والبشرى بما وُعدوا به، ويلاقون بعد الممات ثواب الله ورضوانه»[3]. وهذا فيه إبطال لدعوى

---

[1] المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ١٨/٥.

[2] الاجتراح: الاكتساب. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١٠٠٦/٢٥.

[3] تفسير التحرير والتنوير، ٣٥٣/٢٥.

الكفَّار الواهية المبنية على قياس دنيوي فاسد، يظهر في أنَّ تشابه أحوال الناس في مظاهر العيش أو التمكين في الدنيا، يفضي إلى تساويهم في المنزلة والجزاء عند الله، وهو قياس باطل ومردود؛ لأنَّه «يخالف حكمة أحكم الحاكمين وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب وأخبرت به الرسل»[1]، وبخاصَّة عقيدة البعث والحساب، التي تعدُّ الفيصل الحاسم في التمييز بين مصائر الناس.

وفاعليَّة التشبيه تعتمد على المدركات العقليَّة، إذ إنَّ عقد المشابهة بين حالَيْن متباينَيْن: أحدهما يرتبط بالكافرين العاصين، والآخر يرتبط بالمتقين الصالحين، يسهم في تفضيل المؤمنين على المشركين في الحياة والممات؛ لأنَّهم امتثلوا لأوامر الله، واتبعوا هداه، واجتنبوا نواهيه، وصدَّقوا رسله، فاستحقوا بذلك الوعد بالثواب العظيم، بخلاف المشركين الذين أنكروا الحق، وأعرضوا عن الهدى، فاستوجبوا بذلك الوعيد بالعذاب الشديد.

ولوظيفة التشبيه الإقناعيَّة دور بارز في مخاطبة العقول بطريقة عمليَّة مقنعة، تثبت وقوع البعث والجزاء في يوم القيامة، وتؤكِّد مسألة مفصليَّة، وهي أنَّ المظاهر الدنيويَّة الخدَّاعة من مال وجاه ونفوذ لا يُبنى عليها الثواب أو العقاب، بل يُبنى على ما تنطوي عليه النيَّة ويجسّده العمل، وهذا هو المعيار الحقيقي عند الله، الذي يفاضل به بين أعمال العباد عدلًا وإنصافًا، فلا يظلم أحدًا من العالمين مثقال ذرَّة.

ثانيًا: المجاز:

- **المجاز العقلي:**

برز المجاز العقلي في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ [هود:٣١]، ويبيّن رد النبي نوح -عليه السلام- على ادعاءات قومه الضالين، حيث أثبت لهم أنَّه لا يملك خزائن الله، ولا يعلم الغيب، ولا يدّعي أنَّه مَلَك، فضلًا عن أن يطرد المؤمنين الفقراء الذين يزدرونهم[2] بأبصارهم، فالله تعالى وحده يعلم بما في الصدور، ويؤتي الخير مَن يشاء.

---

[1] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، ص٨٥٨.

[2] الازدراء: الاحتقار والانتقاص والعيب. لسان العرب، مادَّة: (زري)، ٣٠/٧.

والحجيَّة تنهض على أنَّه أسند الازدراء إلى الأعين؛ لأنَّه «ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة في نظر الناظر، فتكون الأعين سببًا في هذا الازدراء»[1]، وهي حقيقة لا تزدري أحدًا، وإنَّما المزدرون هم أصحابها، والمقصود من ذلك المبالغة في بيان شدَّة الازدراء، فكأنَّ مَن لا يزدري يزدري، والتنبيه إلى أنَّ الكفرة استحقروا الذين آمنوا من المستضعفين بادي الرؤية من غير رويَّة، وبما عاينوا من رثاثة حالهم وقلَّة منالهم دون تأمُّل وتدبُّر في معانيهم وكمالاتهم[2]، التي يستقونها من الإيمان بالله، والامتثال لأوامره، واجتناب نواهيه، والتجافي عن زخارف الدنيا، والاستعداد ليوم المعاد. وقد جاءت هذه الآية الكريمة على لسان نوح -عليه السلام- تفنيدًا لما أورده المنكرون من شبهات في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود:٢٧]، وتأسيسًا لمفهوم جديد عادل، يتجلَّى في معياريَّة تفاضليَّة لا تقوم على اعتبارات سطحيَّة زائلة، مثل: الجاه، والمال، والمكانة الاجتماعيَّة، بل تقوم على اعتبارات جوهريَّة دائمة، مثل: التوحيد، والتقوى، والعمل الصالح، ممَّا يدفع إلى دحض التصوُّرات القائمة على التفاخر بالمظاهر الدنيويَّة الزائفة، وتقويض موازين التقدير المختلَّة المقصية للفقراء والمحتقرة لهم، وإحياء القيم الأصيلة العادلة في تقييم أعمال الناس يوم القيامة.

ويستمدُّ المجاز فاعليَّته من الاعتماد على المدركات الحسيَّة لدى الإنسان، وتتمثَّل في (العين)، إذ تضطلع بدور محوري فاعل من بين سائر أعضاء الجسد، وترتكز على تعرية الحكم الانطباعي السطحي، الذي اختزل به المعرضون حال المؤمنين في ظاهرهم المتواضع، ولم ينظروا إلى جوهرهم الثمين، ممَّا يؤكِّد ضعف الفهم والإدراك، وعمى البصيرة في استكناه الأمور، على الرغم من وضوح الحجج الدامغة والبراهين المسكتة المفضية إلى إبطال تلك المعتقدات الخاطئة.

إنَّ وظيفة المجاز الإقناعيَّة تكمن في مخاطبة أذهان المتلقِّين بطريقة منطقيَّة مقنعة، تسهم في هدم البُنى المغلوطة السائدة بينهم، وتشييد بُنى جديدة قوامها التوحيد الخالص والنظر العميق، وإعادة تشكيل الوعي الفردي والجمعي وفق منطلقات التشريع الإلهي، وتعزيز حضور الأطروحة

---

[1] التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ١٩٧/٧.

[2] ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمَّى تفسير البيضاوي، ١٢٩/٢. وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٢٤٣/٦.

الحِجَاجيَّة المتمثِّلة في أنَّ القيمة الحقيقيَّة للبشر لا تقاس بالمظاهر الشكليَّة، وإنَّما تحدَّد بمدى إيمانهم وتقواهم وأعمالهم الصالحة، وهذا يساعد على استيعاب جدليَّة التفاضل بين الخلائق.

وفي إثبات وحدانيَّة الله ورد المجاز في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء:٢٢]، ويكشف عن مظهر من مظاهر الألوهيَّة، ويتمثَّل في إحكام النظام الكوني دون اضطراب أو خلل، ولو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله؛ لاختلَّ توازنهما، وفسد نظامهما، فسبحانه رب العرش عمَّا يصفون، له السلطان المطلق، والإرادة النافذة، والحكمة البالغة.

وتقوم المحاجَّة على أنَّه أسند الفساد إلى السماوات والأرض، وثمَّة ملابسة مكانيَّة بين الطرفَيْن؛ لأنَّ الفساد لا يقع إلا فيهما، وهما في الحقيقة ليستا الفاعل له، وهذا فيه استدلالان: الأول: يبطل عقيدة الكافرين الذين افتروا على الله تعالى، وزعموا أنَّه جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق، ويعدُّ ذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه أئمَّة الكفر بجهلهم، وتلقَّفه أتباعهم على غير هدى وبصيرة، فخالفوا به ما يقتضيه النقل والعقل. والثاني: يستحيل وجود آلهة غير الله؛ لأنَّ المشركين أنفسهم مقرِّون بأنَّه وحده خالق السماوات والأرض[1]. وكلاهما مسوق لإثبات الوحدانيَّة، وليس لإثبات انفراده بالخلق أو وجود الصانع، إذ لا نزاع فيه عند المخاطَبين، وقد أتى الحِجَاج بطريقة منهجيَّة ملزمة تنقض معتقداتهم الفاسدة[2]، وتفنِّد دعواهم الواهية، وحيث «انتفى التالي عُلم انتفاء المقدَّم قطعًا ببيان الملازمة أنَّ الإلهيَّة مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرُّف فيهما على الإطلاق تغييرًا وتبديلًا وإيجادًا وإعدامًا وإحياء وإماتة، فبقاؤهما على ما هما عليه إمَّا بتأثير كل منها، وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعيَّن بعلل متعدِّدة، وإمَّا بتأثير واحد منها، فالبواقي بمعزل من الإلهيَّة قطعًا. واعلم أن جعل التالي فسادهما بعد وجودهما لما أنَّه اعتبر في المقدَّم تعدُّد الآلهة فيهما، وإلا فالبرهان يقضي باستحالة التعدُّد على الإطلاق، فإنَّه لو تعدَّد الإله، فإن توافق الكل في المراد تطاردت عليه القُدَر، وإن تخالفت تعاوقت، فلا يوجد موجود أصلًا، وحيث انتفى التالي تعيَّن انتفاء المقدَّم»[3]، ممَّا يؤكِّد أنَّ انتظام

---

[1] والدليل على ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴿٩﴾﴾ [الزخرف:٩].

[2] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ١٧/٣٨-٣٩.

[3] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٤/٣٣٠.

الكون وعدم فساده دليل قاطع على أنَّ المدبِّر واحد، وهو الله الذي لا شريك له في الخلق والتدبير والتسخير.

ومفعول المجاز الحِجَاجي يعتمد على المشاهَد في الحياة الواقعيَّة، وتتمثَّل في السماوات والأرض بوصفهما أبرز المظاهر الكونيَّة حضورًا في الإدراك الإنساني، وتوظيفهما في سياق تجلية الحقائق المتعلِّقة بوحدانيَّة الخالق وقدرته، يضفي على المشهد مزيدًا من الإقناع والقبول، ويجعل الفكرة القائمة على التوحيد وإفراد الله بالألوهيَّة أشد وقعًا وأعمق أثرًا من الفكرة القائمة على الشرك وتعدُّد الآلهة.

وأسهمت وظيفة المجاز الإقناعيَّة في مخاطبة عقول البشر بأسلوب حِجَاجي محكم، يظهر حجم الكفر والضلال الذي سيطر على المشركين، وما نتج عنه من تناقضات عقديَّة وتصوُّرات منحرفة، تنهض على ادعاء وجود شركاء لله، فتعالى رب العرش عمَّا يصفون علوًا كبيرًا، وهذا يكشف بجلاء عن خطورة عقيدتهم الباطلة على الناس، إذ وجب التحذير من شركهم وضلالاتهم، ودحض أباطيلهم بالحجَّة المفحمة والبيِّنة المسكتة، والدعوة إلى التوحيد الخالص الذي يعدُّ أساسًا لصحَّة العقيدة ومصدرًا لصفاء النيَّة.

- **المجاز المرسل:**

جاء المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴿٢٧﴾﴾ [نوح:٢٧]، ويبيِّن شدَّة دعاء نوح -عليه السلام- على قومه، من بعد أن أمضى زمانًا مديدًا في دعوتهم إلى توحيد الله، فلم يجد منهم إلا العصيان والتكذيب، بل كلَّما زاد في إرشادهم زادوا في فسادهم، حتى بلغ بهم مبلغًا دفعه إلى اليأس من صلاحهم، واليقين بأنَّ هلاكهم أولى من بقائهم.

وحِجَاجيَّة المجاز تنهض على أنَّ جملة (ولا يلدوا إلا فاجرًا كفَّارًا) فيها علاقة اعتبار ما سيكون، حيث أطلق (الفاجر الكفَّار) على (المولود)، وهذا الوصف الاستباقي يقدِّم المستقبل في صورة المتحقِّق، و«يشعر بأنَّ نوحًا -عليه السلام- قد يئس من إيمان قومه وضاق بهم ذرعًا، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الإيمان بالله وهم يسخرون منه، ولم يؤمن معه إلا قليل، ولذا صار على يقين بأنَّ مَن يخرج من أصلابهم سيكون مآله الكفر والفجور»[1]؛

[1] من بلاغة النظم القرآني، ص٣٨٥.

لأنَّ المولود فيهم لن يتركونه على فطرته التي ولد عليها، بل يفسدون تلك الفطرة بتلقينه دينهم الضال، وتنشئته على الكراهيَّة والبغض لله ورسوله والمؤمنين، إذ كان الرجل منهم ينطلق بابنه إلى نوح، ويقول: احذر هذا، فإنَّه كذَّاب، فيعمل الابن بوصيَّة أبيه، ويموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك[1]، فلم ينتفعوا بما أتاهم به من هداية ونور عنادًا واستكبارًا، وهكذا تتوارث أجيالهم الضلال جيلًا بعد جيل، ويتجذَّر في فطرتهم بفعل البيئة الفاسدة التي يعيشون فيها، فاستحقوا جميعًا العقاب الشديد الذي وقع بهم، فالحجَّة تتمحور حول (إن تذرهم يضلُّوا عبادك)، والنتيجة تتجلَّى في (لا يلدوا إلا فاجرًا كفَّارًا).

ويكتسب المجاز مفعوله الحِجَاجي من توظيف غير الكائن إبَّان الخطاب في موضع الكائن؛ لأنَّه يريد أن يؤكِّد امتداد أثر الشرك والطغيان في الكافرين من قوم نوح، «فوصفهم بما يصيرون إليه، وكأنَّه اعتذار ممَّا عسى يرد عليه من أنَّ الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون من أخلافهم مَن يؤمن منكر، وإنَّما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم بعدما جرَّبهم واستقرأ أحوالهم»[2] قاطبة، وأوحى الله إليه أنَّ قومه لن يؤمن منهم أحد إلا مَن قد آمن كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود:٣٦]، وهذا يسهم في تعزيز صدق نبوَّته، وحتميَّة وقوع العذاب على الكفَّار الفجَّار.

وتتأسَّس وظيفة المجاز الإقناعيَّة في الآية الكريمة عن طريق مخاطبة الأذهان بطريقة منطقيَّة مقنعة، تقدِّم تعليلًا واضحًا إزاء دعاء نوح على قومه بالهلاك والدمار؛ لاستحالة هدايتهم وإيمانهم، ممَّا يؤدِّي إلى التحذير من الكفر وعواقبه الوخيمة، والتنفير من مصاحبة أهله العاصين، والدعوة إلى مراجعة المعتقدات الباطلة والمواقف الخاطئة في ضوء ما تقتضيه الشريعة الإلهيَّة؛ لأنَّها المرجعيَّة الرئيسة التي يعوَّل عليها في تصحيح المسار العقدي والفكري، والسبيل الوحيد الذي يهدي إلى ميادين الحق والرشاد.

وفي بيان قدرة الله وعظمته ورد المجاز في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة:٤]، ويكشف عن مظهر من مظاهر إبداع التكوين وإحكام الصنعة، ويتمثَّل في إعادة

---

[1] ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١١٤٤/٢٩. والتفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١٣٠/٣٠.

[2] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٣١١/٦-٣١٢.

تسوية البنان[1] بعد فنائها، فلا غرو أنَّ الذي خلق الإنسان أول مرَّة قادر على إعادته مرَّة أخرى، مهما بلغ به التفتُّت والتلاشي، وهو أمر هيِّن ويسير على الخالق، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

والحجَّة تقوم على أنَّ كلمة (بنانه) تحمل العلاقة الجزئيَّة، حيث أطلق الجزء وأراد به الكل (الجسد بأكمله)؛ لأنَّ المقصود ليس ذكر البنان بمعناه المجرَّد، وإنَّما المقصود استحضار ما يحمله من دلالة شاهدة على إتقان الله في خلقه، وتفرُّده في أدق التفاصيل، وهي بذلك ميدان حِجَاجي تفنَّد فيه مزاعم الكفرة المنكرين، وتدحض أباطيلهم، إذ إنَّ إنكارهم البعث ناشئ عن شبهتَيْن: الأولى: استبعاد إمكانيَّة إعادة الأجساد بعدما تفرَّقت أجزاؤها وتلاشت. والثانية: صدور جحود المعاد عن الهوى، واسترسال الطبع، والميل إلى الفجور[2]. وكلا الشبهتَيْن تؤكِّد مدى ضلالة هؤلاء الجاحدين، وابتعادهم عن طريق الهدى والاستقامة؛ لأنَّهم لم يستندوا إلى دليل علمي أو عقلي يدعم ادعاءاتهم الزائفة، وهذا يفضي إلى مسألة محوريَّة، وهي أنَّ الله لم يخلق العقل عبثًا، بل أودعه في الإنسان لحكمة بالغة، تتجلَّى في قدرته على التفكير في الأمور وتدبُّرها، والتمييز بين النور والظلام، والنظر في البراهين الدامغة والأدلَّة الباهرة، التي تجعل المصير الحتمي ماثلًا أمامه كأنَّه يراه رأي العين، ويدركه إدراكًا لا ريب فيه، ممَّا يثبت أنَّ البعث والحساب واقع لا محالة، وأنَّ التشكيك فيه ليس ناتجًا عن ضعف الدلائل أو نقصها، ولكنَّه وليد عمى البصيرة وتعطيل الفكر.

وفاعليَّة المجاز تأتي من الاعتماد على المدركات الحسيَّة لدى الإنسان، وتتمثَّل في (البنان)، إذ يضطلع بمهمَّة مركزيَّة من بين سائر أعضاء الجسد، وترتكز على تجلية دقَّة الصنعة الإلهيَّة في معرض الاستدلال والحِجَاج، حيث يتبيَّن أنَّ «الله ليس قادرًا على جمع العظام فحسب، بل هو -سبحانه- قادر على إعادة خلق الإنسان بكل التفاصيل الدقيقة الصغيرة، بما في ذلك الخطوط الرفيعة في باطن يديه»[3]، فإعادة الخلق -وفق المنطق العقلي- أهون من إنشائه أول مرَّة من العدم.

---

[1] البنان: الأصابع، وقيل: أطرافها. لسان العرب، مادَّة: (بنن)، ١٥٧/٢.

[2] ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٢٧٤/١٥.

[3] سورة القيامة: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، إبراهيم منصور التركي، مجلَّة العلوم العربيَّة، ع١٤، محرَّم ١٤٣١هـ، ص١٣٧.

ولوظيفة المجاز الإقناعيَّة دور فاعل في مخاطبة العقول بأسلوب حِجَاجي محكم، يسهم في تجسيد مشاهد يوم القيامة الغيبيَّة في صورة ملموسة قريبة من إدراك المخاطَبين؛ لكي يعيد تشكيل العمليَّة الإدراكيَّة لديهم تجاه القضايا العقديَّة الكبرى، ومن أبرزها البعث والنشور، وهذا ما يزيد من الإقناع بضرورة اجتناب الكفر والضلال، والتمسُّك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والإيمان بقدرة الله المطلقة على الخلق والمعاد والجزاء.

- **الاستعارة:**

ظهرت الاستعارة في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠]، وتبيِّن البون الشاسع بين مَن يريد الآخرة، ويسعى إليها بكل ما أوتي من قوَّة، فيكون نصيبه منها الزيادة في الأجر والثواب، ومأواه الجنَّة ونعم المصير، وبين مَن يريد الدنيا، ويفني عمره في جمع زخارفها الملهية ومتعها الزائلة، وما له في الآخرة من نصيب، ومثواه نار جهنم وبئس القرار.

ومحاجَّة الاستعارة تنهض على أنَّه استعار (الحرث)[1] للعمل والسعي سواء أكان طلبًا لغاية دنيويَّة أم أخرويَّة، ويكمن الفرق الجوهري بين الحرثَيْن (الدنيوي والأخروي) في عدَّة وجوه، منها: الأول: أنَّ الله قدَّم مريد حرث الآخرة في الذكر على مريد حرث الدنيا من باب التفضيل. والثاني: أنَّ الله يزيد في حرث مريد الآخرة، فيكون حاله دائمًا في نماء وازدياد، في حين أنَّ مريد حرث الدنيا لا يؤتيه إلا بعض ما يطلبه دون بلوغ مراده، فيكون حاله في نقصان وهلاك. والثالث: أنَّ الله لم يذكر نصيب طالب حرث الآخرة من الدنيا إثباتًا أو نفيًا، أمَّا طالب حرث الدنيا فقد بيَّن أنَّه لا يعطيه شيئًا من نصيب الآخرة، ممَّا يعني أنَّ الآخرة أصل والدنيا تبع، فواجد الأصل يكون واجدًا للتبع بقدر الحاجة. والرابع: أنَّ الآخرة نسيئة والدنيا نقد، والنسيئة مرجوحة في مقابل النقد؛ لأنَّ الناس يقولون: النقد خير من النسيئة، فبيَّن تعالى أنَّ هذه القضيَّة انعكست بالنسبة إلى أحوال الآخرة والدنيا، فالآخرة وإن كانت نسيئة إلا أنَّها متوجهة إلى الزيادة والدوام، فكانت أفضل وأكمل، والدنيا وإن كانت نقدًا إلا أنَّها آيلة إلى الاضمحلال والزوال، فكانت أخس وأرذل. والخامس: أنَّ المنافع الأخرويَّة والدنيويَّة لا تتحقَّق إلا بالحرث والعمل والمشقَّة، وصرف المتاعب فيما يؤدِّي إلى الترقِّي والتزايد والبقاء أولى من

[1] الحرث في الأصل: إلقاء البذر في الأرض يطلق على الزرع الحاصل منه. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ١٥/٦.

صرفها فيما يفضي إلى الانحدار والانقضاء والفناء[1]. وكل هذه الوجوه مجتمعة تشكِّل حججًا مقنعة، وتلفت الانتباه إلى تفاوت الغايتَيْن، فشتَّان بين حرث حصاده متاع دنيوي زائل، وحرث حصاده نعيم أخروي خالد.

وتستمدُّ الاستعارة فاعليَّتها من الاعتماد على الفضاء الزراعي، إذ وظَّف مشهد الحرث بما ينطوي عليه من دلالات الكد والاجتهاد والصبر، في سياق الإخبار عن طبيعة سعي الإنسان وكسبه في الحياة الدنيويَّة، وهذا يقود إلى تعزيز حضور الفكرة القائمة على العمل في الدنيا من أجل الآخرة، بحيث تكون أكثر قبولًا وفعاليَّة من الفكرة القائمة على العمل في الدنيا من أجل الدنيا.

إنَّ وظيفة الاستعارة الإقناعيَّة تكمن في مخاطبة أذهان المتلقِّين بطريقة عمليَّة منطقيَّة، تقوم على تعرية المسار العقدي الباطل، الذي يفصل الأعمال عن مقاصدها الصحيحة، ويصرفها لغير الله، فتفقد بذلك أثرها التعبُّدي، وتخرج من دائرة التوحيد الخالص، ولذا وجب الإنابة إلى الله، والحذر من الانقياد إلى الشرك وضلالاته، وإعادة التفكير في النهاية الحتميَّة وفق التعاليم الربَّانيَّة، بما يحقِّق التصوُّر السليم لمفاهيم العمل والغاية والجزاء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ [التكوير:١٨] جاءت الاستعارة مبيِّنة عظمة الله وقدرته في تصريف الكون، إذ يقدِّر الصبح بحكمته ورحمته وتدبيره، فيجعله إذا تنفَّس وأشرق ضياؤه باعثًا على الحركة والعمل والنشاط، ضمن نظام كوني دقيق يعيد التوازن الطبيعي إلى الحياة الإنسانيَّة.

وتتجلَّى الحجيَّة في أنَّه استعار (التنفُّس) للصبح؛ لكي يكشف بوضوح عن ظاهرة من الظواهر الكونيَّة، التي لا يقدر على تسييرها إلا الله وحده دون سواه. وقد وقعت هذه الآية الكريمة في خاتمة القسم المبدوء بالآيات السابقة لها في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [التكوير:١٥-١٧]، وأراد أن يقدِّم برهانًا واضحًا من خلال القسم المنفي، وهو أبلغ من القسم المثبت؛ لأنَّ النفي في هذا الموضع لا يقصد به إبطال القسم، بل توكيده بأقوى أسلوب، حتى كأنَّ جواب القسم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾

[1] ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١٣٩/٢٧-١٤٠.

[التكوير:١٩] لشدَّة ثبوته وظهوره لا يحتاج أن يقسم عليه[1]، ولا يتطرَّق إليه أدنى شك، ممَّا يحمل المخاطَبين على التسليم والإذعان لما يعرض عليهم من حقائق دامغة لا يمكن تجاهلها أو إنكارها، وما تنفُّس الصبح إلا بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، تدعم الخطاب القرآني في إبراز تمام القدرة الإلهيَّة على إدارة شؤون الكون؛ لينتقل بذلك من مجرَّد العرض والبيان إلى الإقناع والإلزام، ويشكِّل حجَّة تصويريَّة حيَّة، تثبِّت المؤمنين على إيمانهم، وتوقظ الغافلين من غفلتهم، وتردع الكفرة عن كفرهم، فلا عذر لأحد أمام دلائل وحدانيَّة الله.

ومفعول الاستعارة الحِجَاجي يعتمد على الواقع المعيش، فالصبح مظهر حسي من المظاهر الكونيَّة المعهودة في كل يوم، ويدل اختياره دون غيره على ما يحتوي عليه من خصائص زمنيَّة متكاملة، تنظِّم حياة الإنسان بكل تفاصيلها، وتكون أكثر حضورًا وثباتًا في وعيه وإدراكه، ممَّا يدفعه إلى التماهي مع المشهد المحيط، والإقرار بعظمة الخالق الذي هو أحق بأن يعظَّم ويعبد.

وأسهمت وظيفة الاستعارة الإقناعيَّة في مخاطبة عقول البشر بأسلوب حِجَاجي مقنع، يجسِّد الأمور المعنويَّة (قدرة الله تعالى) في صورة حسيَّة مشاهَدة (تنفُّس الصبح)، والغرض منها الاستدلال بشواهد من الصنع الربَّاني البديع؛ لخلق حالة من التأمُّل والتفكُّر في آفاق الملكوت، وإعادة تشكيل المفاهيم الكبرى في ضوء منطلقات الإيمان والتوحيد، بما يزعزع ركائز المعتقدات الباطلة، ويرسِّخ دعائم العقيدة الصحيحة.

ثالثًا: الكناية والتعريض:

- **الكناية:**

برزت الكناية بجلاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات:٨-٩]، وتكشف عن المصير الذي ينتهي إليه أولئك الكافرون المنكرون، من بعد أن أعرضوا عن الحق عنادًا واستكبارًا، وابتعدوا عن ميادين الاستقامة والرشاد بإرادتهم واختيارهم، وتصاموا عن سماع الآيات البيِّنات، وتعاموا عن نورها الساطع، فما كان حرمانهم من الهدى ومنعهم من الطاعة إلا الجزاء الأوفى لهم على ما قدَّمت أيديهم من تكذيب وإنكار.

---

[1] ينظر: تفسير جزء عم، محمد متولي الشعراوي، دار الراية للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، ص١٥٨-١٥٩. والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٤٥٨/١٥.

وتقوم المحاجَّة على أنَّه كنَّى بـ(إنَّكم لفي قول مختلف) عن بطلان أقوال المشركين المختلفة في أمر الرسالة والوحي، فالاختلاف هنا يلزم منه البطلان، وكنَّى أيضًا بـ(يؤفك عنه مَن أفك)[1] عن المكذِّب الجاحد للهداية؛ وذلك «للإشعار بأنَّ هذا الشقي الذي آثر الكفر على الإيمان، قد صرف عن الرشاد وعن الخير صرفًا، ليس هناك ما هو أشد منه في سوء العاقبة»[2]، ولا أبلغ في الحرمان؛ لأنَّ إعراضه لم يكن ناتجًا عن جهل أو التباس، بل كان عن علم مسبق واختيار متعمَّد وعناد مفرط. وقد جاءت هاتان الآيتان الكريمتان جوابًا للقسم الوارد في الآية السابقة لهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات:٧]، وتنبيهًا إلى «أنَّ القول يجب أن يكون واحدًا قصدًا لا التواء فيه، كما في خلق السماء خلقًا محكمًا لا اختلاف فيه»[3]؛ لأنَّ القول المختلف ينتج عنه التناقض في المواقف والأفعال، والتناقض في حد ذاته دليل على الحيرة والاضطراب والضياع، وحجَّة على فساد هذا القول مبنى ومعنى؛ لعدم استناده إلى رؤية تتسم بالوضوح والثبات، ممَّا يستدعي التحذير من خطورة التردُّد في قبول الهدى، إذ يفضي إلى الوقوع في الأقوال المتناقضة، التي تؤدِّي إلى الانصراف عن الحق والتمادي في الضلال.

وفاعليَّة الكناية تأتي من الاعتماد على الإدراك العقلي، حيث تقدِّم الفعل (إعراض المشرك عن الهداية)، والنتيجة (حرمانه ممَّا فيها من نور ونجاة) بوصفهما جوهر المعادلة التراكميَّة التي تربط بين السبب والمسبَّب، وتؤكِّد أنَّ استقامة الإنسان أو انتكاسه مرتبطان بأقواله وأفعاله وما يترتَّب عليها من نتائج، وقد بيَّن الله الصراط المستقيم للناس قاطبة، فلا يحيد عنه إلا مَن خسر نفسه وحرمها.

ولوظيفة الكناية الإقناعيَّة دور بارز في مخاطبة الأذهان بطريقة عمليَّة مقنعة، تسهم في بيان بشاعة الكفر وآثاره السلبيَّة على صاحبه، ولمَّا «خصص هذا بأنَّه هو الذي صرف، أفهم أنَّ غيره لم يصرف، فكأنَّه قال: لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا، وكل صرف دونه يعتبر بمثابة المعدوم بالنسبة إليه»[4]، وليس هناك أقسى من التيه والخسران في الدنيا، والعذاب والهلاك

---

[1] يؤفك عنه من أفك: يُصرف عنه مَن صُرف. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجَّاج، شرح وتحقيق: عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، ٥٢/٥.

[2] التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ١٢/١٤-١٣.

[3] تفسير الشعراوي، ١٤٥٥٩/٢٣.

[4] إعراب القرآن الكريم وبيانه، ٢٨٥/٧.

في الآخرة، ممَّا يلفت الانتباه إلى مسألة مهمَّة، وهي أنَّ الجزاء من جنس العمل، ولا يظلم الله أحدًا شيئًا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير:٢٢] وردت الكناية مبيِّنة حال الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- وما يتحلَّى به من رجاحة العقل وثبات الإرادة، إذ تدحض عنه كل ما يفتريه عليه أولئك المشكِّكون الضالون، وتؤكِّد أنَّه الصادق الأمين الذي بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة، وتركها على المحجَّة البيضاء، التي لا يزيغ عنها إلا خاسر وهالك، ومصيره نار جهنم.

وحِجَاجيَّة الكناية تنهض على أنَّه كنَّى بـ(صاحبكم) عن النبي محمد، وهذا فيه نفي الجنون عنه -عليه الصلاة والسلام- «بأكمل وجه، وتوبيخ أعدائه الذين اتهموه بتهمة هم أول مَن يعلم -عن طريق مشاهدتهم لاستقامة تفكيره، وسمو أخلاقه- أنَّه أكمل الناس عقلًا وأقومهم سلوكًا»[1]، وأبعد ما يكون عن خوارم المروءة، فضلًا عن أن يوصف بما هو أشد منها. والغرض من اتهام المشركين له بتلك الفرية، يكمن في محاولتهم الطعن في أهليَّته العقليَّة، والنيل من أمانته، والتشكيك في نبوَّته؛ وذلك لإسقاط الرسالة من أصلها، وصرف الناس عنها؛ لأنَّ العلاقة بين (الرسالة/ الرسول/ الناس) علاقة تراتبيَّة، حيث يمثِّل الرسول حلقة الوصل ما بين الرسالة والناس، فالطعن فيه يفضي بالضرورة إلى الطعن في الرسالة نفسها، وقطع الصلة بينها وبين متلقِّيها، ولذا، فإنَّهم لم يسيؤوا في افترائهم وتكذيبهم إلى النبي محمد فحسب، وإنَّما تجاوزوا بالإساءة إلى الله -جلَّ جلاله-؛ لأنَّه هو الذي اصطفاه نبيًّا ورسولًا، ويعدُّ التشكيك في المصطفى اعتراضًا صريحًا على اختيار الله وحكمه، وجرأة على مقامه العلي، وقلبًا للحقائق المستقرَّة في الأذهان، ولم يدركوا أنَّ من عدله لا يختار لرسالته إلا مَن كان في تمام العقل، وغاية الصدق، وكمال الخُلق؛ لكي يكون مؤهَّلًا لحملها وأداء أمانتها، وقادرًا على تبليغها كما أنزلت؛ لأنَّ الله لا يحاسب أحدًا من العالمين يوم القيامة إلا بعد أن يتضح له الحق وضوح الشمس في رابعة النهار.

وتستقي الكناية مفعولها الحِجَاجي من استحضار الفضاء الاجتماعي والمخزون الذهني، إذ وظَّفت شخصيَّة الصاحب بوصفها وسيلة للرد على ادعاءات الكفَّار الباطلة بالدليل

[1] التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٣٠٣/١٥.

الملموس، الذي يظهر ما كان عليه محمد قبل البعثة من عظيم الأخلاق وحسن المعشر ورجاحة العقل، وما هذه الصفات الراسخة في الوعي الجمعي إلا شهادة قاطعة على أهليَّته للرسالة، واستحقاقه لمقام النبوَّة، ممَّا يجعل تلك المزاعم الزائفة تتهاوى أمام واقع مشهود لا يمكن إنكاره.

وتتأسَّس وظيفة الكناية الإقناعيَّة في الآية الكريمة عن طريق مخاطبة العقول الإنسانيَّة بأسلوب حِجَاجي فعَّال، يستدعي ما يجمع المخاطَبين بمحمد رسول الله من أواصر قويَّة تشكَّلت من طول الصحبة وصدق المعايشة، ويذكِّرهم بأنَّه بشر مثلهم ورجل منهم يعرفون دقائق أحواله، وهذه المعطيات المنطقيَّة كافية لإبطال دعوى الجنون، وحمل المنكرين على الارعواء عن كفرهم وضلالهم، وإلزامهم بتصديق الرسالة الإلهيَّة.

- **التعريض:**

ظهر التعريض في قوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة:١٢]، ويشير إلى قصَّة سفينة نوح -عليه السلام- وما تحمله من دلالات عظيمة تجسِّد العاقبة المحمودة للإيمان والتوحيد، في مقابل العاقبة المذمومة للكفر والطغيان؛ لتكون بذلك تذكرة للعالمين، تبيِّن أنَّ النجاة من الهلاك مقرونة بالامتثال لأوامر الله ونواهيه، وأنَّ الوقوع في العذاب مرهون بالإعراض عن الهدى.

والحجَّة تقوم على أنَّه عرَّض في (وتعيها أذن واعية) بالمشركين الذين لم يتعظوا بحادثة الطوفان التي وقعت في عهد نوح -عليه السلام- إذ جعل الله من نجاة المؤمنين في السفينة آية وعبرة، ومن إغراق الكفرة الظالمين عقوبة وعظة، وقد جاء التذكير بتلك الواقعة لما فيها من إدماج امتنان على جميع الناس الذين تناسلوا ممَّن نجَّاهم الله من الغرق؛ لأنَّ في حمل آبائهم على السفينة منَّة عظيمة عليهم، وكأنهم هم المحمولون، فكانت نجاة الآباء سببًا في وجود الأبناء أنفسهم[1]، وهذا يجمع لهم بين أمرَيْن: أولهما: التحذير من النقمة التي حلَّت بالكافرين، وما ينطوي عليه من دلالة تفتح آفاقًا واسعة للتفكُّر والاعتبار، وتردع أهل الشرك عن غيِّهم وعصيانهم. وثانيهما: التذكير بالنعمة التي أنعم الله بها على المؤمنين، فيكون ذلك دافعًا إلى شكر المنعم والثناء عليه، واستجلابًا لمزيد من النعم والفضائل. وكلا الأمرَيْن مدعاة لإصغاء

[1] ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١١٣٥/٢٩. وتفسير التحرير والتنوير، ١٢٣/٢٩.

الأذن الواعية، وانتفاعها بالحق المبين، الذي مَن تمسَّك به اهتدى إلى الصراط المستقيم، ومَن أعرض عنه خسر دنياه وآخرته.

ويستمدُّ التعريض فاعليَّته من الاعتماد على المدركات الحسيَّة لدى الإنسان، وتتمثَّل في (الأذن)، إذ تضطلع بدور محوري من بين سائر الجوارح، ولا يقتصر دورها على مسألة محدَّدة بعينها فحسب، وإنَّما يمتدُّ إلى تحديد المصير الإنساني الدنيوي والأخروي، من حيث الاستجابة للهداية أو الصدود عنها، وإطلاق وصف (الواعية) على الأذن يرمز إلى ضرورة الإدراك العميق والتلقِّي المسؤول، بما يعكس الحضور العقلي الفاعل فيما يلقى من آيات وحقائق.

إنَّ وظيفة التعريض الإقناعيَّة تكمن في مخاطبة العقول بطريقة منطقيَّة مقنعة، تسهم في تأكيد أهميَّة الوعي في حياة البشر، وقد أتى التعبير بـ(أذن واعية) منكَّرًا؛ «للإيذان بأنَّ الوعاة فيهم قلَّة، ولتوبيخ الناس بقلَّة مَن يعي منهم، وللدلالة على أنَّ الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله، فهي السواد الأعظم عند الله، وأنَّ ما سواها لا يبالي بهم بالة، وإن ملئوا ما بين الخافقين»[1]، ممَّا يقود إلى ترسيخ المعيار الربَّاني العادل، الذي يرتكز على الفهم السديد والإيمان الصادق، ويعمِّق أثره المتجذِّر في نفوس الأجيال المتعاقبة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾ [الطارق:١٣-١٤] برز التعريض مبيِّنًا المنزلة الرفيعة للقرآن الكريم، إذ وصفه الله بأنَّه قول فصل يميِّز بين الحق والباطل، ويهدي إلى سبيل الهداية والرشاد، وما هو بالهزل[2]؛ لأنَّه مصدر التشريع الإلهي، الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويتسم بجديَّة الخطاب وسمو المقصد، ويسعى دائمًا إلى تحقيق ما فيه صلاح الدنيا والآخرة.

ومحاجَّة التعريض تنهض على أنَّه عرَّض في (وما هو بالهزل) بالكفَّار الذين يزعمون أنَّ القرآن الكريم هزل لا جد فيه، وهو في الحقيقة ليس فيه شيء من الهزل واللهو، بل إنَّه «جد كله لا هوادة فيه. ومن حقِّه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيبًا في الصدور، معظَّمًا في القلوب، يترفَّع به قارئه وسامعه أن يلمَّ بهزل أو يتفكَّه بمزاح، وأن يلقى ذهنه إلى أنَّ جبَّار السماوات يخاطبه فيأمره وينهاه، ويعده ويوعده، حتى إن لم يستفزه الخوف ولم تتبالغ فيه

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١١٣٥/٢٩.

[2] وما هو بالهزل: وما هو باللعب. معاني القرآن وإعرابه، ٣١٣/٥.

الخشية، فأدنى أمره أن يكون جادًّا غير هازل»[1]. وقد وقعت هاتان الآيتان الكريمتان جوابًا للقسم الوارد في الآيتَيْن السابقتَيْن لهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾ [الطارق:١١-١٢]، وتفنيدًا لدعوى «المشركين الجاهلين، الذين وصفوا القرآن بأنَّه نزل على الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- ليهزل به؛ لأنَّه يخبرهم بأنَّ الأموات سيعادون إلى الحياة مرَّة أخرى، وذلك أمر تستبعده نفوسهم المطموسة»[2] بالكفر والضلال، فضلًا عن محاولتهم تضليل الناس، وصرفهم عن الانتفاع بالآيات الهاديات، فالحجَّة تقوم على (أنَّ القرآن الكريم فاصل بين الحق والباطل)، والنتيجة تتخلَّص في (أنَّه ليس هزلًا ولا لعبًا، بل هو كلام حق لا يحتمل إلا التصديق والتسليم والامتثال).

ومفعول التعريض الحِجَاجي يعتمد على الإدراك العقلي، إذ قدَّم (القول الفصل، وما هو بالهزل) بوصفهما برهانًا ساطعًا على صحَّة الرسالة الربَّانيَّة وصدق الرسول الكريم، ونفيًا قاطعًا لما زعمه الكفرة من أباطيل العبث والافتراء، وهذا يدفع إلى ردعهم عن خزعبلاتهم الواهية ومزاعمهم الزائفة، ودعوتهم إلى مراجعة تصوُّراتهم الخاطئة عن القرآن الكريم؛ لأنَّها تتعارض جملة وتفصيلًا مع مقاصد كلام الله، الذي يهدي إلى الرشد، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فلا مجال فيه للهزل، ولا موضع فيه للزور.

وأسهمت وظيفة التعريض الإقناعيَّة في مخاطبة عقول البشر بأسلوب حِجَاجي محكم، يظهر حجم الزيغ والطغيان الذي تمكَّن من المنكرين، وما نتج عنه من تكذيب وإنكار لدعوة الحق، التي جاءت لهداية البشريَّة قاطبة، وإخراجهم من غياهب الجهل والشرك إلى أنوار العلم والإيمان، ممَّا يرسِّخ مسألة مهمَّة، وهي أنَّ الأقوال والأفعال المشينة ليست إلا جناية على أصحابها أنفسهم، والله متم نوره لا محالة ولو كرهوا.

ويتجلَّى ممَّا سبق أنَّ وظائف الصورة الحِجَاجيَّة بقسمَيْها: التأثير، والإقناع، قد تجلَّت في السور المكِّيَّة تجلِّيًا حِجَاجيًّا مؤثِّرًا، وعلى الرغم من اشتراك هذَيْن القسمَيْن في الهدف والنتيجة، فإنَّ التأثير اعتمد على عناصر عاطفيَّة ونفسيَّة، حيث ركَّز على إثارة وجدان الإنسان ومشاعره من خلال ثنائيَّة (الترغيب/ الترهيب)، فعلى سبيل المثال يظهر الترغيب في خضم الحديث عن الجنَّة ونعيمها، وفي المقابل يبرز الترهيب في أثناء الإخبار عن جهنم وسعيرها، وأمَّا الإقناع فقد

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١١٩٤/٣٠.

[2] التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٣٥٧/١٥.

تمحور حول مرتكزات عقليَّة وإدراكيَّة، أسهمت في مخاطبة العقول البشريَّة عن طريق ثنائيَّة (الإثبات/ النفي)، فعلى سبيل المثال يتجلَّى الإثبات في تأكيد وقوع البعث والنشور في يوم القيامة، في حين أنَّ النفي يتمثَّل في إنكار وجود الشركاء لله تعالى.

الخاتمة

تناولت هذه الرسالة حِجَاجيَّة الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة، وجاءت في مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول: ناقش الفصل الأول حِجَاجيَّة التشبيه، ودرس الفصل الثاني حِجَاجيَّة المجاز، في حين أنَّ الفصل الثالث ركَّز على حِجَاجيَّة الكناية والتعريض، وعالج الفصل الرابع وظائف الصورة الحِجَاجيَّة، وتليه خاتمة، وفهارس. وبعد تركيز النظر في هذه الدراسة، فقد أسفرت عن مجموعة من النتائج، أهمها:

- لم يكن مصطلحا الصورة والحِجَاج حديثَيْ النشأة، بل إنَّ جذورهما ممتدَّة وموغلة في القدم، ومع ذلك لم يحظيا قديمًا وحديثًا بمفهومَيْن محدَّدَيْن؛ لأنَّ الرؤى حولهما اختلفت باختلاف المرجعيَّات الفكريَّة والمذهبيَّة.
- يعدُّ الخطاب القرآني المكِّي خطابًا حِجَاجيًّا إقناعيًّا بامتياز، ومن أهم آلياته الصورة البيانيَّة؛ لأنَّها تعالج قضايا كبرى مفصليَّة، مثل: إثبات وحدانيَّة الله تعالى، والبعث والحساب بعد الموت.
- لم تخرج الصورة البيانيَّة في السور المكِّيَّة عن الأمور الراسخة في نفوس المخاطَبين وأذهانهم، إذ توسَّلت بها للتأثير فيهم وإقناعهم بما قدَّمته من أفكار ومسائل، وأتت بالمتفق عليه؛ لكي تقنعهم بشيء غير متفق عليه، كما ورد في تصوير إحياء الموتى بإحياء الأرض الهامدة.
- أسهمت الصورة البيانيَّة في تجلية مقاصد القرآن الكريم، ولا سيما السور المكِّيَّة، حيث تناولتها تناولًا بلاغيًّا حِجَاجيًّا، بما يوضِّح الفكرة، ويقوِّي الحجَّة، ويزيل الشبهة، حسب ما يقتضيه السياق.
- لم تكن الصورة البيَّانية في السور المكِّيَّة مجرَّد زيادة وفضلة، بل هي جزء رئيس منها لا يمكن الاستغناء عنه؛ لأنَّه بمثابة البرهان الساطع والدليل القاطع على الأطروحات المعروضة والحجج المقارِعة.
- للصورة البيانيَّة من تشبيه ومجاز وكناية وتعريض دور بارز في تجسيد المعاني المعقولة في صور حسيَّة مشاهَدة، والغرض منها تقريب المشهد من أفهام الناس في معرض الحِجَاج والاستدلال، حتى يكون وقعه عليهم أشد وأقوى.

● جاء التشبيه في السور المكِّيَّة بوصفه بنية تصويريَّة محكمة، يمثِّل فيها المشبَّه (الدعوى)، والمشبَّه به (البرهان)، ويشتركان في وجه شبه جامع، يسهم في إنتاج الأثر الإقناعي المطلوب، مثل: تأكيد قضيَّة، أو تفنيد مسألة، أو نفي تهمة.

● اتخذ المجاز في السور المكِّيَّة من علاقاته المجازيَّة وسيلة حِجَاجيَّة، تعزِّز الموقف الاستدلالي بآليات حواريَّة تتغيَّا التأثير والإقناع، وتقود إلى تحوُّل وجهة نظر المتلقِّي من حالة الرفض الإنكار إلى حالة القبول والتصديق.

● جاءت الكناية في السور المكِّيَّة مصحوبة بحجَّتها ودليلها، وشكَّلت بؤرة مركزيَّة في العمليَّة الحِجَاجيَّة، ومن شأنها أن تنقل المخاطَب من دائرة الشك والخطأ إلى دائرة اليقين والصواب، وتؤدِّي إلى تغيير في الأفكار السائدة والمواقف العقديَّة.

● أتى التعريض في السور المكِّيَّة مشحونًا بطاقات بلاغيَّة إيحائيَّة، تتطلَّب من المتلقِّين عمليَّات ذهنيَّة استدلاليَّة؛ لاستكناه غاياته ومقاصده، إذ يقدِّم المعنى المقصود بطريقة غير مباشرة تفهم من السياق.

● اعتمدت وظيفة الصورة التأثيريَّة في السور المكِّيَّة على عناصر عاطفيَّة ونفسيَّة، حيث ركَّزت على إثارة وجدان الإنسان ومشاعره من خلال ثنائيَّة (الترغيب/ الترهيب)، فعلى سبيل المثال يظهر الترغيب في خضم الحديث عن الجنَّة ونعيمها، وفي المقابل يبرز الترهيب في أثناء الإخبار عن جهنم وسعيرها، ممَّا يعزِّز أثر الخطاب القرآني في التوجيه والاستجابة.

● تمحورت وظيفة الصورة الإقناعيَّة في السور المكِّيَّة حول مرتكزات عقليَّة وإدراكيَّة، أسهمت في مخاطبة العقول البشريَّة عن طريق ثنائيَّة (الإثبات/ النفي)، فعلى سبيل المثال يتجلَّى الإثبات في تأكيد وقوع البعث والنشور في يوم القيامة، في حين أنَّ النفي يتمثَّل في إنكار وجود الشركاء لله تعالى، وهذا ما يرسِّخ العقيدة الصحيحة في الوعي والإدراك.

وأخيرًا، فإنِّي أوصي الباحثين بالتوجُّه نحو القرآن الكريم، ودراسة ما فيه من ذخائر بلاغيَّة لا تنفد، وعجائب لا تنقضي، فهو ميدان خصب للتدبُّر والبحث، ومنبع لا ينضب للفكر والبيان، فضلًا عن كونه المعجزة الخالدة التي تستحق العناية والاهتمام.

وإنِّي لأسأل الله أن يغفر لي تقصيري، ويقل عثرتي، ويعفو عنِّي، ويجعل هذا العمل خالصًا ابتغاء وجهه الكريم، وينفع به في الدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس الآيات

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾	الأنعام	٣٢	٢٢
﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾	الأنعام	٣٥	٨٤
﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾	الأنعام	٤٥	١٣٢
﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾	الأنعام	٥٢	٨٥
﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾	الأنعام	٦٨	١٠٧
﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾	الأنعام	٧١	٤١
﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ	الأنعام	٧٧	١٩٥

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾			
﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾	الأنعام	٩٢	٨٧
﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾	الأنعام	١٢٢	٤٢
﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾	الأنعام	١٢٥	٤٣
﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾	الأعراف	٢٧	٦٦
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾	الأعراف	٤٠	٤٣
﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾	الأعراف	٩٢	١٨١
﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟	الأعراف	١٤٩	١٣٣

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾			
﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾	الأعراف	١٥٤	١٠٨
﴿*وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾	الأعراف	١٧١	١٧٧
﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾	الأعراف	١٧٥-١٧٦	٤٥
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾	الأعراف	٢٠٦	١٥٢
﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾	يونس	٢	٨٨
﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ	يونس	٥-٦	١٥٣

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾			
﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾	يونس	٤٢-٤٣	١٠٩
﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾	يونس	٤٥	١٨٢
﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾	يونس	٦٧	٦٧
﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾	هود	٢٧	١٥٤
﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾	هود	٣١	٢٠٥
﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾	هود	٤٢	٢٣
﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ	هود	٤٥	١٥٦

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾			
﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾	يوسف	٣١	٢٤
﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾	يوسف	٣٦	٩٠
﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾	يوسف	٤٤	١١٠
﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾	يوسف	٤٨	٦٨
﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾	يوسف	٥٠	١٥٧
﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾	يوسف	٨٢	٩١
﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾	يوسف	٩٩	٩٢
﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾	إبراهيم	١	١١٢

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾	إبراهيم	٤	٩٣
﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾	إبراهيم	١٨	٤٦
﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦﴾	إبراهيم	٢٤-٢٦	٤٧
﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾	إبراهيم	٢٨	٦٩
﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾	إبراهيم	٤٣	١٣٤
﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾	الحجر	٩٤	١١٣
﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾	النحل	١٧	١٩٨
﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ	النحل	٢٦	١١٤

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾			
﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثَا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾	النحل	٩٢	٤٨
﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾	النحل	١٠٢	١٥٨
﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٣﴾﴾	النحل	١٠٣	٩٤
﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾	النحل	١١٢	١١٥
﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾	الإسراء	١٣	١١٧
﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾﴾	الإسراء	٢٤	١١٨
﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾﴾	الإسراء	٢٧	١٣٥
﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾﴾	الإسراء	٢٩	١٣٧

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾	الإسراء	١٠٧	٩٦
﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾	الكهف	٤٢	١٣٨
﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾	الكهف	٤٥	٤٩
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾	مريم	٤	١٢٠
﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾	مريم	٢٠	١٣٩
﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾	طه	٤٧	١٥٩
﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾	طه	٧٤	٩٧
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾	الأنبياء	١٨	١٢١
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾	الأنبياء	٢٢	٢٠٧
﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾	الأنبياء	٦٣	١٦٠

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾	الأنبياء	٧٨	٩٨
﴿*وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾	الأنبياء	٨٣	١٦٢
﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾	الأنبياء	١٠٤	٥٠
﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧﴾	الفرقان	٢٧	١٤٠
﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾	الفرقان	٧٣	١٦٣
﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾	الشعراء	٦٣	٢٦
﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾	القصص	٤	٧٠
﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾	القصص	٣٤	٧١
﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾	القصص	٦١	٢٠٢
﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ	القصص	٦٣	١٨٣

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾			
﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾	القصص	٨٨	٩٩
﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾	العنكبوت	٤١	٥١
﴿*وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾	العنكبوت	٤٦	١٦٤
﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾	الروم	٢٨	٥٢
﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾	الروم	٥٠	٥٣
﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾	لقمان	٧	٥٤

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾	لقمان	١٩	١٢٢
﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾	سبأ	٢٤	١٦٥
﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ٤٩﴾	سبأ	٤٩	١٤١
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾	فاطر	٢٩	١٢٤
﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾	يس	٢٢-٢٣	١٦٦
﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾	يس	٣٧	١٢٥
﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾	يس	٣٩	٢٧
﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾	الصافات	٤٨-٤٩	١٧٨
﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾	الصافات	٦٤-٦٥	٢٨
﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٧﴾	الصافات	١٧٦-١٧٧	١٩٠

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾	ص	٢٨	١٩٩
﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٢٤﴾	الزمر	٢٤	١٤٣
﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾	الزمر	٣٠	١٠١
﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾	الزمر	٥٦	١٤٤
﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾	الزمر	٦٥	١٦٨
﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾	غافر	١-٣	١٦٩
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾	غافر	٥٦	١٠٢
﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣﴾	فصلت	١٣	٢٩
﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾	فصلت	٣٤	٣١
﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا	فصلت	٣٩	٢٠٣

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ ۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾			
﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾	الشورى	١١	١٤٥
﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾	الشورى	٢٠	٢١١
﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾	الشورى	٣٢	٣٢
﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾﴾	الزخرف	١٨	١٤٦
﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾﴾	الجاثية	٥	١٠٣
﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾	الجاثية	٢١	٢٠٤
﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾	الجاثية	٢٩	١٩١
﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾	الجاثية	٣٥	٧٢
﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾	ق	٣٣	٧٤

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾	ق	٣٦-٣٧	١٧٠
﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥﴾	الذاريات	٥	٧٥
﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ٩﴾	الذاريات	٨-٩	٢١٣
﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾	القمر	١٣	١٤٨
﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١﴾	القمر	٣١	٥٥
﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾	القمر	٤٨	١٨٧
﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾	القمر	٥٠	٣٣
﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣﴾	الواقعة	٣	٧٦
﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ٥٥﴾	الواقعة	٥٥	١٨٠
﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾	القلم	١٦	١٤٩
﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧﴾	القلم	١٧	٥٦
﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥﴾	القلم	٣٥	٣٤
﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٤٢﴾	القلم	٤٢	١٥٠
﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾	الحاقة	١٢	٢١٦

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾	الحاقة	٢١	٧٧
﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾	المعارج	٤٣	٥٧
﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾	نوح	٧	١٠٥
﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾	نوح	١٩	٣٦
﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾	نوح	٢٧	٢٠٨
﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾	الجن	١١	٣٧
﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾	المزمل	١٧	٧٨
﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾	المدثر	٤٩-٥١	٥٨
﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾	القيامة	٤	٢١٠
﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾	القيامة	٣٣	١٩٢
﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾	المرسلات	٣٢-٣٣	٣٨
﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾	النبأ	٦-٧	٢٠١
﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾	النبأ	١٦	٨٠
﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾	النازعات	١٢	٨١

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾	النازعات	٤٦	٥٩
﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾	التكوير	٨-٩	١٩٦
﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾	التكوير	١٨	٢١٢
﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾	التكوير	٢٢	٢١٥
﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾	الطارق	٩	١٩٤
﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾	الطارق	١٣-١٤	٢١٧
﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾	الغاشية	٢-٣	١٨٥
﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ۝٢٠﴾	البلد	٢٠	١٨٦
﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾	العلق	١٦	٨٢
﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾	العلق	١٧	١٨٩
﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾	القارعة	٤-٥	٣٩

فهرس المصادر والمراجع

أولًا: المصدر:

القرآن الكريم.

ثانيًا: المراجع:

١. الإبداع البياني في القرآن العظيم، محمد علي الصابوني، المكتبة العصريَّة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٦م.
٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، وضع حواشيه: عبداللطيف عبدالرحمن، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
٣. الأساليب الإنشائيَّة وأسرارها البلاغيَّة في القرآن الكريم، صبَّاح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
٤. أسرار البلاغة في علم البيان، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.
٥. الأسلوب الكنائي: نشأته- تطوُّره- بلاغته، محمود السيِّد شيخون، مكتبة الكليَّات الأزهريَّة، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
٦. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، إشراف: بكر عبدالله أبو زيد، دار عطاءات العلم للنشر، ط٥، ١٤٤١هـ- ٢٠١٩م.
٧. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنيَّة لغويَّة وبيانيَّة، عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
٨. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار ابن كثير، دمشق، ط١١، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.
٩. الإمبراطوريَّة الخطابيَّة: صناعة الخطابة والحِجَاج، شاييم بيرلمان، ترجمة وتقديم وتعليق: الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٢٢م.
١٠. أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

١١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمَّى تفسير البيضاوي، عبدالله بن عمر البيضاوي، حققَّه وعلَّق عليه وخرَّج أحاديثه وضبط نصَّه: محمد صبحي حلَّاق ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد، دمشق، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
١٢. أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير، أبو بكر الجزائري، دار راسم للدعاية والإعلان، جدَّة، ط٣، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.
١٣. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي، المكتبة العصريَّة، بيروت، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
١٤. البداية والنهاية، ابن كثير، حققَّه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: محيي الدين ديب مستو، راجعه: عبدالقادر الأرناؤوط وبشار عواد معروف، دار ابن كثير، دمشق، ط٢، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
١٥. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
١٦. البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.
١٧. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبدالمتعال الصعيدي، الناشر مكتبة الآداب، القاهرة، ط١٠، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
١٨. بلاغة الإقناع في المناظرة، عبداللطيف عادل، منشورات ضفاف، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
١٩. البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠١٢م.
٢٠. البلاغة العربيَّة في ثوبها الجديد: علم البيان، بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
٢١. بلاغة الفرائد القرآنيَّة، سارة بنت نجر العتيبي، دار مستقبل الكتاب للنشر والتوزيع، جدَّة، ط١، ١٤٤٣هـ- ٢٠٢٢م.
٢٢. البلاغة فنونها وأفنانها: علم البيان والبديع، فضل حسن عبَّاس، دار النفائس، الأردن، ط١٢، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٩م.

٢٣. البيان في ضوء أساليب القرآن، عبدالفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
٢٤. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
٢٥. التبيان في البيان، شرف الدين الطيبي، قرأه وعلَّق عليه: يحيى مراد، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
٢٦. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، تحقيق: محمد بن سيدي محمد مولاي، دار الضياء للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
٢٧. التصوير البياني: دراسة تحليليَّة لمسائل البيان، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٨، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.
٢٨. التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، عبدالعزيز صالح العمَّار، جائزة دبي الدوليَّة للقرآن الكريم، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
٢٩. التعريض في القرآن الكريم، إبراهيم محمد عبدالله الخولي، دار البصائر، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
٣٠. التعريفات، الشريف الجرجاني، وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
٣١. تفسير البحر المحيط، أبو حيَّان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوَّض وزكريا عبدالمجيد النوتي وأحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٣، ٢٠١٠م.
٣٢. التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٩٠م.
٣٣. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسيَّة للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
٣٤. تفسير جزء عم، محمد متولي الشعراوي، دار الراية للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
٣٥. تفسير الجلالين، جلال الدين المحلِّي وجلال الدين السيوطي، راجعه وأعدَّه للنشر: محمد محمد تامر، دار الآفاق العربيَّة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

٣٦. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم: قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، القاهرة، ١٩٩١م.
٣٧. تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيِّد أحمد صقر، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
٣٨. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: محمد إبراهيم البنَّا، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
٣٩. تفسير القرآن الكريم: جزء عم، محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
٤٠. تفسير القرآن الكريم: سورة الصافات، محمد بن صالح العثيمين، من إصدارات مؤسَّسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيريَّة، القصيم، ط٧، ١٤٣٧هـ.
٤١. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
٤٢. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جارالله الزمخشري، اعتنى به وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٤٣. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١٠، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٤٤. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار المعارف، القاهرة، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
٤٥. تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، حقَّقه وقدَّم له وصنع فهارسه: محمد عبدالغني حسن، دار إحياء الكتب العربيَّة، القاهرة، ط١، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م.
٤٦. تهذيب اللُّغة، محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: أحمد عبدالرحمن مخيمر، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
٤٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به وأعدَّه للنشر: محمد محمد تامر، دار الآفاق العربيَّة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٤٨. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّمَّاني والخطَّابي وعبدالقاهر الجرجاني في الدراسات القرآنيَّة والنقد الأدبي، حقَّقها وعلَّق عليها: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦م.
٤٩. الجامع الكبير، أبو عيسى محمد الترمذي، حقَّقه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٥٠. الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمَّنه من السنة وآي الفرقان، القرطبي، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي وكامل محمد الخرَّاط وغياث الحاج أحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
٥١. الجمان في تشبيهات القرآن، ابن ناقيا البغدادي، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، دار الجمهوريَّة، بغداد، ١٣٨٧هـ- ١٩٦٨م.
٥٢. حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي الحنفي، ضبطه وصحَّحه وخرَّج آياته: محمد عبدالقادر شاهين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
٥٣. الحِجَاج بين المنوال والمثال: نظرات في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري، علي الشعبان، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠٠٨م.
٥٤. الحِجَاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط٢، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.
٥٥. الحِجَاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة، عبدالله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.
٥٦. الحِجَاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظريَّة وتطبيقيَّة في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
٥٧. حِجَاجيَّة المجاز المرسل في القرآن الكريم: نماذج تطبيقيَّة، سالمة الراجي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمَّان، ط١، ١٤٤٢هـ- ٢٠٢١م.
٥٨. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنِّي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٥٩. خصائص التراكيب: دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٨، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٦٠. الخطابة، أرسطوطاليس، حقَّقه وعلَّق عليه: عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩م.
٦١. الخيال: مفهوماته ووظائفه، عاطف جودة نصر، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
٦٢. دلالات التراكيب: دراسة بلاغيَّة، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
٦٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ضبطه وصحَّحه: علي عبدالباري عطيَّة، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
٦٤. شرح الأصول الثلاثة لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، محمد بن صالح العثيمين، إعداد: فهد ناصر سليمان، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
٦٥. صحيح البخاري، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٣، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.
٦٦. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م.
٦٧. الصورة الأدبيَّة في القرآن الكريم، صلاح الدين عبدالتواب، الشركة المصريَّة العالميَّة للنشر- لونجمان، مصر، ط١، ١٩٩٥م.
٦٨. الصورة الأدبيَّة، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.
٦٩. الصورة البلاغيَّة عند عبدالقاهر الجرجاني منهجًا وتطبيقًا، أحمد علي دهمان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٦م.
٧٠. الصورة الشعريَّة في الخطاب البلاغي والنقدي، الولي محمد، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٠م.
٧١. الصورة الفنيَّة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، ط٣، ١٩٩٢م.

٧٢. على طريق التفسير البياني، فاضل صالح السامرائي، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م.
٧٣. علم البيان: دراسة تحليليَّة لمسائل البيان، بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
٧٤. علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.
٧٥. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصريَّة، بيروت، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.
٧٦. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، اعتنى به وراجع أصوله: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
٧٧. فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فتحي أحمد عامر، الناشر منشأة المعارف، الإسكندريَّة، ١٩٨٨م.
٧٨. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٧م.
٧٩. في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠٠٢م.
٨٠. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٨١. القرآن والصورة البيانيَّة، عبدالقادر حسين، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
٨٢. القرآن والعلم، أحمد محمود سليمان، الدار القوميَّة للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت).
٨٣. قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق: سعيد اللحَّام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٨٤. كتاب جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، ضبطه وكتب هوامشه ونسَّقه: أحمد عبدالسلام، وخرَّج أحاديثه: محمد سعيد زغلول، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٨٥. كتاب الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
٨٦. كتاب دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلَّق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
٨٧. كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧١هـ- ١٩٥٢م.
٨٨. كتاب عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصريَّة، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
٨٩. كتاب المنهاج في ترتيب الحِجَاج، أبو الوليد الباجي، تحقيق: عبدالمجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ٢٠٠١م.
٩٠. الكناية في القرآن الكريم: موضوعاتها ودلالاتها البلاغية، أحمد فتحي رمضان الحياني، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.
٩١. الكناية والتعريض، الثعالبي، دراسة وشرح وتحقيق: عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م.
٩٢. الكون والقرآن: كتاب يبحث في علم الفلك، محمد علي حسن الحلي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
٩٣. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٤م.
٩٤. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٨م.
٩٥. اللُّغة والحِجَاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٦م.
٩٦. اللُّغة والخطاب، عمر أوكان، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١١م.
٩٧. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، قدَّمه وعلَّق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، ط٢، ١٩٧٣م.
٩٨. مجاز القرآن: خصائصه الفنيَّة وبلاغته العربيَّة، محمد حسين علي الصغير، دار المؤرّخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٩٩. المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالحق بن عطيَّة الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
١٠٠. المصنَّف في الحِجَاج: الخطابة الجديدة، شاييم بيرلمان ولوسي أولبرخت تيتكا، ترجمة: محمد الولي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٢٣م.
١٠١. معاني القرآن الكريم، أبو جعفر النحَّاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكَّة المكرَّمة، ط١، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.
١٠٢. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجَّاج، شرح وتحقيق: عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
١٠٣. المعجم المفصَّل في الأدب، محمد التونجي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
١٠٤. معجم مقاييس اللُّغة، ابن فارس، تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
١٠٥. المعجم الوسيط، مجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة، مكتبة الشروق الدوليَّة، ط٤، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
١٠٦. مفتاح العلوم، السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلَّق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
١٠٧. مقابلات قصَّة يوسف عليه السلام، عبدالله بن عبده العواضي، غافق للدراسات والنشر، ط٢، ١٤٤٤هـ- ٢٠٢٢م.
١٠٨. من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، ٢٠٠٥م.
١٠٩. من بلاغة النظم القرآني، بسيوني عبدالفتاح فيود، مطبعة الحسين الإسلاميَّة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
١١٠. من الحِجَاج إلى البلاغة الجديدة، جميل حمداوي، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٤م.
١١١. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.
١١٢. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطَّهرة، يوسف الحاج أحمد، مكتبة ابن حجر، دمشق، ط٢، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

١١٣. النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، محمد عبدالله دراز، اعتنى به وخرَّج أحاديثه: عبدالحميد الدخاخني، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
١١٤. النظريَّة الحِجَاجيَّة من خلال الدراسات البلاغيَّة والمنطقيَّة واللسانيَّة، محمد طروس، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
١١٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، خرَّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
١١٦. النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، ١٩٩٧م.
١١٧. النقد الأدبي، داود سلُّوم، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٦٧م.
١١٨. النقد التطبيقي والموازنات، محمد الصادق عفيفي، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨م.
١١٩. نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر، ط٢، ١٩٦٣م.

ثالثًا: المجلات والدوريات:

١. أثر التشبيه على المعنى في القرآن الكريم، عمر عطيَّة الله الأنصاري، مجلَّة مركز البحوث والدراسات الإسلاميَّة، م٨، ع٢٧، ٢٠١٢م.
٢. سورة القيامة: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، إبراهيم منصور التركي، مجلَّة العلوم العربيَّة، ع١٤، محرَّم ١٤٣١هـ.
٣. من أسرار العدول إلى المجاز المرسل في القرآن الكريم، صديق مصطفى الريح، مجلَّة آداب، ع٢٩، ديسمبر ٢٠١٢م.
٤. الوظيفة الحِجَاجيَّة البلاغيَّة عند علي الطنطاوي: دراسة وصفيَّة تحليليَّة، حمود إبراهيم العصيلي وياسمين علي الرديني، المجلَّة الإفريقيَّة للدراسات المتقدِّمة في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، م٢، ع٤، أكتوبر- ديسمبر ٢٠٢٣م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
إهداء	أ
شكر وتقدير	ب
الملخص باللغة العربية	ج
المقدمة	١
التمهيد	٦
أولًا: مفهوم الصورة البيانيَّة	٧
ثانيًا: مفهوم الحِجَاج	١٢
الفصل الأول: حجاجيَّة التشبيه	١٨
المبحث الأول: حجاجيَّة التشبيه المفرد	٢٢
المبحث الثاني: حجاجيَّة التشبيه المركَّب	٤١
الفصل الثاني: حجاجيَّة المجاز	٦٢
المبحث الأول: حجاجيَّة المجاز العقلي	٦٦
المبحث الثاني: حجاجيَّة المجاز المرسل	٨٤
المبحث الثالث: حجاجيَّة الاستعارة	١٠٧
الفصل الثالث: حجاجيَّة الكناية والتعريض	١٢٧
المبحث الأول: حجاجيَّة الكناية	١٣٢
المبحث الثاني: حجاجيَّة التعريض	١٥٢
الفصل الرابع: وظائف الصورة الحجاجيَّة	١٧٣
المبحث الأول: التأثير	١٧٧
المبحث الثاني: الإقناع	١٩٨
الخاتمة	٢٢٠
فهرس الآيات	٢٢٢
فهرس المصادر والمراجع	٢٣٨

الموضوع	الصفحة
فهرس الموضوعات	٢٤٨
الملخص باللغة الإنجليزية	٢٥٠

Argumentation of Figures of Speech in Meccan Surahs

A Rhetorical Approach

Sultan Mohammed Owaidh Aljohani

Abstract

This study is devoted to examining figurative imagery in the Meccan surahs and uncovering its argumentative dimension as a means of influence, persuasion, and rhetorical appeal. Consequently, such imagery is not merely a transient verbal ornament, but rather a fundamental component of the rhetorical structure. It is indispensable and cannot, under any circumstances, be dispensed with, as it transcends the formal aspect to attain greater impact and deeper rhetorical resonance.

The study adopts a descriptive-analytical approach that seeks to describe and analyze figurative imagery in the Meccan surahs and to examine its argumentative dimension through two main axes: the first explores the sources of its argumentative strength, and the second investigates the resultant argumentative effect. This analysis is carried out with reference to key notions of the rhetoric of argumentation.

The dissertation consists of an introduction, a preface, four chapters, a conclusion, and indexes. The introduction presents the research problem, its significance and value, objectives, previous studies, the research methodology, and the structure of the dissertation. The preface addresses the concept of figurative imagery and the concept of argumentation. Chapter One explores the argumentative function of simile through two sections: the first examines the argumentation of the simple simile, and the second focuses on the argumentation of the compound simile. Chapter Two investigates the argumentative dimension of trope through three sections: the first discusses the argumentation of logical trope, the second addresses the argumentation of metonymic trope, and the third analyzes the argumentation of metaphor. Chapter Three focuses on the argumentative function of metonymy and allusion through two sections: the first on the argumentation of metonymy, and the second on the argumentation of

allusion. Chapter Four examines the rhetorical functions of argumentative imagery through two sections: the first on its function in producing impact, and the second on its function in achieving persuasion. The dissertation concludes with a summary of the main findings and key recommendations, followed by an index of Qur'anic verses, a bibliography, and a subject index.

The research concluded that the Meccan Qur'anic discourse is, par excellence, a persuasive argumentative discourse. One of its most important mechanisms is the rhetorical imagery, as it addresses major, pivotal issues such as affirming the oneness of God, and the resurrection and reckoning after death.

تم بحمد الله